قصص النساء

في القرآن

إعـداد

رضا بن محمد بن عثمان الحفناوي



شارع جيهان ـ أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦
Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: قصص النساء في القرآن

إعـــــداد: رضا بن محمد بن الحفناوي

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى 2011



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ فخير ما تُنفق فيه الأوقات وتُستجلب به الرحمات، وتتنزل به البركات طلب العلم النافع الذي يبصر من العمى ويحفظ القلب من الردى، وحينئذٍ يسير المرء في حياته على بصيرة، ويحيا حياة مستقيمة ولا يزال ترتفع درجته عند ربه حتى ينال في الجنة درجة رفيعة؛ قال الله عز وجل:{يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ} [المجادلة: ١١].

واعلم - أرشدك الله تعالى لطاعته - أن علم قصص النساء في القرآن من أهم علوم الشريعة؛ فهو من قوانين الحياة العملية ودستور المعاملات اليومية، ومفتاح السعادة الزوجية، وعلى ضوءه تطبق الأحكام الشرعية وفي ظلاله تؤدى الشعائر التعبدية. فكما أن علم التوحيد يضبط الاعتقاد، وعلم السلوك يضبط القلب، فكذلك علم قصص النساء في القرآن يضبط معاملة الزوج مع زوجته.

ومن هنا تظهر حاجة كل مسلم إلى أن يحصل من هذا العلم ما تصح به معاملته، ويعلم أن القرآن رفع من شأن المرأة وهيئ لها حقوقها بكل الطرق؛ فدين الإسلام دين وسط في كل شيء؛ يعامل الرجل ويعامل المرأة بما يصلح كل منهما؛ خلافاً لما يقوله بعض المتأخرين ممن طمس الله تعالى بصره عن الحق وأعماه عن الهدى: إن دين الإسلام دين الوحشية والهمجية؛ حيث أنه يعامل النساء بقسوة في الختان، وهذا من جهلهم وإفكهم وعدم علمهم

بفطرة الله تعالى السوية وحكمته الجليلة المرضية، الله أعلم بخلقه وأحكم في تدبيره يقص الحق وهو خير الفاصلين.

كما قالوا: إن الإسلام لا يعطي للمرأة حقها فلماذا تأخذ المرأة نصف نصيب الرجل في الميراث؛ وهذا من الشبه التي يلقيها أعداء الله تعالى في قلوب المسلمين حتى يردوهم عن دينهم.

وقد قمت بإعداد هذا الكتاب (قصص النساء في القرآن) بناء على طلب أحد الأحبة، وقد قمت بجمع مادته العلمية من علمائنا الأفاضل وعلى رأسهم شيخي الفاضل فضيلة العلامة محمد بن المختار الشنقيطي، وفضيلة الدكتور عبد الرحيم الطحان، وفضيلة العلامة القدوة محمد بن صالح العثيمين، وفضيلة الدكتور صالح الفوزان، وفضيلة العلامة الدكتور إبراهيم الدويش.

هذا ولا أنسى فضل شيخي المبارك فضيلة العلامة القدوة الفقيه أبو بكر ابن الحنبلي؛ الذي قام بتعليمي بداية المتفقه والعقيدة الطحاوية، وأرجو من الله تعالى أن يشفيه من الأمراض القلبية والبدنية وأن يطيل في عمره على طاعته؛ فأين نحن من علماؤنا الأفاضل، وكيف نسير وكيف نجتهد بدونهم؟؟

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يبعثنا وإياهم في مقر رحمته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إعداد

أبي محمد

رضا محمد بن عثمان الحفناوي

(الحنبلي المذهب)

حواء عليها السلام

قصص النساء في القرآن

[1] حواء عليها السلام

وقد ورد ذكرها في قول الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١} [النساء: ١].

موجز القصة:

سكنت حواء مع زوجها آدم عليه السلام أبو البشر الجنة، وأنذرهما الله تبارك وتعالى أن لا يقربا شجرة معينة، ولكن الشيطان وسوس لهما فأكلا منها فأنزلهما الله إلى الأرض ومكن لهما سبل العيش بها وطالبهما بعبادة الله وحده وحض الناس على ذلك.

عندما نقرأ القرآن لا نجد ذكراً لحواء أبداً {ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا} [النساء: ١]، لم يستعرض خلق حواء كما أفرد لخلق آدم في سبع سور وكل سورة فيها اختلاف.

ليس في القرآن شيء عن حواء، وإنما ورد في السنة المطهرة؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {لولا بنو إسرائيل لم يَخنزِ اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها}[1].

قال الحافظ ابن حجر: قوله صلى الله عليه وسلم: {لولا بنو إسرائيل لم يَخنزِ اللحم}؛ يخنز؛ أي: ينتن؛ والخنز التغير والنتن، قيل أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى، وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك. حكاه القرطبي، وذكر غيره عن قتادة. وقال بعضهم: معناه لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن.

(1) صحيح: أخرجه البخاري كتاب الأنبياء (3330).

قوله صلى الله عليه وسلم :{ولولا حواء}؛ أي: امرأة آدم.

قوله صلى الله عليه وسلم :{لم تخن أنثى زوجها}؛ أي: فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك؛ فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا لله.

ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم عُد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها، وقريب من هذا حديث:{جحد آدم فجحدت ذريته}، وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى، وان ذلك من طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع بل يضبطن أنفسهن ويجاهدون هواهن.

المهم أنا كمسلم المفروض أن أسلّم بكتاب الله تعالى؛ ويجب على كل مسلم أن يقول في نفسه على الله الأمر وعلى الرسول البلاغ وعلينا الرضا والتسليم؛ المسلم الحق يأخذ القرآن نبراساً، ويأخذه مثالاً والقرآن هو الذي يبقى وليس لأي أحد يحدد ماذا يقول؛ لأن هذا على الله تعالى.

ماذا فعلت الإسرائيليات؟ إذا وجدوا أنك تشتكي من شيء معين فهم يأخذوك ويصطادوك ويتلقفون من يريد سماع قصة،،وينسجون

حكاية حولها والظروف خدمتهم في أن هنالك حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه:{استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا}.

لو كنت محققاً أو متدبراً أو واعياً يجب أن أعرف لماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحديث، وما هو سببه، وما هي مناسبته؟

هل كان يتكلم عن خلق آدم وحواء؟ أو كان يستعرض خلق آدم وحواء؟ يجب أن نعرف مناسبة الحديث وسببه ولماذا قاله صلى الله عليه وسلم ؟

مناسبة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يشجع الرجال على حُسن معاملة النساء ويضرب لهم مثلاً بطبيعة المرأة لا بخلقها فيقول صلى الله عليه وسلم : {استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا}.

أول الحديث يقول استوصوا بالنساء خيراً، إذن الرسول - صلى الله عليه وسلم يعلم أن طبيعة المرأة تجعل الرجل قد يسيء معاملتها؛ لأنه لا يفهم حقيقة الأمر، فإن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل مع أنهما من جنس واحد، وهذه الطبيعة التي قد لا تعجب الرجل في المرأة هي الميزة وهي قمة الاستقامة.

الحديث ليس له علاقة بالخِلقة إنما النقطة التي تكلم فيها الحديث هي التي تكلمت فيها آيات سورة النساء، المضمون العام{فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا } [النساء: ١٩]، أنت كرهته لأسباب

وليس فجأة لكن هذه الأسباب شاء الله تعالى لو أنت صبرت سيجعل الله تعالى فيه خيراً كثيرا.

آيات الطلاق فيها توصيفات بديعة وفيها مضامين ليس لها علاقة بالطلاق ولكنها تبشر الصابر{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ} [الطلاق: ٢ - ٣]، ما علاقة هذه الآية بالطلاق؟ لكن إذا تدبرتها تجد أن الرجل المستعجل بالطلاق لو صبر يجعل الله تعالى له مخرجاً.

إذن مضمون سورة الطلاق هو مضمون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم إذا ذهب رجل ليطلق امرأته يقول له الحديث انتبه أنت لم تفهم، استوصي بالنساء خيراً المرأة خلِقت من ضلع أعوج.

الإسرائيليات دخلت هنا وأخذت هذه الجملة فقط، وقالت: أن آدم كان نائماً ثم أُخِذ منه ضلع خلقت منه حواء، من أين جاءوا بهذا الكلام؟ كلمة ضلع أصلها بعيد عن ضلع العظم الذي في جنب الإنسان. العرب قبل القرآن كانوا يسمون المنحني من الأرض ضلعاً هذا قبل القرآن وقبل محمد صلى الله عليه وسلم وقبل الحديث.

ولما نفهم نحن هذا الأمر ما سُمّيَ هذا الجزء من الجسد ضلعاً إلا لأنه أعوج، كلمة ضلع هي الميزة التي في العظم وغاية استقامة الأعوج أنه أعوج حتى يقوم بمهمته ولولا اعوجاجه لسقط القلب في الحشى وهذا تدبير إلهي. لذا قال تعالى:{ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩} [الحجر: ٢٩]؛ نفخ الروح هو آخر مرحلة في الخلق بعد تمام التسوية؛ سوّى واستوى لا تطلق إلا على الشيء المنضبط الناضج المكتمل في مهامه.

الرسول صلى الله عليه وسلم تدرّب على وحي السماء وتعلّم على وحي السماء فأصبحت مفردات كلماته عالية لغوية بليغة فقال: فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه. هذه تذكرنا بواقعة عيسى وآدم عليهما السلام:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ} [آل عمران: ٥٩]، ثم تكلم عن آدم خلقه من تراب؛ لغة الرسول صلى الله عليه وسلم مستقاة من الوحي وتأثير الوحي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم بلغة القرآن.

القرآن كلام الله تعالى؛ وقال سبحانه:{ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ} [الأنبياء: ٣٧]، فهل هناك مادة اسمها عجل خلق منها الإنسان؟ حتى لو لم أعرف المجاز والكناية والاستعارة، وفي آية أخرى:{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ} [الروم: ٥٤]. نحن لما سمعنا أنا خلقنا من تراب ذهب ذهننا إلى التراب الذي نعرفه لكن لما نسمع من ضعف فهل هناك مادة اسمها ضعف؟ أو عجل؟ هذه الكلمات كناية أو مجاز أو غيرها. لكن نفهم من{ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ} [الأنبياء: ٣٧]، أنها كناية عن أن الإنسان بطبيعته يحب العجلة؛ فكأنه مخلوق من مادة يوصَف بها، وكذلك كلمة من ضعف وكذلك كلمة من ضلع، من ضعف تساوي في الأداء من عجل تساوي عند الرسول صلى الله عليه وسلم من ضلع.

أما بخصوص الآية في مطلع سورة النساء، الله تعالى خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها؛ قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾} [النساء: ١].

من نفس واحدة (آدم) النفس الواحدة خلق منها آدم باتفاق العلماء، وخُلِق منها حواء فهي لم تخلق من آدم، وإنما من النفس. للأسف لا

أحد ينتبه للتعبير الأدائي فنحن تصورنا أن الله تعالى خلق آدم من نفس ثم خلق حواء من آدم وهذا خطأ. في سورة الأعراف قال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾} [الأعراف: ١١]، خلقكم أنتم وساعة ما صوّر آدم كأنه صوّركم أنتم لأنكم أنتم قد تحتاجون لأدوات إذا أردتم أن تفعلوا شيئاً وتحتاجون لزمن لهذا الفعل أما الله تعالى بنصّ القرآن الكريم:{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾} [يس: ٨٢]، فساعة ما يقول أنا سأخلق آدم ليعمل ذرية تكون الذرية قد عملت وانتهى الأمر. الآية صحيحة إلى يوم القيامة (خلقناكم - من عهد آدم - وخلق منها - أي من نفس النفس التي خلق منها آدم - خلق زوجها. آدم ليس هو النفس، وإنما هو جاء منها، وكما خُلِق آدم خُلِقت حواء، لأن الله تبارك وتعالى يقول توقيعاً لهذه النقطة{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾} [الذاريات: ٤٩]؛ يعني كلمة شيء إذا كانت موجودة في أي وقت أو زمان أو أي شيء يجب أن يكون فيه زوجان ذكر وأنثى لأن الخلق مثنى. حواء خلقت فوراً مع خلق آدم بدليل{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: ٤٩]. إذن حواء خلقت إما مع آدم جنباً إلى جنب أو بعد إتمام خلق آدم وعلى أي حال فهي خلقت بنفس الكيفية ولا داعي لتكرار طريقة خلقها في القرآن.

ولتوضيح معنى (مِنْ نَفْسٍ) سنضرب هذا المثال؛ قال تبارك وتعالى:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [الجمعة: ٢]، فهل تعني أنه أخذ قطعة منهم خلق منها محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ كلا وإنما هو توقيع مجازي يدل على أنه من طبيعتهم، من جنسهم، من أنفسهم، من نفس الخلقة، بشر مثلكم لأنكم لستم ملائكة ولو كنتم ملائكة لأنزل

عليكم ملكاً رسولاً. كلمة رسالة تعني مرسِل وهو الله تبارك وتعالى، ومرسَل وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ومرسَل إليه وهم البشر.

لذلك، حتى لا يحصل لبس عند محاولة فهم الآيات والأحاديث، يجب على الشخص فهم أساليب العربية لذا قال تعالى:{ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢} [يوسف: ٢]؛ اللغة العربية شأنها كبير جداً ولغة القرآن الكريم أكبر؛ اللغة العربية تختلف عن باقي اللغات فالقواعد في اللغات الأخرى يمكن أن يدرسها الإنسان في شهر أو سنة أو أكثر لكن اللغة العربية فليس لدراستها مدة محددة فقد نموت ولا ننتهي من دراسة اللغة العربية وقواعدها كلها. واللغة العربية مسألة ولغة القرآن مسألة أخرى.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *

امـرأة نــوح وامرأة لوط

قصص النساء في القرآن

[2] قصة امرأة نوح وامرأة لوط

وقد ورد ذكرهما في قوله تعالى: {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾} [التحريم: ١٠] وكانت خيانتهما في الدين، وليس في الفاحشة.

* * *

موجز القصة:

إن توجيهاتِ القرآن ترقى بالمرأةِ وتضعُهَا في مكانةٍ رفيعةٍ جدًّا، وها نحن اليوم نقف لنأخذ الدروس والعبر، من قصة امرأتين أنعم الله عليهما بنعمة عظيمة، وأكرمهما بكرم منه، فجعلهما زوجتين لنبيين عظيمين من أنبياءه، ولكن الله عز وجل ضرب بهاتين المرأتين المثل للكافرين، وهما امرأة نوح وامرأة لوط، وبعدهما ضرب مثلاً للمؤمنين بامرأتين هما: امرأة فرعون ومريم بنت عمران.

وقد ذكر الله ذلك في خواتيم سورة التحريم التي افتتحها الله تعالى أيضاً بقصة امرأتين هما:حفصة وعائشة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدبروا روعة القرآن وبلاغته، قال الله عز وجل: {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} [التحريم: ١٠].

والمثل هنا يضرب للكافرين في أن مجرد مخالطتكم للمسلمين ومعاشرتكم وعيشكم بينهم، لن يجدي عنكم شيئًا فإن لم تسلموا وتؤمنوا فلن ينفعكم عند الله شيئاً، فهذا المثل ضربه الله شبهاً لكفار

مكة، وذلك أنهم استهزؤوا وقالوا: يكفينا أن محمداً صلى الله عليه وسلم مِنَّا وَبِنَا فسيشفعُ لنا؛ فبيّن الله تعالى أن شفاعته صلى الله عليه وسلم لا تنفع لكفار مكة، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته. ويقال: فيه تخويف لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لَيَثْبُتُنَّ على دينه وطاعته.

قال يحيى بن سلام: " وهذا مثل ضربه اللّه ليحذر به حفصة وعائشة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران ترغيباً في التمسك بالطاعة "، وقال مقاتل: " يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية، وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم ".

إذاً فلا مجاملة لأحد ولا محاباة مهما كان، فمعيار النجاة هو: الإيمان، حتى لو كان ابن نبي أو والده أو أخاه أو زوجه أو أحد أرحامه؛ فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام،لم ينفع والده بشيء؛ قال الله تعالى:{ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾} [التوبة: ١١٤].

وهذا نوح عليه السلام لما هلك قومه وفيهم ابنه يام وقيل اسمه كنعان (أخو سام وحام ويافث) الذي أعرض عن الإيمان بالله رب العالمين، فنادى نوح ربه فقال:{رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾} [هود: ٤٥ - ٤٦].

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم

قبْرَ أُمِّهِ فبَكَى، وَأبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فقال:{اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمُوْتَ}؛ فلا مجاملة ولا محاباة حتى لأمه صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى يقول:{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾} [التوبة: ١١٣].

وهكذا ولو كانتا امرأتي نبي الله نوح ولوطٍ، ولذا ضرب الله بهما المثل فقال:{ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ} [التحريم: ١٠]؛ أي: نبيين رسولين، هاتان المرأتان عندهما في صحبتهما ليلا ونهارًا يؤكلانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط.

قال علماؤنا حفظهم الله تعالى ورعاهم: العقيدة هي الخط الفاصل بين دعوة الأنبياء ودعوة العقلانيين والملحدين، وهي روح الإنسان؛ فالإنسان الذي لا عقيدة له لا روح له؛ فهي أعز ما يملكه الإنسان، ولذلك لما عرض المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته ويملكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه ونحوه فرفض؛ وقال عليه الصلاة والسلام لعمه أبو طالب:**{والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه}**؛ فعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فنزل قول الله تعالى:{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ } [الكافرون: ١ - ٥]؛ **فالعقيدة لا تهاون فيها لأحد ولا شفاعة فيها لأحد؛** فهذا آزر أبو إبراهيم عليه السلام ما أغناه ابنه عليه السلام مع أنه أبو الأنبياء؛ بل إن إبراهيم عليه السلام تبرأ منه

لما تبين له أنه عدو لله تعالى؛ قال الله تعالى:{ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]، وهذا نوح عليه السلام لما كفر ابنه وقال الله تعالى على لسانه:{رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ } [هود: ٤٥]، قال له الله تعالى:{قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾} [هود: ٤٦]؛ فنفى الله تعالى الصلة بين نوح عليه السلام وبين ابنه الذي من صلبه لاختلاف العقيدة بينهما؛ بل إن الخلاف في العقيدة يؤدي إلى عدم توارث الابن من أبيه الكافر والعكس، أو الأب من ابنه الكافر والعكس؛ فهي أساس الحياة وما خلق الله تعالى الخلق إلا لعبادته؛ قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾} [الذاريات: ٥٦]؛ أي: وما أوجدت الجن والإنس إلا من أجل عبادتي، ولذلك لا يقبل الله تعالى أي شيء من العبد إذا كان مشركًا به، ولا يغفر الله تعالى أي ذنب مع الشرك؛ وذلك لأن الشرك مصادم للأصل الذي خُلق الإنسان من أجله؛ قال الله تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾} [النساء: ٤٨]. نسأل الله العظيم أن يحينا على الإسلام ويميتنا على الإيمان إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قيل: أن اسم امرأة نوح واعلة، واسم امرأة لوط واهلة، وقال مقاتل: والعة ووالهة؛ ولا فائدة من معرفة الاسم، وإلا لذكر الله تعالى اسميهما {كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ } [التحريم: ١٠]؛ والتحتية هنا مجازٌ في معنى الصيانة والعصمة،{مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ } [التحريم: ١٠]؛ وإنما خُصَّا بوصف عبدين صالحين مع أن وصف النبوة أخَصُّ من

وصفِ الصلاح: تنبيهاً إلى نساءِ المسلمينَ في معاملتهن أزواجَهُنَّ الصالحين، فإن وصفَ النبوةِ قد انتهى بالنسبةِ للأمةِ الإسلاميةِ، مع ما في ذلك من تهويلِ الأذى لعبادِ اللهِ الصالحينَ، وعنايةِ ربِّهم بهم ومدافعتِه عنهم.

وقوله:{فَخَانَتَاهُمَا} [التحريم: ١٠]؛ أي: في الإيمان،لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، بل كانتا كافرتين فلم يُجْدِ قربهما من الأنبياء شيئًا، ولا دفعَ عنهما محذورا؛ ولهذا قال:{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} [التحريم: ١٠]؛ أي: لكفرهما، فليس المراد بقوله:{فَخَانَتَاهُمَا} [التحريم: ١٠]؛ أي: في فاحشة، بل في الدين، فإن نساءَ الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمةِ الأنبياء.

قال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين، أو قال: وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تقول للناس:إنه مجنون، وإذا آمن به أحد أخبرت به الجبابرة، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومه على أضيافه، فإذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه نزل به ضيف.

وقال الضحاك رحمه الله تعالى: " أن خيانتهما النميمة، فإذا أوحى اللّه تعالى إلى نبيه شيئاً أفشتاه إلى المشركين "، وقال عكرمة: " الخيانة في كل شيء ليس في الزنا فقط "؛ قال الله تعالى:{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} [التحريم: ١٠]، جعل الله تعالى حالة هاتين المرأتين عظةً وتنبيهاً للذين كفروا، أي ليُذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صَارِفٌ، فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله تعالى، ولا أن مكانهم من جوار بيتِه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم،

فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين، لكن{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} [التحريم: ١٠]؛ أي: لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب اللّه، تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة دون الوسيلة. فلم يمنعهما نبوة وصلاح زوجيهما مع كفرهما من الله شيئاً، بل{وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} [التحريم: ١٠]؛ أي: قيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام.

فالعلاقة الزوجية لا تنفع شيئاً مع الكفر، وقد بَيَّن تعالى ما هو أهمُّ من ذلك في عموم القرابات؛ كقوله تعالى:{يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾} [الشعراء: ٨٨]، وقوله:{يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾} [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وكذلك كفار مكة، وإن كانوا أرحامًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فلا ينفعهم صلاحُ النبي وقربُه من الله وعبادتُه ومحبةُ الله له وتفضيلُ الله له على سائر خلقه، وكذلك أزواجه إذا خالفنه، وكذلك بناته وعشيرته.

ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ:**{يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللهِّ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللهِّ، يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِّ! يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنْ اللهِّ، لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنْ اللهِّ شَيْئًا، سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا}**.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله تعالى عنها قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ:{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾} [الشعراء: ٢١٤]، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الصَّفَا فقَالَ:{يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ}.

وفي سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ:{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾} [الشعراء: ٢١٤]، جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قُرَيْشًا فَخَصَّ وَعَمَّ، فَقَالَ:{يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي قُصَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، إِنَّ لَكِ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا}؛ أي: سأصِلُها بالإحسان إليها؛ فالكافر يعاقب بكفره ولا يحابى بما بينه وبين نبي أو مؤمن أو صالح من النسب والرحم{كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾} [المدثر: ٣٨]، وقال صلى الله عليه وسلم :{وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ}.

ورحم الله تعالى من قال:

لَعَمْرُكَ مَا الإنسَانُ إلا بِدِينِهِ ::: فَلا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَب
لَقَدْ رَفَعَ الإِسْلامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ ::: وَقَدْ وَضَعَ الشركُ النسيبَ أَبَا لَهَب؟

{وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} [التحريم: ١٠]، لو قال: ادخلا النار لكفى، وإنما زاد{مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} [التحريم: ١٠]، لإفادة مساواتِهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة؛ وذلك تأييسٌ لهما من أن ينتفعا بشيء من

حظوة زوجيهما.

فقصة امرأة نوح لم ترد إلا في هذه سورة التحريم، إلا أن الله أشار لهلاكها في سورة هود فقال:{ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾} [هود: ٤٠]، وقال في سورة المؤمنون:{ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾} [المؤمنون: ٢٧].

قال ابن كثير في قول الله تعالى:{إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ} [هود: ٤٠]، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

أما امرأة لوط فقد ورد ذكرها وذكر هلاكها مرارًا، وذلك في قوله تعالى:{ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ } [الأعراف: ٨٣]، قال أبو جعفر: أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين به، إلا امرأته، فإنها كانت للوط خائنةً، وبالله كافرةً. فهي من الغابرين الهالكين، وفي سورة الحجر يقول تعالى:{ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ } [الحجر: ٥٧ - ٦٠]، وفي سورة النمل يقول تعالى: { فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾} [النمل: ٥٧]، وفي سورة العنكبوت يقول تعالى:{قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾} [العنكبوت: ٣٢].

وفي سورة هود يقول تعالى:{قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ

أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾} [هود: ٨١].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى في قوله تعالى: {إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ } [هود: ٨١]؛ أي: إنه مصيبُ امرأتِك ما أصاب قومَك من العذاب، فموعدُ هلاكِهم الصبحُ، فكأنَّ لوطًا عليه السلام استبطأ ذلك منهم، فقال لهم: بل عجِّلوا لهم الهلاك! فقالوا: {أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود: ٨١]، فعند الصبح نزولُ العذاب بهم، وبين نهاية سورة التحريم وبدايتها ربطٌ وصلةٌ، حيث تحدثت عن زوجات الرسول اللائي كانت تظهر منهن بعض المشاحنات أحيانا، فكأن الله يقول: لا يغركن أنكن زوجاتٌ للرسول وبذلك تدخلنْ الجنة، كلا، فالجنة لمن أطاعت زوجها، وكيف لو كان الزوجُ رسولَ الله؟ أليس مطلوباً منكن أن تكن أكثرَ استقامة؟

وفي هذا درسٌ لنساءِ اليوم أيضًا، فكثير منهن ناشزات لأزواجهن رغم أنهن يفتخرن بأنهن زوجاتُ فلانٍ وعلانٍ، وربما أنهن صالحات يُصَلّينَ ويفعلن الخير، لكنهن ناشزاتٌ يؤذين أزواجهن، وعلى العكس؛ فمنهن المظلوماتُ عند أزواج صالحين خيرين، لكنهم يؤذونَهن ويضيقوا عليهن، ألا فلتتق الله أولئك النسوة في أزواجهن، وليتق الله هؤلاء الأزواج في زوجاتهم، فما شرع الله الزواج ليظلم الزوج امرأته، ولا لتقصر المرأة في حق زوجها، وإنما من أجل السكن والمودة وإسعاد كلٍ منهما الآخر.

{ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الروم: ٢١].

وهذه القصة تدلنا على: مدى الخطر الذي يتهدد الذين يأبون الانقياد

لشرع الله تعالى، والذين يعبدون الشهوات، والذين يستهزئون بأنبياء الله وأوليائه الذين يدعونهم إلى الله عز وجل.

ونعلم منها: أن العاقبة للمتقين وإن كانوا قلة، ونعلم هوان الكفرة على الله تعالى ولو كانوا أكثر الناس، فقد كان قوم لوط أربعة آلاف فيما يذكرون، أو أقل أو أكثر، وقراهم كانت عامرة، وكان يمر عليها العرب.

قال تعالى:{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]، وقال عز وجل:{وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾} [الفرقان: ٤٠]؛ فالله سبحانه وتعالى جعل عاقبة المجرمين وخيمة لنراها دائماً، وهي ليست مبنية على القلة والكثرة، بل على الأعمال والصفات والأخلاق. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا، وأن يجعلنا من عباده المؤمنين، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى.......

تمت القصة بعون الله تعالى

***

زوجة إبراهيم

قصص النساء في القرآن

[3] زوجة إبـراهيم

وقد ورد ذكرها في قوله تعـالى:{وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾} [هـود: ٧١]؛ وهــي: ســارة بنــت عمــه عليــه الصلاة والسلام أم إسحاق.

* * *

موجز القصة:

سـارة عليهـا السـلام امـرأة كريمـة عفيفـة صـابرة، باذلـة للمعـروف، وإكرام الضيوف، امرأة أكرمها الله بمعجزة عجيبـة، يـوم حفظهـا من كيد جبار من جبابرة الأرض، امرأة مباركة فأكثر الأنبياء من نسلها، امرأة عجوز عقيم كبر سنها ورق عظمها ولم تُرزق الولد، امرأة اصطفاها الله عز وجل واختارها من بين البشر لتكون زوجًا لخليله، إنها سارة امرأة إبراهيم عليه السلام،لم يذكر القرآن اسمها صراحة، بل أشار الله تعالى إليها في موضعين، في سورة هود، وفي سورة الذاريات، قال الله تعالى في سورة هود من الآية إحدى وسبعين إلـى الآيـة ثـلاث وسـبعين: {وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾} [هود: ٧١ - ٧٣].

وقـال الله تعـالى فـي سـورة الـذاريات مـن الآيـة السادسـة والعشـرين إلـى الآيـة الثلاثـين:{فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾} [الذاريات: ٢٦ - ٣٠].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:{لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَام قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهَّ، قَوْلُهُ:{إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٩]، وَقَوْلُهُ:{بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [الأنبياء: ٦٣]، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ، رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ، أَتَاهُ فَقَالَ لَه: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَأُتِيَ بِهَا، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ؛ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللهَّ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنْ الْقَبْضَةِ الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنْ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَّ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكِ اللهَّ أَنْ لَا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام؛ انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ (وهي كلمة يراد بها السؤال عن الشأن والحال)، قَالَتْ: خَيْرًا؛ كَفَّ اللهَّ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَ خَادِمًا}، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ.

هذه المرأة الشريفة الكريمة المباركة، صاحبة هذه المناقب العظيمة، ذكر الطبري أنها: سارَة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، وهي ابنة عم إبراهيم.

وذِكرها جاء متعلقًا بضيوف إبراهيم من الملائكة جاءوا في صورة رجال، وكان جبريل يتمثل في صورة دحية الكلبي، وجاء أيضًا إلى

النبي صلى الله عليه وسلم في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر، وذلك في حديث مراتب الدين: الإسلام والإيمان والإحسان، وهنا تمثلوا لإبراهيم في صورة بشر،كما قال الله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)} [هود: ٦٩ - ٧٠]؛ فقامت سارة بحق الضيافة لهم، كما قال الله:{وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ} [هود: ٧١]؛ أي: لخدمة هؤلاء الأضياف الذين حلوا على زوجها، وكانت نساؤهم آنذاك تكرم الضيوف وتقوم كعادة الأعراب ونازلة البوادي والصحراء، وكانت عجوزاً وزوجها موجوداً فانتفت الخلوة، وخدمة الضيفان مما يُعد من مكارم الأخلاق، فإكرام الضيف وخدمته خصلة شرعية طيبة، ومنقبة عربية حميدة، لا بد من غرسها في النفوس، فكرم الضيافة أصالة ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم ومسلمة، وأن يتربى عليها الأجيال.

وهكذا كانت سارة قدوة للنساء في الكرم وخدمة الضيوف، ولعل في هذا درساً بليغاً وعبرة لما نسمعه من تذمر بعض الزوجات من كرم أزواجهن، أو من تبرمهن من القيام بخدمة ضيوفه، إنه كرم وضيافة، وقربة وعبادة، ووفاء للزوج وسعادة، وهو خلق جميع الأنبياء والمرسلين، فها هو نبي الله إبراهيم عليه السلام وامرأته،كانوا دائماً على أتم استعداد لاستقبال ضيوفهم في كل الأوقات بدلالة قوله تعالى: {فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [هود: ٦٩]؛ أي: كان جاهزاً بعجل سمين مشوي ليقدمه لضيوفه، فما أكرم إبراهيم الخليل وزوجه، فقد كانا على استعداد لاستقبال أي ضيف في أي

وقت؛ قال صلى الله عليه وسلم :{مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ. قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللهَّ؟ قَالَ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّام، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ}. لكن ضيوف إبراهيم عليه السلام هذه المرة لهم شأن غريب، فلما قدم إليه الطعام لم يأكلوا، فخاف إبراهيم عليه السلام؛ قال الله تعالى:{فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [هود: ٧٠ - ٧١]؛ أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله تعالى.

وهذا عمل صالح فالغضب لله تعالى مطلب شرعي، وقوم لوط وصل فعلهم للطغيان مما يُسر بهلاكهم والخلاص من شرهم وقبح فعلهم. وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنِّها وسنِّ زوجها. وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت، وقالت:{يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ} [هود: ٧٢].

أما على القول الأول: فعند ما ضحكت بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب؛ قال تعالى:{فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١]؛ قيل: أن إسحاق ولدها ويعقوب حفيدها.

قال شيخنا أعزه الله تعالى وحفظه: قول الله تعالى:{وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [هود: ٧١]؛ يعني حاضت، وهو قول طائفة من المفسرين.

قال الشاعر:

ويهجرهـــــــــا يومـــــــــاً ::: إذا هـــــــــي ضـــــــــاحك

وقال الشاعر:

وضحك الأرانب فـــوق الصـــفا ::: كمثـــل دم الحريـــق يـــوم اللقـــا

قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في قوله تعـالى{وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ} [هود: ٧١]: أي: من بعد إسحاق يَعْقُوبَ، أراد به والد الولد فَبُشرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها؛ فإنجابها بشارة لها خاصة بعد عقم وانقطاع طويل، ولذلك{فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا} [الذاريات: ٢٩]؛ أي: ضربت على جبينها وصرخت صرخة مدوية قائلة:{يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا} [هود: ٧٢]، فتستبعد الولادة لأنها عجوز وعقيم، وأيضاً زوجها شيخ كبير، فمن استغرابها وهول سماعها للخبر ضربت وجهها، وهذا نُهي عنه بعد ذلك كما في البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال:لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ، وفي صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم :{نهى عن ضرب الوجه}، ولا يؤاخذ الإنسان بالنسيان والخطأ خاصة في أول الأمر وعند المفاجأة مما يُحدث رداً غير مقصود.

ولذا نجد أنها قالت كلمةً لا تقصد معناها الظاهر، قالت:{يَٰوَيۡلَتَىٰٓ} [هود: ٧٢]؛ وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي:يا عجبا؛ والأصل يا ويلتاه، ومشهور أن العرب تستعمل مثل هذه الكلمات ولا تقصد معناها، وما أجمل قول القلاعي: ".. فقد يوحش اللفظ وكله ود، ويُكره الشيء وليس من فعله بد، هذه العرب تقول: لا أبا لك في الأمر إذا همّ، وقاتله الله، ولا يريدون الذم، وويل أمِّه للأمر إذا تم، ومن الدعاء: تربت يمينك، ولذوي الألباب أن ينظروا في القول إلى قائله، فإن كان وليًا فهو الولاء وإن خشن، وإن كان

عدوًا فهو البلاء وإن حَسُن " ا. هـ.

وينبغي على الإنسان المسلم إذا رأى ما يستغربه أن يقول سبحان الله، وفي هذا تنزيه لله تعالى من كل نقص ومن كل عيب، وهي من أحب الكلمات إلى الله سبحانه تعالى، وقد ثبت في الحديث أنها تملأ الميزان قال صلى الله عليه وسلم{... والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض}، أي إذا قال العبد المؤمن: سبحان الله والحمد لله خالصاً من قلبه مستشعراً معناها كأنها ملأت ما بين السماء والأرض من الأجور والحسنات.

وقال صلى الله عليه وسلم :{كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده}، وقال بعض العلماء: إنها من أفضل الكلمات التي يَسترحم بها الإنسان ربه ولذلك جعلها الله مع الاستغفار، ولذلك قالها يونس ابن متي لما غيبته ظلمة الحوت وظلمة البحر نادي في الظلمات قال تعالى:{فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ } [الأنبياء: ٨٧]؛ فقرن الله التسبيح بالاستغفار لعظيم وقعه ولفضل أثره، ولذلك قال لنبيه{ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا (٣)} [النصر: ٣]؛ وفي هذا دليل على أن السنة للإنسان إذا رأى ما يعجبه أن يقول سبحان الله، علي خلاف ما يفعله بعض الرعاة من التصفيق والصياح والعجب بل السنة أن يقول سبحان الله فإذا قالها مضت له حسناته ورفع له درجته، وكم من حسنة قربت صاحبها إلى جنة الله تعالى فقد ترجح كفة الحسنات على السيئات بكلمة سبحان الله، ولذلك جعل الله تعالى هذا الذكر للسماوات والأرض وما فيهن قال تعالى:{تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ

تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾} [الإسراء: ٤٤].

إذاً فقد تعجبت سارة{إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ } [هود: ٧٢]؛ كيف يكون لي ولد وأنا عجوز؟ كيف يكون لي ولد وأنا عقيم؟ كيف يكون ولد وزوجي شيخ كبير؟! وكم من زوج اليوم تأخر عليه الولد فأكثر الأسى والكمد، وطال به الأمد، وكم من عقيم اليوم ساءت به الظنون، وقال النون وما يعلمون، استعجال وضعف يقين، وعدم رضا بالقضاء وقلة دين، وكما قال صلى الله عليه وسلم :{.. ولكنكم قوم تستعجلون}، ذكر الطبري في تفسيره قيل: إنها - أي سارة - كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة.

فتعجبت، وحُقَّ لها أن تتعجب، إذ أن الأمر الخارج عن العادة يحدث في النفس تعجبا من حصوله، فالنفس تستبعده وتستغربه، لكن لا عجب ولا غرابة ولا استبعاد إذا عَلم المسلم أن الله هو المدبر والقادر، وهو المالك والمتصرف، لذلك لما تعجبت سارة أنكرت الملائكة عليها تعجبها قائلين:{أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ} [هود: ٧٣]؛ كيف لمسلم أن يتعجب من أمر الله تعالى؟

فالله عز وجل قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا تقف أمامه السدود ولا الحواجز ولا الموانع، بل إذا أراد شيئًا قال له:{كُن فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٧]؛ حتى ولو كانت عجوزا عقيمًا، فالله تعالى أراد وقدر، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع{قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ} [الذاريات: ٣٠]، أنك ستَلِدين غُلاماً؛ فكان كما قال سبحانه، فهو حكيم عليم يَقدِر أن يَجعل العقيم وَلُوداً، فأكرم الله تعالى سارة بهذه البشارة العظيمة،والعجيب أن الأبناء الذين بُشرت بهم سارة تولى الله عز وجل تسميتهم تشريفا ورفعة لهم ولأبويهم،

كما تولى الله تسمية يحيى بن زكريا عليهما السلام، ولا تنسوا أن البشارة هنا ليست بمجرد الولد بعد عقم طويل، بل أيضاً بشارة بولد صالح، فصلاح الذرية كنز وبشارة عظيمة لكل أبوين، وأيضاً ليس مجرد ولد وصالح فقط، بل هو أيضاً نبي من الصالحين،كما قال:{ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾} [الصافات: ١١٢]؛ فما أعظمها من بشارة، وهذا هو جزاء الصابرين الصالحين، وجزاء البذل والمعروف والكرم، فالله تعالى وعد أن يُعطي كل منفق خلفا، وهنا خلف الله تعالى عليهم بِخُلْفٍ مبارك وأي بركة!، إنه الله الكريم.

واعلم أخي الحبيب أن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يبث السرور في كل بيت بالبنين الأطهار أو بالبنات، وأن يسلي النفوس بالصبر لما تُبتلى بالنوازل القاصمات، وأن يغيث القلوب مما دهاها من هموم بئيسة جاثمات.

فاستغث بالله يا من ابتليت بعقم أو مرض، أنفق تصدق، أكثر من الاستغفار والانكسار، فليس لك إلا الله فترجوه، وليس لك إلا الكريم فتدعوه{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾} [فاطر: ١٥]،{ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ } [النحل: ٥٣]؛ فاجأر إلى الله عز وجل وتضرع، فلك في هذه البشارة، لإبراهيم وسارة عليهما السلام، درس وسلوى، وقد مدحتهم الملائكة بقولهم:{ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } [هود: ٧٣]، أهل بيت مرحومين، وأهل بيت مباركين، إنها بركات عظيمة وكبيرة، وهل أعظم من أن الله فضلها بأن جعل كثرة الأنبياء في ذرية إبراهيم منها، فنسلها نسل مبارك.

روى السيوطي عن ضمرة بن حبيب أنها حاضت قبل أن تحمل

بإسحاق، فكان من قولها للرسل حين بشروها: قد كنت شابة وكان إبراهيم شاباً فلم أحبل، فحين كبرت وكبر أألد؟! قالوا: أتعجبين من ذلك يا سارة؟ فإن الله تعالى قد صنع بكم ما هو أعظم من ذلك؛ إن الله عز وجل قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد.

وروى أيضاً عن الضحاك أنه قال لها جبريل عليه السلام:يا سارة. قالت: إن اسمي يسارة فكيف تسميني سارة؟ فقال جبريل: كنت يا سارة لا تحملين، فصرت سارة تحملين الولد وترضعينه. فأكرمها الله بحديث الملائكة لها، فالملائكة قد تُحّدث غير الأنبياء من البشر، وفيه جواز حديث المرأة مع الرجال الأجانب عند الحاجة لذلك دون خضوع بالقول، وهكذا عباد الله تعالى! فقصة سارة بنت هارون امرأة إبراهيم فيها عبر وعظات، كم نحن بحاجتها في هذه الحياة، كما في كثير من قصص القرآن وأثرها في هذا الزمان لتطبيقها وتحويلها من تنظير إلى واقع عمل ومنهج حياة،لتستقيم حياتنا بالقرآن، وليهنأ عيشنا بتوجيهات القرآن، ولنخرج من الدنيا برضا الرحمن.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *

زوجه عزيز مصر
وهي زليخا

قصص النساء في القرآن

[4] زوجة عزيز مصر: وهي زليخا

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ} [يوسف: ٢١]، وعزيز مصر الذي اشترى يوسف عليه السلام كان يدعى قطفين.

* * *

موجز القصة:

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى في كتابه ما كان من أمر مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير؛ قال تعالى: {وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾} [يوسف: ٢٣].

قال تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ} [يوسف: ٢٤].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه، ولكن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله تعالى له بذلك واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود.

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية؛ فذكره الله عز وجل في قوله تعالى:{ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى } [يوسف: ٢٦]، وقوله عز وجل:{ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ } [يوسف: ٣٣].

وأما اعتراف المرأة بذلك؛ ففي قولها للنسوة:{وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ } [يوسف: ٣٢]، وقولها:{ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ } [يوسف: ٥١].

وأما اعتراف زوج المرأة؛ ففي قوله:{قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾} [يوسف: ٢٨ - ٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك؛ ففي قوله:{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ } [يوسف: ٢٦].

وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته؛ ففي قوله:{كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ } [يوسف: ٢٤].

قال الفخر الرازي في تفسيره: قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: لنصرف عنه السوء، واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني قوله: والفحشاء، أي: وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث قوله: إنه من عبادنا، مع أنه تعالى قال:{ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا

﴿٦٣﴾} [الفرقان: ٦٣].

والرابع قوله: المخلصين، وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته. وعلى كلا الوجهين: فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه. اهـ من تفسير الرازي.

وبدأ موضوع عشق زليخا للعبد يوسف ينتشر.. خرج من القصر إلى قصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها.... ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث. وزاد حديث المدينة:{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ } [يوسف: ٣٠].

وانتقل الخبر من هنا إلى هناك، ومن بيت إلى بيت.. حتى وصل لامرأة العزيز{فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾} [يوسف: ٣١ - ٣٢].

قررت امرأة العزيز أن تعد مأدبة كبيرة في القصر، وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية، فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور؛ ويبدوا أنهن كن يأكلن وهن متكئات على

الوسائد والحشايا، فأعدت لهن هذا المتكأ، واختارت ألوان الطعام والشراب وأمرت أن توضع السكاكين الحادة إلى جوار الطعام المقدم، ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها، وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجأتهن بيوسف:{وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ} [يوسف: ٣١]؛ بُهتن لطلعته، ودهشن.{وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: ٣١]، وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة.{وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ} [يوسف: ٣١]؛ وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيرا عن الدهشة بصنع الله تعالى..{مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١]؛ يتضح من هذه التعبيرات أن شيئا من ديانات التوحيد تسربت لأهل ذلك الزمان.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في المجموع الجزء الثاني: وقد يطلق الحيض بمعنى الإكبار؛ ومنه قوله تعالى:{فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ} [يوسف: ٣١]؛ فقوله تعالى:{أَكْبَرْنَهُۥ}؛ أي: حضن؛ قال الشاعر:

يأتي النساء على أطهارهن ::: ولا يأتي النساء إذا أكبرن إكبارا [1]

ووصلت امرأة العزيز إلى مبتغاها معهن، حيث قالت لهن: هذا هو يوسف الذي لمتنني فيه، وخضتن في الحديث عني وعنه، وهذا هو شأنكن اليوم فيه، وقد رأيتنه عفوا، وشاهدتنه لمحا، فما بالكن وقد ترعرع في داري، وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري، وكنت أشاهده في يقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه!!، وقد صكها زوجها حينما علم منها ذلك.

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من

(1) انظر ابن العربي في أحكام القرآن، والإمام النووي في المجموع (ج 2 / 378)، ومن أسماء الحيض أيضاً؛ عارك، طامس، دارس، حائض، فارك.

طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول؛ فقالت قوله المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفتخر عليهن بأن هذا متناول يدها؛ وإن كان قد استعصم في المرة الأولى فهي ستحاول المرة تلو الأخرى إلى أن يلين: انظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب! لقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه لكنه استعصم، وإن لم لطعني سآمر بسجنه لأذله.

إنها لم تر بأسا من الجهر بنزواتها الأنثوية أمام نساء طبقتها؛ فقالتها بكل إصرار وتبجح، قالتها مبيّنة أن الإغراء الجديد تحت التهديد. واندفع النسوة كلهم إليه يراودنه عن نفسه.. كل منهن أرادته لنفسها.. ويدلنا على ذلك أمران هما:

الدليل الأول هو قول يوسف عليه السلام{رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ} [يوسف: ٣٣]؛ فلم يقل: " **ما تدعوني إليه** ".. والأمر الآخر هو سؤال الملك لهن فيما بعد{قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ} [يوسف: ٥١].

أمام هذه الدعوات - سواء كانت بالقول أم بالحركات واللفتات - استنجد يوسف عليه السلام بربه ليصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه، دعي يوسف الله دعاء الإنسان العارف ببشريته، الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيدا من عناية الله وحياطته، ويعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

{ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾} [يوسف: ٣٣]، واستجاب له الله.. وصرف عنه كيد النسوة.

وكان ما كان من مراودتهن جميعهن عن نفسه، وتهديد امرأة العزيز له، إلا أنه اختار السجن على ارتكاب المعصية، واستجاب له ربه دعاءه فصرف عنه كيد النساء.

هؤلاء النسوة أطلق عليهن عبر التاريخ اسم صواحب يوسف، وهي تسمية أطلقها عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال لعائشة رضي الله عنها حين اشتد عليه المرض:{مروا أبا بكر فليصل بالناس}، قالت عائشة رضي الله عنها: إنه رجل رقيق إذا أقام معك لم يستطع أن يصلي بالناس، قال النبي صلى الله عليه وسلم :{مروا أبا بكر فليصل بالناس}، فأعادت عائشة قوله، فقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم :{مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف}.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *

نسوة المدينة

[5] نسوة المدينة

وقد ورد ذكرهن في قوله تعالى:{وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ} [يوسف: ٣٠]، وقيل إنهن خمسة: امرأة الساقي، وامرأة الحاجب، وامرأة الخباز، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب.

* * *

موجز القصة:

لما كان من أمر يوسف على نبينا وعليه السلام والعزيزة ما كان، شاع الخبر في المدينة تدريجا، وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهم فيما بينهن ويعيرن بذلك عزيزة مصر ويعبنها أنها تولهت إلى فتاها وافتتنت به وقد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، وضلت به ضلالا مبينا.

وكان ذلك مكرا منهن بها على ما في طبع أكثر النساء من الحسد والعجب؛ فإن المرأة تغلبه العواطف الرقيقة، والإحساسات اللطيفة، وركوز لطف الخلقة وجمال الطبيعة فيها مشعوفة القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال، ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات إعجابا بالنفس وحسدا للغير.

وبالجملة كان تحديثهن بحديث الحب والمراودة مكرا منهن بالعزيزة - وفيه بعض السلوة لنفوسهن والشفاء لغليل صدورهن - ولما يرين يوسف عليه السلام، ولا شاهدن منه ما شاهدته العزيزة قولها وهتك سترها، وإنما كن يتخيلن شيئا ويقايسن قياسا، وأين الرواية من الدراية والبيان من العيان.

و شاع التحديث به في المسامرات حق بلغ الخبر امرأة العزيز تلك التي لا هم لها إلا أن تفوز في طلب يوسف وبلوغ ما تريد منه ولا تعبأ في حبه بشيء من الملك والعزة إلا لأن تتوصل به إلى حبه لها وميله إليها وإنجاحه لطلبتها فاستيقظت من رقدتها وعلمت بمكرهن بها فأرسلت إليهن للحضور لديها وأنهن سيدات ونساء أشراف المدينة وأركان البلاد ممن له رابطة المعاشرة مع بيت العزيز.

فتهيأن للحضور وتبرزن بأحسن الجمال وأوقع الزينة على ما هو الدأب في أمثال هذه الاحتفالات من أمثال هؤلاء السيدات، وكل تتمنى أن ترى يوسف وتشاهد ما عنده من الحسن الذي أوقع على العزيزة ما أوقع وفضحها.

و العزيزة لا هم لها يومئذ إلا أن تريهن يوسف حتى يعذرنه ويشتغلن عنها بأنفسهن فتتخلص من لسانهن فتأمن مكرهن، وهي لا تعبأ بافتتانهن بيوسف ولا تخاف عليه منهن لأنها - على ما تزعم - مولاته وصاحبته ومالكة أمره، وهو فتاها المخصوص بها، وهي تعلم أن يوسف ليس بالذي يرغب فيهن أو يصبو إليهن، وهو لا ينقاد لها فيما تريده منه بما عنده من الاستعصام والاعتزاز عن هذه الأهواء والأميال.

ثم لما حضرن عند العزيزة وأخذن مقاعدهن، ووقع الأنس وجرت المحادثة والمفاوضة وأخذن في التفكه آتت كل واحد منهن سكينا وقد هيأت لهن وقدمت إليهن الفاكهة، عند ذلك أمرت يوسف أن يخرج إليهن وقد كان مستورا عنهن.

فلما طلع يوسف عليهن ووقعت عليه أعينهن طارت عقولهن وطاحت

أحلامهن ولم يدرين دون أن قطعن أيديهن مكان الفاكهة التي فيها لما دخل عليهن من البهت والذهول، وهذه خاصة الوله والفزع فإن نفس الإنسان إذا انجذبت إلى شيء مما تفرط في حبه أو تخافه وتهوله اضطربت وبهتت ففاجأها الموت أو سلبت الشعور اللازم في تدبير القوى والأعضاء وتنظيم الأمر، فربما أقدم مسرعا إلى الخطر الذي أدهشه لقاؤه وربما نسي الفرار فبقي كالجماد الذي لا حراك به، وربما يفعل غير ما هو قاصده وفاعله اختباطا، ونظائرها في جانب الحب كثيرة وحكايات المغرمين والمتولهين من العشاق مشهورة. وكان هذا هو الفرق بين العزيزة وبينهن فإن استغراقها في حب يوسف إنما حصل لها تدريجا، وأما نساء المدينة فإنهن فوجئن به دفعة فغشيت قلوبهن غاشية الجمال، وغادرهن الحب ففضحهن وأطار عقلهن وأضل رأيهن فنسين الفاكهة وقطعن أيديهن وتركن كل تجلد واصطبار، وأبدين ما في أنفسهن من وله الحب، وقلن:{حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ} [يوسف: ٣١].

هذا وهن في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل أدب ووقار، وكان يجب أن يتقينها ويحتشمن موقعها وهن شريفات ذوات جمال وذوات بعولة وذوات خدر وستر وهذه كلها جهات مانعة عن الخلاعة والتهتك، وهن لم ينسين ما كن بالأمس يتحدثن به ويلمن ويذممن امرأة العزيز في حبها ليوسف وهما في بيت واحد منذ سنين.

فكان من الواجب على كل منهن أن تتقي صواحبها فلا تتهتك وهن يعلمن ما انجر إليه أمر امرأة العزيز من سوء الذكر وفضاحة الشهرة هذا كله ويوسف واقف أمامهن يسمع قولهن ويشاهد صنعهن.

لكن الذي شاهدنه على المفاجأة من حسن يوسف نسخ ما قدرنه من قبل في أنفسهن وبدل مجلس الأدب والاحتشام حفلة عيش لا يكتم محتفلوها من أنفسهم ضميرا، ولا يبالي حضارها ما قيل أو يقال فيهم ولم يلبثن دون أن قلن{حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١]، وقد قلن غير بعيد:{ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ } [يوسف: ٣٠].

وكلامهن هذا بعد قولهن ذاك إعذار منهن فمفاده أن الذي كنا نقوله قبل إنما هو حق لو كان هذا بشرا وليس به وإنما يذم الإنسان ويعاب لو ابتلي بهوى بشر ومراودته وكان في وسعه أن يكتفي عنه بما يكافئه ويغني عنه، وأما الجمال الذي لا يعادله جمال، ويسلب كل حزم واختيار، فلا لوم على هواه، ولا ذم في غرامه.

ولهذا انقلب المجلس دفعة، وانقطعت قيود الاحتشام فانبسطن وتظاهرن بالقول في حسن يوسف وكل تتكلم بما في ضميرها منه، وقالت امرأة العزيز:{فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ} [يوسف: ٣٢]؛ فأبدت سرا ما كانت تعترف به قبل ثم هددت يوسف تجلدا وحفظا لمقامها عندهن وطمعا في مطاوعته وانقياده: {وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ } [يوسف: ٣٢].

وأما يوسف فلم يأخذه شيء من تلك الوجوه الحسان بألحاظها الفتانة، ولا التفت إلى شيء من لطيف كلامهن ونعيم مراودتهن، أو هائل تهديدها فقد كان وجهة نفسه جمال فوق كل جمال، وجلال يذل عنده كل عزة وجلال فلم يكلمهن بشيء ولم يلتفت إلى ما كانت امرأة العزيز تسمعه من القول، وإنما رجع إلى ربه فقال:{رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} [يوسف:

٣٣].

و كلامه هذا إذا قيس إلى ما قاله لامرأة العزيز وحدها في مجلس المـــراودة:{مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ } [يوسف: ٢٣]؛ دل بسياقه على أن هذا المقام كان أشق، وأمر على يوسف عليه السلام إذ كان بالأمس يقاوم هم امرأة العزيز، ويعالج كيدها وحدها، وقد توجهت إليه اليوم همهن، ومكايدهن جميعا، وكان ما بالأمس واقعة في خلوة على تستر منها، وهي وهن اليوم متجاهرات في حبه متظاهرات في إغوائه ملجآت على مراودته، وجميع الأسباب والمقتضيات اليوم قاضية لهن عليه أشد مما كانت عليه بالأمس، ولذا تضرع إلى ربه سبحانه وتعالى في دفع كيدهن هاهنا، واكتفى بالاستعاذة إليه سبحانه هناك فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

وقوله تعالى:{وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا} [يوسف: ٣٠]؛ النسوة اسم جمع للمرأة، وتقييد بقوله:{فِي ٱلۡمَدِينَةِ} تفيد أنهن كن من جهة العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن في شيوع الفضيحة.

و امرأة العزيز هي التي كان يوسف في بيتها وقد راودته عن نفسه، والعزيز معناه معروف، وقد كان يلقب به السيد الذي اشترى يوسف من السيارة، وكان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض، وفي قوله:{تُرَٰوِدُ}؛ دلالة على الاستمرار، وهو أفحش المراودة، والفتى الغلام الشاب، والمرأة فتاة، وقد شاع تسمية العبد فتى، وكأنه بهذه العناية أضيف إلى ضميرها فقيل:{فَتَىٰهَا}.

وقوله:{شَغَفَهَا حُبًّا }؛ أي: أصاب شغاف قلبها؛ أي: باطنه. عن الحسن، وقيل: وسطه. عن أبي علي، وهما يتقاربان، وشغاف القلب غلافه المحيط به؛ والمعنى: وقال عدة من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها وفي حقها: امرأة تستمر في مراودة عبدها عن نفسه ولا يحري بها ذلك لأنها امرأة ومن القحة أن تراود المرأة الرجل بل ذاك - إن كان - من طبع الرجال وأنها امرأة العزيز فهي عزيزة مصر؛ فمن الواجب الذي لا معدل عنه أن تراعي شرف بيتها، وعزة زوجها، ومكانة نفسها، وإن الذي علقت به عبدها من الشنيع أن يتوله مثلها، وهي عزيزة مصر بعبد عبراني من جملة عبيده، وأنها أحبته وتعدت ذلك إلى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت واستمرت على مراودته وذلك أقبح وأشنع وأمعن في الضلال؛ ولذلك عقبن قولهن:{ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ} بقولهن:{إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ }.

قال علماؤنا حفظهم الله تعالى: هؤلاء النسوة لم يُسمّهن القرآن الكريم، وإنما أشار إليهن مرة واحدة، جاءت بصيغة نسوة المدينة، وذلك في قوله تعالى:{وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾} [يوسف: ٣٠].

قال البغدادي: " وإنما تكلم النسوة في حق امرأة العزيز " زليخة " طعنا فيها، تحقيقا لبراءة يوسف عليه السلام. ولم يُسمّ القرآن هؤلاء النسوة، ولم يُشِرِ إليهن بصيغة أخرى، فمن هُنّ هؤلاء النسوة؟

ومن هم أزواجهن بصفات أعمالهم؟ وما قصتهن؟

نسـوة المدينـة... وهـن...امـرأة السـاقي، وامـرأة الحاجـب، وامـرأة الخباز، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب.

تمت القصة بعون الله تعالى

***

أم موســى

قصص النساء في القرآن

[6]أم موسى

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى:{وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ} [القصص: ٧]؛ وهي يوكابد، أُمرت بإلقاء ابنها موسى عليه السلام في اليمّ وهو نيل مصر.

* * *

موجز القصة:

كانت أم موسى هي أساس قيام الأمة بعد سنوات الهزيمة والانحدار، ولقد كان بناء أمة بأسرها يبدأ بامرأة واحدة، بل كانت هزيمة أكبر قوة إجرامية على مر التاريخ الإنساني تبدأ بتلك المرأة، هزيمة أعظم جبارٍ عرفه الإنسان بدأت بامرأة فقيرة تسكن في بيت صغير على ضفاف النيل.

وهنا يأتي دور المرأة المسلمة في صناعة النصر؛ فالمرأة هي التي أراد الله تعالى من خلالها أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة؛ فوالله لن تقوم أمة من هزيمتها وهي تحقر نساءها فزوجتك التي عودتها على الذل والهوان لن تنجب لك إلا ذليلا، وأختك التي تضربها في الغداة والعشي لن تربي إلا إمعة، وأمك التي لا تحترمها لن تدعو لك إلا بالهزيمة والخذلان، وابنتك التي تمنعها من العلم لن تكون إلا تافهة تضاف إلى التافهات في هذه الأمة؛ فالله الله في النساء فهن أساس البناء الصحيح، وهن أساس القيام.

وقصة أم موسى بدأت قبل ذلك بكثير، وبالتحديد قبل 300 عام أو يزيد في ذلك الوقت بيع طفل بثمن بخس في أرض مصر بعد أن وجدته سيارة في بئر من آبار فلسطين، هذا الطفل كان يقال له

يوسف ليصبح يوسف عليه السلام بذلك عبدا عند ملك من ملوك الهكسوس الذين كانوا يحتلون مصر في حينها؛ ثم أصبح بعدها وزيرا مقربا للملك ليأتي بأهله جميعا إلى مصر ليعشوا في رعاية الملك في سلام وأمان.

ولكن المشكلة تبدأ بعد ذلك بسنوات عندما جاء الفرعون أحمس الأول ليُنهي دولة الهكسوس، وليعتبر أحفاد يوسف وإخوته خونة تعاونوا مع الاحتلال الهكسوسي لمصر؛ فكان ذلك هو سبب استبعاد الفراعنة لبني إسرائيل؛ فلقد كان يوسف هذا يوسف بن يعقوب أو يوسف بن إسرائيل عليه وعلى أبيه وعلى جده وعلى أبي جده السلام، وكان ذرية يوسف وإخوته الأحد عشر هم أسباط بني إسرائيل الاثنى عشر.

المهم أن بني إسرائيل رضوا بحياة الذل والإهانة في مصر لمدة 300 عام، وهذه الأعوام الـ 300 هي التي كونت الشخصية المميزة لأولئك القوم؛ فقد تعودوا خلالها على حياة الذل والاستبعاد، حتى جاء فرعون من الفراعنة يسمى رمسيس الثاني، هذا الفرعون كان سفاحا مجرما، فلقد رأى ذلك الفرعون في منامه أنه سيولد في بني إسرائيل مولود سيدمر حكمه ويزيل سلطانه، فقام هذا المجرم بقتل كل مواليد بني إسرائيل من الذكور.

قال وهب: بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد ويقال: تسعون ألفا.

وبعد أن نقص عدد العبيد في قصره نتيجة لتقلص أعداد الإسرائيليين أمر فرعون بقتل الأولاد في سنة وإبقائهم في سنة؛ فولد لا امرأة من

بني إسرائيل يقال لها في كتب التاريخ اليهودية اسم يكابد مولود ذكر اسمه هارون في السنة التي ليس فيها قتل، ثم ولد لها في سنة القتل مولود ذكر، فخافت عليه خوفا شديدا، فأوحى الله تعالى إليها عن طريق الإلهام أمرا عجيبا.

فقد أوحى الله إليها أن تضعه في تابوت فتقذفه في نهر النيل، فقالت فرقة: كان قولا في منامها وقال قتادة: كان إلهاما وقالت فرقة: كان بملك يمثل لها، قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور الذي أخرجه ومسلم، وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيا. المهم أن الله سبحانه تعالى أوحى إليها أن تقذفه في التابوت؛ وقال سبحانه وتعالى لها:{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٧].

وقوله تعالى:{وَلَا تَخَافِي} فيه وجهان؛ الأول: لا تخافي عليه الغرق؛ قاله ابن زيد.

الثاني: لا تخافي عليه الضيعة؛ قاله يحيي بن سلام.

وقوله تعالى:{وَلَا تَحْزَنِيٓ} فيه وجهان؛ الأول: لا تحزني لفراقه؛ قاله ابن زيد.

الثاني: لا تحزني أن يقتل؛ قاله يحيي بن سلام.

فما كان من هذه السيدة العظيمة إلا أن استجابت لأمر الله تعالى من دون أي تردد، ولكنها بعثت بابنتها لتترقب ذلك الصندوق المبحر في

مياه النيل.

ثم بعد أن نجاه الله تعالى على يد أعداءه رجع إليها لترضعه؛ لأنـه لم يكن ليرتضع إلا من أمه بحكم الله تعالى القدري، وكان فرعون عليه لعنة الله تعالى يعطها كل يوم دينارٍ.

قال الزمخشري: فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربي تأخذه على وجه الاستباحة. فنعم أم موسى الصابرة المحتسبة.

ما يؤخذ من هذه القصة:

لقد علمتنا أم موسى عليه وعليها السلام الصبر؛ فيجب على كل أم تتقي الله تعالى وتعلم علم اليقين أنها ستلاقيه أن تصبر على البلاء الذي أصابها. ويجب على كل مسلم أن يتعلم من أم موسى الصبر على ما يصبه من الغم والكرب؛ فالصبر مفتاح الفرج ومفتاح السعادة.

قال العلامة ابن القيم: والصبر على ثلاثة أقسام [1]:

الأول: الصبر على طاعة الله تعالى.

الثاني: الصبر على معصية الله تعالى.

الثالث: الصبر على أقدار الله تعالى.

والنوع الثالث كان من شأن أم موسى عليها السلام؛ فإلقاء موسى عليه السلام في اليم قدر قدره الله تعالى وقضى به، ومع ذلك فهي كانت صابرة على هذا القضاء وعلى هذا القدر، وهذا حال الصلحاء

---

(1) مدارج السالكين لابن القيم 1 / 165.

والأتقياء وأولي النهى.

قال علماؤنا: والناس إزاء المصيبة على أربع درجات:

الأول: **الجازع**؛ وهذا قد فعل محرمًا لأن الجزع تسخط على قضاء الله تعالى وقدره.

الثاني: **الصابر**؛ فهذا قد أتى بالواجب المأمور به عند حلول المصيبة.

الثالث: **الراضي**؛ وهو الذي لا يبالي بهذه المصيبة لأنه يعلم أنها من عند الله تعالى، فلا يكون في قلبه تحسر ولا ندم.

الرابع: **الشاكر**؛ وهو أن يشكر الله تعالى على هذه المصيبة.

فإن قال قائل: كيف يشكر الله تعالى على هذه المصيبة؟

قلنا: من وجهين:

الأول: أن ينظر إلى مصيبة غيره الأعظم من مصيبته فيشكر الله تعالى على هذا؛ قال صلى الله عليه وسلم :**{لا تنظروا إلى من هو فوقكم وانظروا إلى من هو أسفل منكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم}** [(1)].

الثاني: أن يعلم أنه يحصل له بهذه المصيبة تكفير للسيئات ورفعة الدرجات إذا صبر؛ فما في الآخرة خير مما في الدنيا فيشكر الله تعالى على هذا.

و أم موسى عليها السلام لما أصابها ما أصابها من إلقاء ابنها وفلذة كبدها في اليم كانت صابرة راضية شاكرة؛ فأين نحن من هذه الأم العظيمة؛ فرضي الله عنها وأرضاها وجعل أعالي الفردوس مسكنها ومثواها.

---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (2963).

أخــت موســى

[7] أخت موسى

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى:{ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ } [القصص: ١١]، وكانت أسنّ من موسى عليه السلام، ومن هارون.

* * *

موجز القصة:

ذكر القرطبي أن أخت موسى: واسمها مريم بنت عمران، وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام، ذكره السهيلي والثعلبي وذكر الماوردي عن الضحاك: أن اسمها كلثمة، وقال السهيلي: كلثوم، جاء ذلك في حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة:{أشعرت أن الله زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون} فقالت: الله أخبرك بهذا؟ فقال:{نعم} فقالت: بالرفاء والبنين [حديث ضعيف].

ما أسعد موسى وأهناه يوم رُزق ووفق بهذه الأسرة المباركة، فإذا كان خير متاع الدنيا: المرأة الصالحة كما أخبر نبي الهدى صلى الله عليه وسلم، فكيف بثلاث نساء صالحات، إنها المرأة، ودورها في صناعة الحياة، دورها في البناء والعطاء، أماً أو زوجة أو أختاً أو بنتاً، هنا في قصص نساء موسى يتجلى لنا أهمية دور المرأة وقيمتها، وأثرها المبارك.

ولذلك قال علماؤنا حفظهم الله تعالى: وراء كل عظيم امرأة "، بل هي معه في كل تجاه، رحمة وشفقة، وحب ومودة وخدمة، وإبداع، وتفوق، ورقي وتقرب، فها هو نبي الله موسى، النساء معه في كل اتجاه: أمه وأخته وامرأته. واليوم وفي هذه القصة يتجلى دور الأخت

مع أخيها، حباً، وخوفاً عليه وشفقة، وتعرضاً للمخاطر وتضحية من أجله، إنها الأخت، وكلنا له أخت فهل عرفنا حقها؟ وهل قدرنا لها قدرها، طالما تحدث المتحدثون، وأطنبوا عن حقوق الأم أو الزوجة، لكن من منا وقف أو فكر بحقوق الأخت عليه، أو بحقوقه على أخته، إنها الرحم التي وعد الله أن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها، إنها الرحم الباب إلى الجنة، بكل صراحة كم نهمل أخواتنا؟ كم نهمل البر بهنَّ، أو صلتَهن والجلوسَ معهن؟ كم ننسى أو نغفل عن حقهن؟ كم نتركهن عرضة للوحدة أو الحاجة؟ كم وكم؟ وكم في هذا الباب من سؤال وعلامات استفهام، ليس من جهة حقوق الأخوات فقط، بل وأيضاً من جهة حقوق الإخوة على الأخوات؛ وهذه الخنساء تقول لأخيها صخر لما مات:

فلا والله لا أنساك حتى ::: أفارق مهجتي ويشق رمسي

فكم من أخت نسيت حق أخيها صلة أو خدمة أو حباً وشفقة؟ إنها حقوق شرعية متبادلة، أوصى بها هذا الدين العظيم، لقد كان لأخت موسى يدٌ بيضاء عليه، إذ امتن الله عليه فقال له:{وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ} [طه: ٣٩]؛ إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر، ألقته أمه في اليم{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ} [القصص: ١١]؛ أي: اتبعي أثره.

فهي لا تدري أين يستقر؟ قصيه واطلبيه، هل تسمعين له ذكرًا؟ أحيٌّ ابني؟ أو قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟ اتبعي يا ابنتي أثره، انظري كيف يُصنع به؟ قصيه يا ابنتي ولا تتركيه يغيب عن ناظريك؟! فما كان من هذه البنت البارة المطيعة إلا أن تسمع كلام أمها، وأن تستجيب لطلبها مهما كانت المخاطر، وهكذا فلتكن البنات مع الأمهات، بر وطاعة وحسن أخلاق، فالأم باب من أبواب الجنة، كما

قال صلى الله عليه وسلم :{وَيْحَكَ الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْـجَنَّةُ}؛ إنها فرصة لكل بنت أكرمها الله بوجود أمها، قبل أن تندم وحينها لا ينفع الندم، فالزمي يا كل بنت قدم أمك واسمعي وأطيعي لها، امتثالا لأمر الله ورسوله، وإقتداء بأخت موسى، فقامت دون تردد أو تلكأ أو تأخير، تتبع الصندوق:{فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ} [القصص: ١١]، أخذت ترقبه بطرف عينها من بُعد،لم تدن منه ولم تقترب، لئلا يُعلم أو يُشك بصلته بها، فمن ذكائها كانت تمشي جانبا وتنظر اختلاسًا كأنها لا تنظره{ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ} [طه: ٤٠]؛ تمشي على حافة النهر تتبعك، عينها على التابوت خوفاً عليك، يا ترى كيف حالها وشعورها وهي ترى الصندوق يجري على سطح الماء؟!

ربما ارتفع قلبها ونزل مع ارتفاع كل موجة ونزولها، إنه قلب الأخت الرحيمة يكاد يطير أو ينخلع، فهي خائفة على غرق الصندوق تارة، وخائفة من أعين الناس يرقبونها تارة، وخائفة من أعين حرس فرعون الذين يفتشون عن الصبيان في كل مكان لقتلهم تارة، فآهٍ لقلبك أيتها الأخت البارة؟{فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [القصص: ١١].

فمن حسن صنيعها وذكائها لا يشعرون أنها ترقبه، ولا بأنها أخته، وهذا من فطنتها، وأخذها الحيطة والحذر، وجميل أن يُغرس مثلُ هذا في نفوس الأولاد والبنات وَيُرَبَّوْنَ عليه في الحياة، وأن الفطنة والذكاء ليس خاصًا بالذكور دون الإناث، يؤكد هذا أنها لما رأت أن آل فرعون التقطوه، ورأت حيرتهم عندما امتنع عن المراضع، استغلت هذه الفرصة فدخلت وعرضت، وتكلمت بهدوء ودون أي ريبة:{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ} [القصص: ١٢]؟.

ومن حرصها وتلهفها على أخيها، زادت فقالت:{وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ} [القصص: ١٢]، هنا شكُّوا أنها تعرفه؟ فبادروها: وما يدريك أنهم له ناصحون؟! فتداركت وأجابت بسرعة وذكاء: إنما أردت أنهم ناصحون للملك. فالله درك يا أخت موسى؟ ويا للَّـهِ قلبَك وأنت تنظرين للمراضع، كلُّ مرضعة تُلقمه الثدي، أيقبل أم لا؟! إنها لحظات صعبة، ومواقفُ لا تُحتمل من قلوب الرجال؟ فكيف بقلب فتاة عضة طرية، فهي ترقب وتنظر إليهن مرضعة بعد مرضعة، وكلما التمس ثدياً تركه، حتى إذا لم يقبل منهن جميعاً؛ والسبب في ذلك أن الله تعالى حرم عليه المراضع من قبل؛ وهذا التحريم يسمى عند العلماء التحريم القدري؛ وهو الذي لا يتدخل فيه الإنسان.

فالتحريم نوعان؛ الأول: تحريم شرعي؛ ويكون في الأشياء التي يحبها الله تعالى؛ وهذا التحريم قد يتدخل فيه الإنسان؛ بمعنى: أن الله تعالى قد يحرمه عليه، ومع ذلك يأتي هذا الحرام؛ وقد نص الله تعالى على هذا التحريم في القرآن؛ قال تعالى:{ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾} [النساء: ٢٣]؛ فهذه محرمات حرمها الله تعالى، ومع ذلك فإن الإنسان قد ينتهك هذه المحرمات التي حرمها الله تعالى عليه.

كذلك قوله تعالى:{حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ

وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ } [المائدة: ٣]؛ فمثل هذه المحرمات قد يتدخل فيها الإنسان وينتهكها؛ وهذا ما يسمى بالتحريم الشرعي.

النوع الثاني من التحريم هو التحريم القدري؛ وهو الذي معنا في هذه القصة؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال:{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ} [القصص: ١٢]؛ فهذا التحريم يسمى تحريم قدري.

لـم؟

لأنه لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن يتدخل فيه.

ولذلك لم يرض موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يشرب من أي مرضعة؛ فهو محرم عليه أن يلتقم أي ثدي إلا ثدي أمه، ولذلك لما علمت أخته ذلك فرحت، وأي فرح، فقد جاءتها المنحة السماوية فاستثمرتها مباشرة{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ} [القصص: ١٢]؛ قالوا لها: من هم؟ قالت: أمي، قالوا: وهل لأمك ابن؟ قالت: نعم هارون وُلد في سنة لا يُقتل فيها الولدان؟ قالوا: صدقت فَأْتِ بِهَا، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها، فانطلقت أمها معها حتى أتتهم، فناولوها إياه، فلما وضعته في حجرها أخذ ثديها يرضع، لقد لقم الثديَ يرضعه! فذهبوا يبشرون فرعون وامرأته.

انظر أخي في الله إلى هذا التحدي الإلهي؛ فإن فرعون علية لعنة الله كان يريد قتل الذكور دون الإناث حتى لا يذهب ملكه، وفي السنة التي لم يقتل فيها ولد هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وفي السنة التي أراد أن يقتل الذكور ولد موسى عليه وعلى نبينا الصلاة

والسلام، ومع ذلك لم يستطع عدو الله أن يمسه؛ بل تربى في بيته وأكل من بيته ولبس في بيته وشرب في بيته، وكان هلاك عدو الله فرعون على يديه. انظر أخي؛ من هذا الذي يستطيع أن يتحدى الله تعالى؟ انه إنسان مجنون مختل معتوه.

فسبحان مصرف الأمور، سبحان مقدر الأقدار، سبحان من إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، لقد جاءت البشارة، وجاء الوعد الحق{فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} [طه: ٤٠]؛ رددناك إلى أمك، بفضل من الله ثم أختك، إنها الأخت المباركة على موسى وعلى أم موسى السلام،{ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا} [طه: ٤٠].

قال الإمام أبو عمر ابن حزم في الفِصَلِ: وقولها لأخته (قُصِّيهِ)، إنما هو لترى أخته كيفية قدرة الله تعالى في تخليصه من يدي فرعون عدوِّه بعد وقوعه فيهما، وليُتم بها ما وعدها الله تعالى من رده إليها، فبعثت أخته لترده بالوحي.

وقص الأثر هو: الاستدلال بآثار الأقدام والخفاف والحوافر. ويُعد من أهم أساليب اكتشاف الجرائم والحوادث الغامضة. وقيل: أن العرب كانوا يميزون قدم الرجل والمرأة، والبكر والثيب، والشيخ والشاب، والأعمى والبصير، فقص الأثر علم كبير عند العرب وأهل البوادي، ولهم في ذلك مهارة عجيبة، معتمدين على الفطنة، ودقة الملاحظة والذكاء الفطري.

ويحتل أهل قص الأثر مكانة عالية لما يقدمونه من دور كبير في استقرار المجتمع، من خلال الكشف عن كثير من الأسرار والحوادث الغامضة،

وهناك قصاصون مشهورون تقوم الجهات الرسمية باستدعائهم لتتبع الأثر حين تدعو الحاجة إلى ذلك، وهم يتميزون بمهارات خاصة تمكنهم من أداء مهامهم بنجاح، حتى أن بعض من يقصون الأثر يميز بين أنواع الحيوانات تمييزاً يدعو إلى الدهشة: فهم قد يميزون بين أثر الجمل من أثر الناقة، فقدم الجمل تنهب الأرض نهبًا، بينما قدم الناقة تلامس الأرض بلطف، وأما الناقة الحامل فتكون خطواتُها ثقيلةً، وأيضاً هم يعلمون أن الجمل يبول إلى الخلف، بينما الناقة العادية يسيح بولها مع رجليها، وأما الناقة الحامل فإنها تنثر بولها على ذيلها فيتطاير، ويميزون كذلك الأعور من الإبل، أكان جملا أم ناقة بناء على طريقة السير، وطريقة الطعام، ويميزون بين أثر الذئب أو الذئبة، فقدم الذئبة أصغر من قدم الذئب، ويميزون بين الغزال وهو في طريقه إلى المرعى، والغزال الذاهب إلى النوم، وكذلك الأرنب.. وغير ذلك مما اشتهر وعرف في قص الأثر وتتبعه.

قال علماؤنا أعزهم الله تعالى: ومن الدروس أيضاً في قصة أخت موسى ما يلي:

أولا: جواز خروج المرأة في حوائجها، وجواز تكليمها للرجال إذا انتفى المحذور،كما في قوله:{ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ} [طه: ٤٠]، وفي قوله:{يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ} [القصص: ١٢]، مشروعية الكفالة.

ولكن هل يؤخذ من القصة جواز خروج المرأة بدون محرم؟

قال شيخنا الدكتور محمد الشنقيطي: في هذا تفصيل؛ أولا: إذا كانت

المسافة التي ستقطعها المرأة اقل من مسافة القصر جاز لها؛ والدليل على ذلك أن أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن وأرضاهن كانوا يخرجن إلى المناصع للبراز، وهي تبعد عن المدينة ولكن دون مسافة القصر.

ثانيًا: إذا كانت المسافة مسافة قصر فما فوق فلا يحل لها أن تخرج بدون محرم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم.

فان قال قائل: إن الله تعالى قال:{ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ } [طه: ٤٠]؛ وهذا عام؟

قلت: هذا يجاب عليه من وجهين:

الأول: إن هذا في شرع من قبلنا، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه، وقد جاء شرعنا بضرورة المحرمية للمرأة.

الثاني: أن هذه الآية عامة، وقد خصصت بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : {لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم}. والقاعدة: يحمل العام على الخاص.

ثانيًا: يجب على كل أب وعلى كل أم أن تتقي الله تعالى في بناتها؛ فهذه أخت موسى عليهما السلام كانت وفية لأخيها لأمها لدينها، ومع الأسف فإن هناك أناسا حتى الآن يكرهون البنات، وهذه عادة جاهلية؛ ولقد جاء الإسلام بإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من أذية البنات واحتقارهم؛ ولذلك حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت ابنته زينب في أشرف المواطن وأحبها إلى الله تعالى ألا وهي الصلاة؛ وفعل هذا صلى الله عليه وسلم لكي يهدم ما كان عليه أهل

الجاهلية من أذية البنات واحتقارهم حتى كانوا يقتلونها وهي في الصغر. وكان الرجل إذا حملت امرأته وأرادت أن تضع الحمل قال لها: إن كانت بنتا فلا تسمعيني صوتها حتى كانت تضع البنت في الحفرة مباشرة بعد وضعها، فكانوا يقتلونها مباشرة، وهذا يدل على ما كان عليه أهل الجاهلية من شدة البغض للبنات واحتقارهم.

ولا يزال هذا المعنى الجاهلي موجودا في بعض الجهال؛ وقد تجد من بعضهم إذا ذكر البنت أو المرأة قال: أعزكم الله، فهذه جاهلية لا يجوز للمسلم أن يتلفظ بها لسانه؛ فإن الله تعالى كرم بني آدم؛ قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾} [الإسراء: ٧٠]، وجاء رسول الأمة بالرحمة والعطف على البنات كما جاء بالرحمة والعطف على الذكور، ومن هنا تجد السنة ظاهرة في هدم هذا المعنى الجاهلي، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :{من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار}[1].

ثالثا: تؤكد هذه القصة لأخت موسى قدرةَ المرأةِ على فعلِ الأعاجيب، وقدرتَها على القيام بأمورٍ صعبةٍ متى أعطيت الثقة وفُتح لها الباب الشرعي.

تمت القصة بعون الله تعالى

***

(1) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (1352).

زوجــة موســى

[8] زوجة موسى

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ} [طه: ٩ - ١٠]، وهي صفورا بنت شعيب عليه السلام.

* * *

موجز القصة:

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة:

الأول: صاحب يوسف حين قال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ} [يوسف: ٢١].

الثاني: صاحبة موسى حين قالت: {يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ} [القصص: ٢٦].

الثالث: وأبو بكر رضي الله عنه حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد يقول قائل: ولكن ما الذي أخرج موسى عليه السلام من مصر إلى أرض مدين في جنوب فلسطين؛ ليتزوج من ابنة الرجل الصالح، ويرعى له الغنم عشر سنين؟!

والجواب: كان موسى عليه السلام يعيش في مصر، وبينما هو يسير في طريقه رأى رجلين يقتتلان؛ أحدهما من قومه " بني إسرائيل "، والآخر من آل فرعون، وكان المصري يريد أن يسخِّر الإسرائيلي في أداء بعض الأعمال، واستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فما كان منه إلا أن دفع المصري بيده فمات على الفور، قال تعالى: {وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾} [القصص: ١٥].

وفي اليوم التالي تشاجر اليهودي مع رجل آخر فاستغاث بموسى - عليه السلام - مرة ثانية فقال له موسى: إنك لغَوى مُبين؛ فخاف الرجل وباح بالسِّرِّ عندما قال: أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس؟

فعلم فرعون وجنوده بخبر قتل موسى للرجل، فجاء رجل من أقصى المدينة يحذر موسى، فأسرع بالخروج من مصر، وهو يستغفر ربه قائلاً: {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [القصص: ١٦]، وخرج موسى من مصر، وظل ينتقل حتى وصل إلى أرض مَدْين في جنوب فلسطين، وجلس موسى - عليه السلام - بالقرب من بئر، ولكنه رأى منظرًا لم يعجبه؛ حيث وجد الرعاة يسقون ماشيتهم من تلك البئر، وعلى مقربة منهم تقف امرأتان تمنعان غنمهما عن ورود الماء؛ استحياءً من مزاحمة الرجال، فأثر هذا المنظر في نفس موسى؛ إذ كان الأولى أن تسقى المرأتان أغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما، فذهب موسى إليهما وسألهما عن أمرهما، فأخبرتاه بأنهما لا تستطيعان السقي إلا بعد أن ينتهي الرجال من سقى ماشيتهم، وأبوهما شيخ كبير لا يستطيع القيام بهذا الأمر، فتقدم ليسقى لهما كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة، فزاحم الرجال وسقى لهما، ثم اتجه نحو شجرة فاستظل بظلها، وأخذ يناجى ربه: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: ٢٤]، وعادت الفتاتان إلى أبيهما، فتعجب من عودتهما سريعًا، وكان من عادتهما أن تمكثا وقتًا طويلا حتى تسقيا الأغنام، فسألهما عن السبب في ذلك، فأخبرتاه بقصة الرجل القوي الذي سقى لهما، وأدى لهما معروفًا دون أن يعرفهما، أو يطلب أجرًا مقابل خدمته، وإنما فعل ذلك مروءة منه وفضلا.

وهنا يطلب الأب من إحدى ابنتيه أن تذهب لتدعوه، فجاءت إليه إحدى الفتاتين تمشى على استحياء، لتبلغه دعوة أبيها: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ

لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} [القصص: ٢٥]، واستجاب موسى للدعوة، فلما وصل إلى الشيخ وقصّ عليه قصته، طمأنه الشيخ بقوله:{لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٢٥]، وعندئذ سارعت إحدى الفتاتين - بما لها من فراسة وفطرة سليمة، فأشارت على أبيها بما تراه صالحًا لهم ولموسى - عليه السلام -:{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)} [القصص: ٢٦]؛ فهي وأختها تعانيان من رعي الغنم، وتريد أن تكون امرأة مستورة، لا تحتكّ بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى، فالمرأة العفيفة الروح لا تستريح لمزاحمة الرجال، وموسى عليه السلام فتى لديه من القوة والأمانة ما يؤهله للقيام بهذه المهمة، والفتاة تعرض رأيها بكل وضوح، ولا تخشى شيئًا، فهي بريئة النفس، لطيفة الحسّ.

ويقتنع الشيخ الكبير لما ساقته ابنته من مبررات بأن موسى جدير بالعمل عنده ومصاهرته، فقال له:{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [القصص: ٢٧ - ٢٨]، ولـمَّا وَفَّى موسى الأجل وعمل في خدمة صِهْره عشر سنين، أراد أن يرحل إلى مصر، فوافق الشيخ ودعا له بالخير، فخرج ومعه امرأته وما أعطاه الشيخ من الأغنام، فسار موسى من مدين إلى مصر. وهكذا كانت زوجة موسى - رضي اللّه عنها - نموذجًا للمؤمنة، ذات الفراسة والحياء، وكانت قدوة في الاهتمام باختيار الزوج الأمين العفيف.

امرأة فرعون

قصص النساء في القرآن

[9] امرأة فرعون

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} [التحريم: ١١]؛ وهي آسية بنت مزاحم، ولم يكن لها ولد، وقيل هي التي سمّت موسى بهذا الاسم، لأنه وُجد بين ماء وشجر، أظهرت إيمانها يوم الزينة، فأمر فرعون أن توتد على ظهرها أوتاد، وأن ترضخ بصخرة عظيمة إن لم ترجع، فقالت{رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ} [التحريم: ١١]؛ فاختارت الجار قبل الدار.

***

موجز القصة:

انظر أخي الحبيب إلى عظمة عبادة الله تعالى وإلى حب الله عز وجل؛ هذه المرأة الصالحة نشأتْ ملكة في القصور، واعتادتْ حياة الملوك، ورأتْ بطش القوة، وجبروت السلطان، وطاعة الأتباع والرعية، غير أن الإيمان أضاء فؤادها، ونوَّر بصيرتها، فسئمتْ حياة الضلال، واستظلتْ بظلال الإيمان، ودعتْ ربها أن ينقذها من هذه الحياة، فاستجاب ربها دعاءها، وجعلها مثلا للذين آمنوا، فقال: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾} [التحريم: ١١].

إنها آسية بنت مزاحم - امرأة فرعون - التي كانت نموذجًا خلّده القرآن للمؤمنة الصادقة مع ربها، فهي عندما عرفت طريق الحق اتبعته دون خوف من الباطل، وظلم أهله، فلقد آمنت باللّه إيمانًا لا يتزعزع ولا يلين، ولم تفلح تهديدات فرعون ولا وعيده في ثنيها عن إيمانها، أو إبعادها عن طريق الحق والهدي. لقد تاجرتْ مع اللّه

تعالى، فربحَتْ تجارتها، باعتْ الجاه والقصور والخدم، بثمن غال، ببيتٍ في الجنة.

وقد جاء ذكر السيدة آسية - رضي اللَّه عنها - في قصة موسى - عليه السلام - حينما أوحى اللَّه إلى أُمِّه أن تُلْقيه في صندوق، ثم تلقى بهذا الصندوق في البحر، وفيه موسى، ويلْقِى به الموج نحو الشاطئ الذي يطلّ عليه قصر فرعون؛ فأخذته الجواري، ودخلن به القصر، فلما رأت امرأة فرعون ذلك الطفل في الصندوق؛ ألقى الله في قلبها حبه، فأحبته حبًّا شديدًا.

وجاء فرعون ليقتله - كما كان يفعل مع سائر الأطفال الذين كانوا يولدون من بنى إسرائيل - فإذا بها تطلب منها أن يبقيه حيا؛ ليكون فيه العوض عن حرمانها من الولد. وهكذا مكن اللَّه لموسى أن يعيش في بيت فرعون، قال تعالى:{وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [القصص: ٧ - ٩].

وكانت السيدة آسية ذات فطرة سليمة، وعقل واع، وقلب رحيم، فاستنكرت الجنون الذي يسيطر على عقل زوجها، ولم تصدق ما يدعيه من أنه إله وابن آلهة.

وحينما شَبَّ موسى وكبر، ورحل إلى " مدين "، فرارًا من بطش فرعون وجنوده ثم عاد إلى مصر مرة أخرى - بعد أن أرسله اللَّه - كانت امرأة فرعون من أول المؤمنين بدعوته.

قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون ولما تبين لفرعون إسلامها جن جنونه، فكيف تؤمن زوجته التي تشاركه حياته، وتكفر به، فقام بتعذيبها حيث عَزَّ عليه أن تخرج زوجته على عقيدته، وتتبع عدوه، فأمر بإنزال أشد أنواع العذاب عليها؛ حتى تعود إلى ما كانت عليه، لكنها بقيت مؤمنة بالله، واستعذبت الآلام في سبيل اللّه؛ فأوتد هذا اللعين في الدنيا والآخرة يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس، وهى صابرة محتسبة على ما تجد من أليم العذاب، ثم أمر بوضع رحًى على صدرها، وأن تُلقى عليها صخرة عظيمة، لكنها دعتْ ربها أن ينجيها من فرعون وعمله.

قال سلمان: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس فإذا انصرفوا عنها ظلتها الملائكة: {إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ} [التحريم: ١١]، فاختارت الجار قبل الدار، فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته، وفي القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة قالت: رب ابن لي عندك بيتا في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزع روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، ولم تجد ألما.

وقال الحسن وابن كيسان: رفع الله تعالى امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب{وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ} [التحريم: ١١]، قال مقاتل: وعمله يعني الشرك.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: وعمله، قال: جماعة. ونجني من القوم الظالمين؛ أي: الكافرين.

يؤخذ من هذه القصة ما يلي:

أولا: قد يكون الزوج وباء على زوجته؛ فهذا فرعون الكافر اللعين كان وباءا على زوجته، ولذلك طلبت زوجته من ربها أن ينجيها منه ومن عمله؛ وصدق الله حيث يقول:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾} [التغابن: ١٤]؛ فيجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تختار الرجل الصالح الذي يكون قدوة لها في دينها فإن الدين هو كل شيء بالنسبة للإنسان؛ فهو سبب سعادته في الدنيا وفي الآخرة.

وأنا أتعجب اليوم من أولئك الذين يزوجون بناتهم لشخص لا يصلي، بل قد يكون سارق أو زان أو شارب خمر أو... أو.... وهذا من الأسف والحزن، فإن على ولي المرأة أن يختار لها من يساعدها على إقامة دينها، أما أن يزوجها لشخص لا يعرف الله تعالى فإنه لا يأمن من أن يفتنها في دينها. نسأل الله السلامة والعافية.

ثانيا: هذا الكافر مع ظلمه لربه بالكفر وظلمه لنفسه بارتكاب المعاصي وظلمه للناس بالتعذيب والتنكيل أشد العذاب ظلم زوجته التي هي سكنه ومستقر راحته، وهنا وقفة مع كل مسلم يتقي الله تعالى ويعلم علم اليقين أنه ملاقيه أن يتقي الله في زوجاته ويعاملهم المعاملة الحسنة التي قامت عليها الشريعة الإسلامية، وتأمل في هذا الحديث الذي رواه لنا الصحابي البر أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل}. رواه الأربعة، وسنده صحيح. دل هذا الحديث على الوعيد على من حاد إلى إحدى الزوجات وجار في

حق الأخرى؛ فلو فضل أحد زوجته على الأخرى في المبيت أو النفقة أو الكسوة أو السكن فإنه يكون قد ارتكب كبيرة من الكبائر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم علق على هذا الميل أنه يأتي وشقه مائل عقوبة له؛ فالجزاء من جنس العمل؛ فالميل إلى إحدى الزوجات دون الأخرى ظلم وعدوان؛ فيجب على كل مسلم إذا كان عنده زوجتان فأكثر أن يتقي الله تعالى ويعدل بينهن كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعدل.

ولبعض أهل العلم وجهان في قوله صلى الله عليه وسلم :**{جاء وشقه مائل}**؛ فقال بعضهم: كفة سيئاته ترجح على كفة حسناته، وهذا هلاك وبلاء للعبد؛ لأنه إذا ثقلت موازين الخير نجا وأفلح، وإن ثقلت موازين الشر والمظالم هلك وخسر. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

وقال بعضهم: بل يخرج من قبره مشلولا في نضف جسده؛ فكما أنه لم يعدل بين زوجاته وظلم بينهن جعل الله تعالى هذا الشلل من جنس العمل.

كما أن ظلم الزوجات أعظم من ظلم الأغراب؛ لأن ظلم القريب ظلم وقطيعة رحم، أما ظلم الغريب فإنه مجرد ظلم فقط، والله تعالى حرم الظلم على نفسه؛ فقال عز وجل: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظلموا؛ أي: لا يظلم بعضكم بعضا، وحذر من العواقب الوخيمة في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قال صلى الله عليه وسلم : **{اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة}**، والظلم بين الزوجات عظيم، وإنما يشدد في مثل هذا الظلم والتنبيه على أمره؛ لأن كل من نظر إلى العواقب المترتبة على تفضيل

الزوجات أدرك أن الأمر خطيرا؛ فإن الزوجة إذا نظرت إلى ميل زوجها إلى ضرتها، وعدم مبالاته بحقوقها انكسر خاطرها، ولربما أصبحت في شدة وحزن وألم؛ فالغيرة من جهة التي لا تملكها من نفسها، وقد حدثت بين أمهات المؤمنين فضلا عن غيرهن ثم يأتي الظلم ليزيد النار في القلوب اشتعالا، فتمسي وتصبح وهي تكتوي بنار الظلم، يبيت عند ضرتها ولا يبيت عندها، ويقضي حوائج ضرتها ولا يقضي حوائجها، ويسأل عن ضراتها وعن أولادها ويحسن إليهم ويهش ويبش في وجوههم، ولكن ما إن تدخل هذه المسكينة إلا عبس في وجهها ونكد عليها أمرها ونغص عليها عيشها ولم يبالي بشيء من أمرها، ولربما مكث الأيام ذوات العدد بل لربما مكث الشهور بل ولربما مكث السنين وهو لا يقرب بيتها ولا يطأ فراشها، وكل هذا بسبب الجهل بحدود الله تعالى أو الجرأة على محارم الله تعالى، ومن هنا لم يأمن أصحاب هذه النفوس الظالمة من العواقب الوخيمة التي انتهت بهم بسبب الدعوات من النسوة المظلومات في ضياع حقوقهم والأذية والإضرار بهم.

من نظر إلى ظلم الزوجات ووضعوه الأليم في النفوس، فالمرأة دخلت إلي بيت الزوجية وكلها أمل أن تجد زوجا يجبر خاطرها ويكرم عشرتها، دخلت إلى بيت الزوجية من أجل أن تكرم لا أن تهان، من أجل أن تبني بيتا تحس فيه بالراحة والطمأنينة، وترى في أولادها وفي زوجها حياة سعيدة ولربما تفاجئ به بعد سنين من العمر ولربما مكثت معه عشرات السنين حتى إذا ضعفت وخارت قواها أو ذهب جمالها جاء وتزوج عليها، ثم لم يبالي بما بينه وبينها فينسي حياته معها وينسى الذمة وينسى العشرة، ويصبح لئيم الطبع

ناسيا للمعروف متنكرا للفضل والجميل، ولربما تكون الزوجة محل احترام وتقدير عند زوجها وذلك لوجود أبيها أو أخيها القوي فإذا توفي أبوها أو مات أخوها ومن يفق معها تزوج عليها ثم أصبح لا يبالي بشيء من أمرها وعندها ترى الظلم في جميع صوره وأحواله أشد ما يكون قسوة على هذه المرأة الضعيفة التي ربما تعاني هذا الظلم والأذية والإضرار في آخر عمرها؛ فلا تدري أهي تعتني بنفسها فيما تجد في آلام جسدها وضعفها وكبرها أم تنظر إلى هذه الآلام النفسية، ولربما كان ألمها من زوجها أعظم من الآلام التي تجدها في جسدها.

إن ظلم الزوجات وعدم المبالاة بحقوقهن وعدم المبالاة بمشاعرهن أمر عظيم، وكثير من الناس يجهل ما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم من الهدي الذي يحذر من حقوق النساء، وأنه ينبغي على المسلم أن يعرف ما معني الزواج، وما معنى أن يبني بيتا من بيوت الزوجية، وما معنى أن يتكفل بحقوق الزواج ويحملها على ظهره لكي يلقى الله جلا وعلا بها، ولذلك عظم السلف الصالح رحمهم الله تعالى أمر التعدد، وكانوا يخافون منه خوفا شديدا؛ فكانوا يخافون في حقوق الزوجات، فإذا بالواحد يراقب نفسه حتى في مشاعره إذا اجتمعت زوجاته، ويراقب نفسه حتى في أفعاله وتصرفاته.

وهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه حافظ القرآن، إمام من أئمة الصحابة رضي الله عنهم كانت له زوجتان، وكان لا يتوضأ في بيت الثانية إذا كانت الليلة للأولى كله خشية أن يكون مفضلا لها بشيء على أختها وضرتها، وشاء الله عز وجل يبتليه فتوفيت الزوجتان في

طاعون الشام المعروف، فماتت الزوجتان في يوم واحد، ولما قام بشأنهما وصلي عليهما وأراد أن يدفنهما وقف رضي الله عنه وهذا من فقهه وعلمه وورعه، وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفقهون النصوص ويفقهون ماذا يراد من أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فوقف هذا الصحابي الجليل أما القبرين، فأي الزوجتين يبدأ بها؟

أيبدأ بالكبرى رعاية لحقها أم يبدأ بالصغرى رعاية لضعفها؟

لا يدري بأيهما يبدأ حتى أقرع بين الزوجتين لكي لا يلقى الله تعالى وقد مال قلبه إلى واحدة منها، وبقي على هذا الوفاء حتى بعد وفاتهما، وبقي على العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض حتى في آخر لحظة يريد أن يواري الجسدين عن هذه الدنيا، وهذا كله مما كان أدبا من آداب النبوة، ومما كان معنا من معاني المدرسة التي تربى فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على يدي معلم الأمة صلوات الله وسلامه عليه.

وعلى هذا أجمع العلماء رحمهم الله تعالى على وجوب العدل بين الزوجتين، والعدل يتحقق في أمور، حتى كان السلف الصالح رحمهم الله تعالى لا يفضلون الزوجة على الزوجة حتى في الأولاد، ويراعون العدل حتى في الأولاد في القبل، فلا يقبل ابنا إلا قبل أخاه خشية أن يكون مفضلا لقرين على قرين، وعلى هذا أجمع السلف والخلف كما قلنا على وجوب العدل بين الزوجات إلا إذا وجد موجب شرعي لتفضيل إحدى الزوجتين على غيرها.

قال علماؤنا: إذا كان عند الرجل زوجتان فأكثر فإنه يجب عليه العدل

بينهمـا؛ قـال الله سـبحانه وتعـالى:{فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ} [النساء: ٣]؛ والعدل بين الزوجات على قسمين:

الأول: عدل يستطيع الإنسان عليه؛ وهو عدل النفقة ومستلزماتها؛ فهذا العدل يجب عليه؛ فلا يجوز أن يزيد واحدة على أخرى.

الثاني: عدل لا يستطيع عليه الزوج؛ وهو الحب والميل القلبي؛ فهذا لا يستطيع عليه الزوج؛ فلا يلام فيه إذا كان يحب بعض نسائه أكثر من محبة الأخرى؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى:{ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا } [النساء: ١٢٩]؛ فالمراد بالعدل هنا هو المحبة والميل القلبي، والمراد بالعدل في أول السورة العدل في النفقة وتوابعها.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: هذا العدل الذي ذكر تعالى هنا أنه لا يستطاع هو العدل في المحبة، والميل الطبيعي ؛ لأنه ليس تحت قدرة البشر بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع؛ وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله:{فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ} [النساء: ٣]؛ أي: تجوروا في الحقوق الشرعية. والقسم بين الزوجات لا بد أن يتضمن ما يلي:

أولا: المبيت عند كل واحدة ليلة.

ثانيا: العدل في النفقة.

ثالثا: العدل في السكن.

رابعا: العدل في الكسوة.

قـال علماؤنـا: هذه الأمور الأربعة لا بد من العدل فيها، وأولاها المبيت؛ أي بالليل، أما من كان عمله بالليل؛ فهذا يكون القسم عنده بالنهار. والسبب في هذا أن عدم العدل وهذا كسر للخواطر سبب للفتنة والشحناء وحصول الضرر العظيم المترتب على البغضاء، فتنفر النفوس، ويحصل بين الزوجات ما لا يحمد عقباه، ثم تنتقل هذه العداوة إلى الأولاد والأخوة؛ وحينئذ يكون الشر بين أولى القربى، ولذلك كان منهج الشرع حكيما في تنبيه المسلمين، وتنبيه الأزواج على وجوب العدل بين الزوجات.

وبين الله تعالى أن حل نكاح الزوجة الثانية والثالثة والرابعة موقوف على العدل؛ قال الله سبحانه وتعالى: {فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ} [النساء: ٣]؛ أي: ذلك أقرب ألا تجوروا في الحقوق.

ومن هنا وجب على من عدد وأخذ الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أن يتقي الله تعالى فيهن، وأن يعدل في قسمه بينهن، وأن يراعي هذا الحق حق رعايته.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *

بلقيس ملكة سبأ

قصص النساء في القرآن

[10] بلقيس ملكة سبأ

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: {إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾} [النمل: ٢٣]، وهي بلقيس بنت شراحيل، غلبت على المُلك بعد أبيها، وكان قومها يعبدون الشمس، وعرشها كان من ذهب وفضة مكلل بأنواع الجواهر.

* * *

موجز القصة:

هي بلقيس بنت البشرخ، وهو الهذهاذ، وقيل: شراحيل بن ذي جدن بن البشرخ بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان أبوها من أكابر الملوك، وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال: إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت الشكر؛ فولدت له هذه المرأة واسمها بلعمة ويقال لها: بلقيس. وهناك اختلاف كبير بين المراجع التاريخية في تحديد اسم ونسب هذه الملكة الحِمْيَرية اليمانية، كما أنه لا يوجد تاريخ لسنة ولادتها ووفاتها.

كانت بلقيس سليلة حسبٍ ونسب؛ فأبوها كان ملكاً، وقد ورثت الملك بولاية منه؛ لأنه على ما يبدو لم يرزق بأبناء بنين، لكن أشراف وعلية قومها استنكروا توليها العرش وقابلوا هذا الأمر بالازدراء والاستياء، فكيف تتولى زمام الأمور في مملكة مترامية الأطراف مثل مملكتهم امرأة، أليس منهم رجلٌ رشيد؟

وكان لهذا التشتت بين قوم بلقيس أصداء خارج حدود مملكتها، فقد أثار الطمع في قلوب الطامحين الاستيلاء على مملكة سبأ، ومنهم

الملك عمرو بن أبرهة الملقب بذي الأذعار؛ فحشر ذو الأذعار جنده وتوجه ناحية مملكة سبأ للاستيلاء عليها وعلى ملكتها بلقيس، إلا أن بلقيس علمت بما في نفس ذي الأذعار فخشيت على نفسها، واستخفت في ثياب أعرابي ولاذت بالفرار.

وعادت بلقيس بعد أن عم الفساد أرجاء مملكتها فقررت التخلص من ذي الأذعار، فدخلت عليه ذات يوم في قصره وظلت تسقيه الخمر وهو ظانٌ أنها تسامره وعندما بلغ الخمر منه مبلغه، استلت سكيناً وذبحته بها وعلقت رأسه على بابها. إلا أن رواياتٍ أخرى تشير إلى أن بلقيس أرسلت إلى ذي الأذعار وطلبت منه أن يتزوجها بغية الانتقام منه، وهذا ما ذكره العلامة ابن كثير في قصة سليمان بن داود عليهما السلام.

وعندما دخلت عليه فعلت فعلتها التي في الرواية الأولى، وهذه الحادثة هي دليلٌ جليّ وواضح على رباطة جأشها وقوة نفسها، وفطنة عقلها وحسن تدبيرها للأمور، وخلصت بذلك أهل سبأ من شر ذي الأذعار وفساده، وازدهر زمن حكم بلقيس مملكة سبأ أيمّا ازدهار، واستقرت البلاد أيمّا استقرار، وتمتع أهل اليمن بالرخاء والحضارة والعمران والمدنية.

كما حاربت بلقيس الأعداء ووطدت أركان ملكها بالعدل وساست قومها بالحكمة؛ ومما أذاع صيتها وحبها إلى الناس قيامها بترميم سد مأرب الذي كان قد نال منه الزمن وأهرم بنيانه وأضعف أوصاله..... وبلقيس هي أول ملكة اتخذت من سبأ مقراً لحكمها.

ورد ذكر الملكة بلقيس في القرآن الكريم، فهي صاحبة الصرح

المُمَرد من قوارير وذات القصة المشهورة مع النبي سليمان بن داود عليهما السلام في سورة النمل، وقد كان قوم بلقيس يعبدون الأجرام السماوية والشمس على وجه الخصوص، وكانوا يتقربون إليها بالقرابين، ويسجدون لها من دون الله عز وجل، وهذا ما لفت انتباه الهدهد الذي كان قد بعثه سليمان - عليه السلام - ليبحث عن موردٍ للماء.

وبعد الوعيد الذي كان قد توعده سليمان إياه لتأخره عليه بأن يعذبه إن لم يأت بعذرٍ مقبول عاد الهدهد وعذره معه{أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ} [النمل: ٢٢]؛ فقد وجد الهدهد أن أهل سبأ على الرغم مما آتاهم الله عز وجل من النعم إلا أنهم{يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ} [النمل: ٢٤].

وهنا وقفة يجب الإشارة إليها: وهي أن هذا الهدهد عرف قضية التوحيد؛ وأنه لا يجوز لأحد كائن من كان أن يعبد غير الله تعالى؛ فيجب على كل مؤمن أن يؤمن بالله عز وجل ولا يعبد غيره، وسوف أشير إلى هذا المعنى إن شاء الله تعالى في آخر هذه القصة.

فما كان من سليمان - عليه السلام - المعروف بكمال عقله وسعة حكمته إلا أن يتحرّى صدق كلام الهدهد، فقال:{سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ} [النمل: ٢٧]، وأرسل إلى بلقيس ملكة سبأ بكتابٍ يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله ورسوله والإنابة، والإذعان، وأن يأتوه مسلمين خاضعين لحكمه وسلطانه، ونصه{إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١} [النمل: ٣٠ - ٣١].

كانت بلقيس حينها جالسة على سرير مملكتها المزخرف بأنواع من الجواهر واللآلئ والذهب مما يسلب الألباب ويذهب بالمنطق

والأسباب، ولما عُرف عن بلقيس من رجاحة وركازة العقل فإنها جمعت وزراءها وعلية قومها، وشاورتهم في أمر هذا الكتاب، في ذلك الوقت كانت مملكة سبأ تشهد من القوة ما يجعل الممالك الأخرى تخشاها، وتحسب لها ألف حساب. فكان رأي وزرائها{نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ} [النمل: ٣٣] في إشارةٍ منهم إلى اللجوء للحرب والقوة. إلا أن بلقيس صاحبة العلم والحكمة والبصيرة النافذة ارتأت رأياً مخالفاً لرأيهم؛ فهي تعلم بخبرتها وتجاربها في الحياة أن{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [النمل: ٣٤].

وبصرت بما لم يبصروا ورأت أن ترسل إلى سليمان بهديةٍ مع علية قومها وقلائهم، علّه يلين أو يغير رأيه، منتظرةٌ بما يرجع المرسلون، ولكن سليمان - عليه السلام - رد عليهم برد قوي منكر صنيعهم ومتوعد إياهم بالوعيد الشديد قائلاً:{أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} [النمل: ٣٦].

عندها أيقنت بلقيس بقوة سليمان وعظمة سلطانه، وأنه لا ريب نبي من عند الله - عز وجل -، فجمعت حرسها وجنودها واتجهت إلى الشام حيث سليمان - عليه السلام -، وكان عرش بلقيس وهي في طريقها إلى سليمان - عليه السلام - مستقراً عنده، فقد أمر جنوده بأن يجلبوا له عرشها، فأتاه به رجلٌ عنده علم الكتاب قبل أن يرتد إليه طرفه. ومن ثم غيّر لها معالم عرشها، ليعلم أهي بالذكاء والفطنة بما يليق بمقامها وملكها.

ومشت بلقيس على الصرح الممرد من قوارير والذي كان ممتداً على عرشها، إلا أنها حسبته لجةً فكشفت عن ساقيها وكانت مخطئة بذلك عندها عرفت أنها وقومها كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم لغير الله

تعالى، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وقال بعض أهل السير والتاريخ: إن سليمان - عليه السلام - تزوج من بلقيس، وأنه كان يزورها في سبأ بين الحين والآخر، وأقامت معه سبع سنين وأشهراً، وتوفيت فدفنها في تدمر. وتعلل المراجع سبب وفاة بلقيس أنها بسبب وفاة ابنها رَحْبَم بن سليمان، وقد ظهر تابوت بلقيس في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وعليه كتابات تشير إلى أنها ماتت **لإحدى وعشرين سنة خلت من حكم سليمان**. وفتح التابوت فإذا هي غضّة لم يتغير جسمها، فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر بترك التابوت مكانه وبنى عليه الصخر.

إن الملكة بلقيس ما كان لها هذا الشأن العظيم لولا اتصافها برجاحة العقل وسعة الحكمة وغزارة الفهم؛ فحسن التفكير وحزم التدبير أسعفاها في كثيرٍ من المواقف الصعيبة والمحن الشديدة التي تعرضت لها هي ومملكتها؛ ومنها قصتها مع الملك ذي الأذعار الذي كان يضمر الشر لها ولمملكتها، ولكن دهاءها وحنكتها خلصاها من براثن ذي الأذعار، وخلص قومها من فساده، وطغيانه وجبروته.

كما أنها عرفت بحسن المشاورة إلى جانب البراعة في المناورة، فهي لم تكن كبقية الملوك متسلطة في أحكامها، متزمتة لآرائها، لا تقبل النقاش أو المجادلة، بل كانت كما أجرى الله على لسانها{قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾} [النمل: ٣٢]، وذلك على الرغم من أنه كان بمقدورها أن تكتفي برأيها وهي الملكة العظيمة صاحبة الملك المهيب؛ فهي ببصيرتها النيّرة كانت ترى أبعد من مصلحة الفرد، فهمّها كان فيما يحقق مصلحة الجماعة.

كانت بلقيس فطينة رزينة، وكانت فطنتها نابعة من أساس كونها امرأة، فالمرأة خلقها الله - عز وجل - وجعلها تتمتع بحاسة تمكنها من التبصر في نتائج الأمور وعواقبها. والشاهد على ذلك أنه كان لبلقيس - كعادة الملوك - عدد كبير من الجواري اللاتي يقمن على خدمتها، فإذا بلغن استدعتهن فرادى، فتحدث كل واحدة عن الرجال فإن رأت أن لونها قد تغير فطنت إلى أن جاريتها راغبة في الزواج، فتُزوجها بلقيس رجلاً من أشراف قومها وتكرم مثواها، أما إذا لم تضطرب جاريتها ولم تتغير تعابير وجهها، فطنت بلقيس إلى أنها عازفة عن الرجال، وراغبة في البقاء عندها ولم تكن بلقيس لتقصر معها.

ومن أمارات فطنتها أيضا أنه لما ألقي عليها كتاب سليمان علمت من ألفاظه أنه ليس ملكاً كسائر الملوك، وأنه لا بد وأن يكون رسول كريم وله شأنٌ عظيم؛ لذلك خالفت وزراءها الرأي عندما أشاروا عليها باللجوء إلى القوة، وارتأت بأن ترسل إلى سليمان بهدية، وكان المراد من وراء هذه الهدية ليس فقط لتغري وتلهي سليمان - عليه السلام - بها، وإنما لتعرف أتغير الهدية رأيه وتخدعه؟ ولتتفقد أحواله وتعرف عن سلطانه وملكه وجنوده.

ومن علامة ذكائها أيضا أن سليمان - عليه السلام - عندما قال لها متسائلاً{أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ} [النمل: ٤٢]، قالت:{كَأَنَّهُۥ هُوَ}، ولم تؤكد أنه هو لعلمها أنها خلفت عرشها وراءها في سبأ ولم تعلم أن لأحد هذه القدرة العجيبة على جلبه من مملكتها إلى الشام، كما أنها لم تنفِ أن يكون هو؛ لأنه يشبه عرشها لولا التغيير والتنكير الذي كان فيه.

كثيرةٌ هي القصص المذكورة في القرآن عن أقوامٍ لم يؤمنوا برسل

الله تعالى وظلوا على كفرهم على الرغم مما جاءهم من العلم، إلا أن بلقيس وقومها آمنوا برسول الله سليمان - عليه السلام - ولم يتمادوا في الكفر بعدما علموا أن رسالته هي الحق وأن ما كانوا يعبدون من دون الله كان باطلاً.

واعترفت بلقيس بأنها كانت ظالمة لنفسها بعبادتها لغير الله{قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤].

يستفاد من هذه القصة ما يلي:

أولا: يجب على الداعي أول ما يدعو؛ يدعو إلى عبادة الله تعالى الواحد الأحد؛ ووجه ذلك أن سليمان على نبينا وعليه وعلى أبيه السلام أول ما دعا هذه المرأة دعاها إلى التوحيد؛ قال الله عز وجل: {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾} [النمل: ٣١]؛ أي: موحدين لله عز وجل مستسلمين لأمره سبحانه وتعالى في كل شيء.

وهذا التوحيد هو الذي جاء به الرسل عليهم السلام؛ فكل رسول كان يدعو إلى عبادة الله تعالى؛ قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾} [الأعراف: ٥٩].

فهذا التوحيد هو دعوة الأنبياء إلى أممهم، وهو وصية الأنبياء لكل مسلم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمين:**{فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله}**.

قال العلامة الفوزان معلقًا على هذا: ينبغي على الداعي إلى الله تعالى أول ما يدعو، يدعو إلى العقيدة؛ لأنها هي الأساس الذي يقوم عليه

الدين؛ ويظهر ذلك في قوله:{فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسـول الله صلى الله عليه وسلم}، ولذلك يجب على الداعي والخطيب والإمام ومن له باع في الدين أن يهتم بجانب العقيدة في محاضراته.

ثانيًا: يجب على كل إنسان أن يهتم بموضوع العقيدة؛ فهي حياة الدين، وهي رأسه، فإذا انهدمت العقيدة فلا نجاة للإنسان مهما كان عمله.

قال يحي بن عمار وهو من العلماء الأبرار المتوفى 422 هـ شيخ سجستنه انظر السير (ج 17 / 482)، وفي هذا المكان قوله الذي سيذكر، ونقله عنه شيخ الإسلام في ج 10 / 45: العلوم خمسة:

الأول: علم تحصل به حياة الدين، وهو علم العقائد.

الثاني: علم هو قوت الدين؛ وهو علم الموعظة والتذكير؛ وحقيقة القلوب لا بد لها من ترغيب وترهيب

الثالث: وعلم هو دواء الدين، وهو علم الفقه.

الرابع: علم هو داء الدين؛ وذكر أخبار ما جرى بين سلفنا الكرام من خلاف مع بعضهم.

الخامس: علم هو هلاك الدين؛ وهو علم الكلام والفلسفة.

فهذا الهدهد انتبه إلى ملكة سبأ؛ ووجدها تسجد هي وقومها للشمس من دون الله عز وجل فحزن حزنًا شديدًا على هذا.

حزن لضياع التوحيد عند هذه المرأة وقومها.

ثالثًا: قد يقول قائل: كيف أهتم بعلم العقيدة؟

قلت: هذا سؤال في غاية الأهمية؛ فلا بد للإنسان أن يعرف ما هي العقيدة، وما هي أركانها، وما....

وسوف أشير بفضل الله تعالى ومننه وفضله إلى الإجابة على هذا السؤال بشيء من الاختصار مع التوضيح؛ حتى لا تقرأ قصة ملكة سبا من القرآن ولا تخرج بشيء؛ **فالمهم في القصة أن تكون عبرة لك وأن تعمل بما تضمنتها من أمور الدين.**

أقول وبالله التوفيق:

العقيدة (الإيمان) لغة: هي العلم الذي يبحث فيما يجب على الإنسان أن يعتقده ويؤمن به، أو هي الأدلة والبراهين التي تفيد اليقين، ولفظ العقيدة لم يكن موجودًا في القرون المتقدمة، وإنما استحدثه أهل العلم ليبينوا للناس ما كان عليه أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بعد وقوع طائفة من الناس في الضلال والانحراف؛ وتطلق العقيدة على الإيمان، وهو الإقرار بالشيء عن تصديق به؛ قال تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام:{وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ} [يوسف: ١٧]؛ أي: وما أنت بمقر لنا بما قلناه عن تصديق، وليس معنى الإيمان مجرد التصديق؛ إذاً فالإيمان يتضمن معني زائدا على مجرد التصديق؛ فإذا قال قائل: أنا مؤمن بأن الله تعالى موجود؛ فهذا ليس إيمان حتى يكون هذا الإيمان مستلزما للقبول والإذعان في الأحكام، وإلا فليس إيمانا.

وأما في الشريعة: فلإطلاقه حالتان؛ الأولى: أن يطلق على الإفراد غير مقترن بذكر الإسلام فحينئذ يراد به الدين كله، القول والعمل.

والثانية: أن يطلق مقروناً بالإسلام، وحينئذ يفسر بالاعتقادات الباطنة

كما في حديث جبريل وما في معناه؛ كقوله تعالى:{ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ} [البقرة: ٨٢]؛ فقوله تعالى:{ءَامَنُواْ}؛ أي: اعتقدوا بقرارة قلبهم، وعملوا الصالحات باللسان وبالجوارح؛ باللسان كالنطق بالشهادتين،وبالجوارح كالصلاة والزكاة والحج ونحو ذلك.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم :{اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان} [1]؛ وذلك أن الأعمال بالجوارح إنما يتمكن منها في الحياة أما عند الموت فلا يبقى غير قول القلب وعمله.

وهل الإيمان تصديق القلب وإقراره واعترافه فقط، أو هو شامل للتصديق وملزوماته أو مستلزماته؟

والجواب: الإيمان لغة هو التصديق بالقلب، ولكن معناه في الشرع أوسع من معناه في اللغة؛ وهذا من الغرائب لأن القاعدة المطردة أن المصطلح الشرعي أضيق من المصطلح اللغوي؛ فالطهارة لغة هي النظافة (وهذا عام) أما شرعًا فهي استعمال الماء في أعضاء مخصوصة بنية مخصوصة (وهذا ضيق).

فالإيمان في اللغة لا يشمل الأعمال الظاهرة، أما في الشرع فيشمل ثلاثة أشياء على مذهب أهل السنة والجماعة.

الأول: إعتقاد؛ وهو إقرار القلب بأركان الإيمان ومستلزماته؛ ومن أمثلة أعمال القلوب: الحياء، والخوف، والرجاء، والحب،...

الثاني: القول؛ وهو التلفظ بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله

---

(1) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو كما قالا، تخريج المشكاة 1675.

ومستلزمات ذلك.

الثالث: العمل؛ كأداء الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، وسائر عبادات البدن.

وخالف في ذلك طائفتان؛ الأولى: المرجئة (جهمية، جبرية)؛ فالمرجئة والجهمية والجبرية كلها موصوف لمسمى واحد.

فالجهمية: هم باعتبار صفات الله تعالى؛ أنكروا الصفات وعطلوها.

والجبرية: هم باعتبار أفعال العبد؛ فقالوا: إن الإنسان مجبر على عمله لا يستطيع أن يتخلص منه.

المرجئة: قالوا: إن الإيمان مجرد اعتقاد بالقلب فقط؛ فمن كان عنده اعتقاد تام فهو مؤمن تام الإيمان، وإن زنا وسرق وقتل...... وهذا هو الذي عناهم ابن القيم بقوله:

والناس في الإيمان شيء واحد ::: كالمشط عند تماثل الأسنان

فهؤلاء يقولوا: فاعل الكبيرة مؤمن كامل الإيمان لا يسحق أن يدخل النار ولا يستحق العقاب؛ وهم في هذا يقولون بلسان حالهم: إن الحدود التي شرعها الله تعالى للزاني والقاتل وشارب الخمر والقاذف، ونحو ذلك من العقوبات عبث.

لم؟

لأنه طالما الإنسان مقر بقلبه بأركان الإيمان فهو مؤمن فلماذا هذه العقوبات طالما أن الإنسان مقر؟

وهذا إن دل فإنه يدل على السفاهة؛ قال الله تعالى:{أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ

وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾} [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى:{ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٰخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾} [الزمر: ٩]؛ فهل الذي يحذر الآخرة كمن ليس كذلك، هل يستوي فاعل الصلاة مع تارك الصلاة؟ ساء ما يحكمون.

وهؤلاء نقول لهم: باعتقادكم هذا فإبليس الملعون مؤمن كامل الإيمان، وفرعون عليه لعنة الله تعالى مؤمن كامل الإيمان؛ لأن إبليس وفرعون عندهم اعتقاد كامل في ربوبية الله تعالى.

والذي دعاهم إلى هذا القول أمران؛ الأول: أنهم غلبوا جانب الرجاء على جانب العقوبة، وكان هذا من ضمن تسميتهم بهذا الاسم.

الأمر الثاني: أنهم ألغوا الوصف الموجود في الكتاب والسنة واعتبروا وصفًا مفقودًا لا يوجد في الكتاب ولا يوجد في السنة.

فمثلاً: قال الله تعالى:{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا } [النساء: ٩٣]؛ فقالوا: هذا للكافر؛ فيكون المعنى على معتقدهم{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا } [النساء: ٩٣]، وهو كافر.

وهذا تحريف؛ لأن الله تعالى علق هذه العقوبة على القتل؛ فهم ألغوا هذا الوصف وأتوا بوصف من عندهم مفقود في النص وهو الكفر؛ فهل قال الله تعالى ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا وهو كافر فجزاؤه جهنم...

كذلك قالوا في قوله صلى الله عليه وسلم :{بين الرجل والكفر والشرك ترك الصلاة}؛ قالوا: من جحدها؛ فألغوا الوصف النصي وهو ترك الصلاة، وأتوا بوصف مفقود، وهو الجحود.

ثم نقول لهم: هل لو جحد الصلاة وصلى يكون مسلمًا؟

بالطبع: لا.

وعلى هذا أحبتي في الله عقيدتنا نحن؛ عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بخمس نونات [1]:

الأولى: الإيمان قول باللسان.

الثانية: وعمل بالأركان.

الثالثة: واعتقاد بالجنان.

الرابعة: يزيد بطاعة الرحمن.

الخامسة: ينقص بطاعة الشيطان.

أركان الإيمان؛ أركان الإيمان ستة؛ الأول: الإيمان بالله تعالى.

والإيمان بالله تعالى يتضمن أربع أركان؛ الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته: وهو ما يسميه أهل العلم: توحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية له أركان؛ أولاً: الاعتقاد بأن الله تعالى هو الخالق.

وهذا يتضمن الاعتقاد بأن الله تعالى هو الرازق والمحيي والمميت و...

ثانيًا: الاعتقاد بأن الله تعالى هو المالك.

ثالثًا: الاعتقاد بأن الله تعالى هو المدبر.

الثاني: الإيمان بألوهيته: وهو ما يسميه أهل العلم: توحيد الألوهية.

---

(1) انظر شرح لمعة الاعتقاد، لفضيلة العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الثالث: الإيمان بأسمائه وصفاته: وهو ما يسميه أهل العلم: توحيد الأسماء والصفات.

الثاني من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة.

الثالث: الإيمان بالكتب المنزلة.

الرابع: الإيمان بالرسل.

الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

السادس: الإيمان بالقضاء والقدر.

هذه هي أركان الإيمان على وجه الإجمال؛ والآن هيا بنا أخي طالب العلم نتعرض لها بشيء من التفصيل الغير ممل.

وسوف أشير إلى ركنين فقط بالشرح المبسط حتى تكتمل الفائدة، وأنا اخترت هذين الركنين لأن قصة ملكة سبأ تضمنتهما؛ فالهدد عرف قضية التوحيد (وهو الإيمان بالله تعالى)، والذي عنده علم من الكتاب دعا الله تعالى باسمه الأعظم فاستجاب له فجاءت الملائكة بالعرش، وهذا يجعلنا أن نتكلم عن هذا الركن العظيم (الإيمان بالملائكة) وأرجو ألا تمل؛ فكما قال علماؤنا: العقيدة هي حياة الدين:

أولاً: الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله تعالى يتضمن ما يلي؛ أولاً: الإيمان بوجوده؛ وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى موجود؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

وهناك أدلة كثيرة تدل على وجود الله تعالى ذكر الفخر الرازي رحمه الله تعالى منها ألف دليل، ونحن نذكر منها هنا شيء يسير حتى لا يمل طالب العلم، ولكن قبل أن نعرف الأدلة على وجود الله تعالى

فهناك أربع أسئلة يجب الإجابة عنها:

السؤال الأول: هل هذا الكون وهم وخيال؟

والجواب: بالطبع هذا محال أن يتخيله العقل؛ بل الكون الذي نعيش فيه حقيقة.

السؤال الثاني: هل هذا الكون نشأ وحده من عدم؟

والجواب: بالطبع هذا محال أن يتصوره العقل.

السؤال الثالث: هل هذا الكون أذلي؛ بمعنى ليس لنشأته بداية؟

والجواب: بالطبع هذا محال أن يتصوره العقل.

السؤال الرابع: هل هذا الكون له خالق أبدعه وصوره؟

والجواب: بالطبع نعم فهذا يتصوره العقل ويرضاه.

وبعد هذه الأسئلة والأجوبة عليها نستعرض معًا بعض الأدلة التي تدل على وجود الله عز وجل؛ الدليل الأول: قول الله تعالى على ألسنة رسله:{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} [إبراهيم: ١٠].

الثاني: إجابة موسى عليه السلام على أسئلة فرعون؛ قال الله تعالى في كتابه العزيز:{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾} [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

الثالث: قول إبراهيم خليل الله عليه السلام للنمرود:{رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ} [البقرة: ٢٥٨]، وقوله تعالى:{فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ} [البقرة: ٢٥٨].

الرابع: ما ثبت في الصحيحين عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾} [الطور: ٣٥ - ٣٧]، كاد قلبي أن يطير.

الخامس: استدلال الإمام أبي حنيفة بسير الموجودات وفق تدبير ونظام محكم وأن ذلك لا يمكن حدوثه بدون رب قادر مدبر، وضرب لذلك مثلاً بالسفينة التي تسير دون قائد، وتنقل البضائع، هل يعقل ذلك؟

السادس: إجابة الإمام مالك لمّا سأله الرشيد مستدلاً باختلاف الأصوات والنغمات واللغات.

السابع: استدلال الإمام الشافعي بورق التوت تأكله الدود فيخرج من الحرير وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثاً.

الثامن: استلال الإمام أحمد بخروج الديك من البيضة، وذلك بمقام خروج حيوان ذي سمع وبصر وصوت وشكل حسن من حصن أملس ليس له منفذ، هل يحدث ذلك بلا خالق؟

التاسع: استدلال الأعرابي بالسماء ذات الأبراج والأرض ذات الفجاج والبحار ذات الأمواج وأن دلالة ذلك على الله عز وجل من باب دلالة الأثر على المؤثر، ومثل لذلك بدلالة الأثر على المسير والبعر على البعير.

العاشر: المعجزات التي أيد الله تعالى بها رسله، ولكن قد يقول قائل: نحن ما رأينا هذه المعجزات، نقول له: أمامك معجزة القرآن الكريم الخالدة إلى أن تقوم الساعة، وكذلك الحياة التي تراها أمامك هل يعقل أن لا واجد لها.

ثانيًا: الإيمان بربوبيته؛ أي: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو الخالق المالك المدبر؛ وهو ما يسميه أهل العلم: توحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية له أركان؛ أولاً: الاعتقاد بأن الله تعالى هو الخالق؛ والخلق هو الإيجاد من عدم؛ وهذا يتضمن الاعتقاد بأن الله تعالى هو الرازق والمحيي والمميت، و.......

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى: الله تعالى وحده هو الخالق لا خالق سواه؛ قال الله تعالى{هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر: ٣]، وقال تعالى مبينا بطلان آلهة الكفار{ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧} [النحل: ١٧]؛ فالله تعالى وحده هو الخالق خلق كل شيء فقدره تقديرا وخلقه يشمل ما يقع من مفعولاته وما يقع من مفعولات خلقه أيضا.

ولهذا كان من تمام الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله تعالى خالق لأفعال العباد كما قال الله تعالى{ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]؛ ووجه ذلك أن فعل العبد من صفاته والعبد مخلوق لله وخالق الشيء خالق لصفاته.

ووجه آخر أن فعل العبد حاصل بإرادة جازمة وقدرة تامة والإرادة والقدرة كلتاهما مخلوقتان لله عز وجل وخالق السبب التام خالق للمسبب.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين إفراد الله عز وجل بالخلق مع أن الخلق قد يثبت لغير الله كما يدل عليه قول الله تعالى{فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في المصورين يقال لهم:{أحيوا ما خلقتم ؟}.

قلنا: أن غير الله تعالى لا يخلق كخلق الله؛ فلا يمكنه إيجاد معدوم ولا إحياء ميت وإنما خلق غير الله تعالى يكون بالتغيير وتحويل الشيء من صفة إلى صفة أخرى، وهو مخلوق لله عز وجل؛ فالمصور مثلا إذا صور صورة فإنه لم يحدث شيئا.

غاية ما هنالك أنه حول شيئا إلى شيء كما يحول الطين إلى صورة طير أو صورة جمل وكما يحول بالتلوين الرقعة البيضاء إلى صورة ملونة فالمداد من خلق الله عز وجل والورقة البيضاء من خلق الله عز وجل هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنسبة إلى الله عز وجل وإثبات الخلق بالنسبة إلى المخلوق وعلى هذا يكون الله سبحانه وتعالى منفردا بالخلق الذي يختص به.

ثانيًا: الاعتقاد بأن الله تعالى هو المالك؛ فالله تعالى وحده هو المالك كما قال الله تعالى:{تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١} [الملك: ١]، وقال تعالى:{ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ } [المؤمنون: ٨٨]؛ فالمالك الملك المطلق العام الشامل هو الله سبحانه وتعالى وحده، ونسبة الملك إلى غيره نسبة إضافية فقد أثبت الله عز وجل لغيره الملك كما في قوله تعالى:{أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ} [النور: ٦١]، وقوله{ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ } [المؤمنون: ٦]، لكن هذا الملك ليس كملك الله عز وجل؛ فهو ملك قاصر وملك مقيد؛ ملك قاصر لا يشمل؛ فالبيت الذي لزيد لا يملكه عمرو والبيت الذي

لعمرو لا يملكه زيد ثم هذا الملك مقيد بحيث لا يتصرف الإنسان فيما ملك إلا على الوجه الذي أذن الله فيه ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال وقال الله تبارك وتعالى:{وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا} [النساء: ٥]؛ وهذا دليل على أن ملك الإنسان ملك قاصر وملك مقيد بخلاف ملك الله سبحانه وتعالى فهو ملك عام شامل وملك مطلق يفعل الله سبحانه وتعالى ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثالثًا: الاعتقاد بأن الله تعالى هو المدبر؛ فالله عز وجل منفرد بالتدبير؛ فهو الذي يدبر الخلق يدبر السماوات والأرض كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه:{أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، وهذا التدبير شامل لا يحول دونه شيء ولا يعارضه شيء، والتدبير الذي يكون لبعض المخلوقات كتدبير الإنسان أمواله وغلمانه وخدمه وما أشبه ذلك هو تدبير ضيق محدود ومقيد غير مطلق فظهر بذلك صدق صحة القول بأن توحيد الربوبية: هو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير وعلى هذا لا يستحق الحمد المطلق إلا الله تعالى.

قال علماؤنا أعزهم الله تعالى: فالله سبحانه وتعالى هو المحمود بكل لسان المعبود في كل زمان ولا يشغله شأن عن شأن

قولهم: الحمد لله؛ المراد بالحمد لله ذكر أوصاف المحمود والثناء على الله تعالى بما هو أهله، وآل للاستغراق وللاختصاص.

وقولهم: بكل لسان؛ يشمل لسان الحال، ولسان المقام؛ لسان الحال: فإن الله تعالى يحمده جميع المخلوقات، ولسان المقام: فإن الله تعالى هو المحمود على كل الألسنة.

قال علماؤنا: قول أهل العلم: بكل لسان؛ يدل على أمر مهم؛ وهو أن الله تعالى فطر جميع الخلق على حمده سبحانه وتعالى والاعتراف له بالربوبية.

وقولهم: **المعبود في كل زمان**؛ أي أن الله تعالى له العبودية؛ عبودية عامة شاملة لا يخرج عنها أحد؛ قال الله تعالى{إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾} [مريم: ٩٣]؛ فهو سبحانه وتعالى معبود عند جميع الخلق؛ لأن الله هو خالقهم ورازقهم؛ فهذه العبودية الشاملة لا يخرج منها أحد لا من جن ولا إنس ولا مؤمن ولا كافر ولا بشر ولا ملك ولا شمس ولا أرض ولا بحر ولا هواء؛ فالكل عبيد لله تعالى مسخرون مطيعون فإن الله تعالى هو الذي خلق الخلق، وهو الذي يقدر لهم ما يشاء، وهم خاضعون له؛ فبني آدم في نشأتهم في هذه الأرض وفي حياتهم فيها بل وفي رزقهم وأجلهم وألوانهم وأطوالهم وما يجري داخلهم من حركات الدم والقلب خاضعون لله تعالى؛ فليس للإنسان إرادة في أن يختار كيفية المعيشة.

كما أن الله تعالى له العبودية الخاصة؛ وهي التي يتميز بها المؤمنون عن الكفار؛ فالمؤمنون هم الذين يعبدون الله تعالى على شريعته التي أمر بها على ألسنة الرسل.

والمعني: أنه لا يخلو زمان ولا مكان من وجود من يعبد الله تعالى، وهذا هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:{**لا تزال طائفة من أمتي قائمة علي الحق...**} - الذي لا يخلو من عمله مكان - هذا يدل على شمول علم الله تعالى؛ أي: علم الله تعالى في كل مكان سواء كان ظاهرا أو باطنا؛ قال الله تعالى:{وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي

ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾} [الأنعام: ٥٩].

قولهم: ولا يشغله شأن عن شأن؛ هذا يدل على كمال الله تعالى الكمال المطلق؛ فالمخلوق لا يستطيع أن ينشغل بأكثر من شغله في وقت واحد.

فمثلاً: نجد أن الإنسان يسمع من يكلمه، ولكن لا يسمع من يتكلم في مكان آخر، أما الله سبحانه وتعالى يسمع كل الخلائق في وقت واحد، وقس على هذا.

قال علماؤنا: ولهذا التوحيد نواقض؛ الأول: إنكار الرب بالكلية (والعياذ بالله تعالى) كما يقول أهل الطبيعة.

الثاني: اعتقاد الإنسان أن خلقه أو رزقه أو حياته أو مماته من غير الله تعالى.

الثالث: ما درج عليه الفلاسفة من قولهم بقدم العالم؛ أي: أن هذا العالم لم يوجده الله عز وجلا - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - إنما كان قديما وأنه باق إلى الأبد.

الثاني: الإيمان بألوهيته: وهو ما يسميه أهل العلم: توحيد الألوهية.

وهذا النوع من التوحيد يحتاج منا إلى ذكره بشيء من التفصيل لأن الرسل أرسلت من أجله؛ وسوف نتكلم عنه في النقاط الآتية:

أولاً: معنى التوحيد:

التوحيد لغة: مصدر مأخوذ من قولهم: وحد الشيء يوحده توحيدًا إذا أفرده؛ والمعنى: جعل الشيء واحدًا؛ تقول: وحدت المتكلم؛ إذا جعلته واحدًا، ووحد المسلمون الله؛ أي: جعلوه واحدًا، وضد التوحيد

الشرك؛ والشرك هو اتخاذ الشريك مع الله تعالى في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات، والمقصود هنا النهي عن اتخاذ الشريك مع الله في العبادة والأمر بتوحيده، والشرك يقسم إلى قسمين باعتبار وإلى ثلاثة باعتبار آخر.

فأما الاعتبار الأول فيقسم الشرك إلى نوعين:

الأول: شرك أكبر (التنديد)؛ وهذا مخرج من الملة، وهذا الشرك منه ما هو ظاهر ومنه ما هو باطن خفي؛ فالظاهر من الشرك الأكبر: عباد الأصنام والأوثان وعباد القبور والأموات. والباطن كشرك المتوكلين على غير الله تعالى أو شرك المنافقين؛ فإن شركهم في الباطن.

الثاني: شرك أصغر؛ وهو ما حكم الشارع عليه بكونه شرك وليس فيه ما يلحقه بالشرك الأكبر، وعبر عنه بعض العلماء بقوله: ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر، وهذا الشرك منه ما هو ظاهر ومنه ما هو باطن؛ فالظاهر من الشرك الأصغر كالحلقة والتمائم والحلف بغير الله تعالى، والباطن من هذا الخفي كيسير الرياء.

وبالاعتبار الآخر فيقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: شرك أكبر.

الثاني: شرك أصغر.

الثالث: شرك خفي؛ هو يسير الرياء.

والتوحيد المطلوب يشمل ثلاثة أنواع؛ الأول: توحيد الربوبية؛ والمعنى: توحيد الله تعالى بأفعاله، وقد بينا ذلك.

الثاني: توحيد الألوهية؛ ومعناه: إفراد الله تعالى بالعبادة؛ أي: توحيد

العبد بأفعاله لله تعالى. وكلمة الله؛ قال بعض أهل العلم: إنها مشتق، وبعضهم قال: إنها اسم جامد.

قال علماؤنا: والصحيح أنها اسم مشتق.

ثم اختلفوا في هذا الاشتقاق؛ فقال بعضهم: إنه مشتق من أله يأله فهو مألوه.

وقال بعضهم: إنه من أله يأله فهو آلِه، ومن ثم فسروه بتوحيد الربوبية؛ وبناءً على هذا التفسير وقع خطأ كبير عند كثير من المتكلمين حين فسروا كلمة التوحيد؛ ففسروها بأنها لا خالق إلا الله؛ بناءً على هذا الفهم في الاشتقاق.

والصحيح: أنها من أله يأله فهو مألوه؛ أي معبود، ومن ثم جاء تفسير لا إله إلا الله بمعني: لا معبود بحق إلا الله، وهذا هو التوحيد الصحيح.

قد يقول قائل: قلتم أن توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة. فما معنى العبادة؟

والجواب: فسر علماؤنا العبادة بمعاني كثيرة منها ما يلي:

أولاً: الخضوع والتذلل؛ مأخوذ من قولهم: طريق معبد؛ أي: مذلل؛ ولذلك لما كانت عبادة الإنسان مشتملة علي التذلل لله جلا وعلا سميت بذلك؛ وأشار إلى ذلك القرطبي - رحمه الله تعالى -.

ثانيًا: طاعة الله تعالى بامتثال ما أمر الله به علي ألسنة الرسل.

ثالثًا: هي طاعته بفعل المأمور وترك المحذور.

رابعًا: هي كمال الذل مع كمال الحب؛ فكمال الحب مع كمال الذل لا

يكون إلا لله تعالى وحده لا شريك له؛ فإن الإنسان قد يكتمل حبه لولده ولكن لا يتذلل له، كما أنه قد يتذلل لفرد معين ولكن لا يحبه.

وضابط العبادة في الشرع كما قال شيخ الإسلام في أول رسالة العبودية: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛ فيشمل ذلك كل ما يكون من العبد من القول والفعل والاعتقاد الذي يحبه الله تعالى ويرضاه.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: مدار العبادة على خمسة عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية، وتوضيح ذلك أن الأحكام التي للعبودية خمسة (حلال، حرام، مكروه، مباح، مستحب)؛ وهي لكل واحد من القلب، واللسان، الجوارح.

قال علماؤنا: وتوحيد الألوهية من أعظم أنواع التوحيد؛ لأنه يستلزم من الإنسان أن يجعل محبته وخوفه ورجائه وتوكله (التوكل: هو بذل الجهد في الأسباب ثم تسليم الأمر لله تعالى، وقال أهل العلم: ترك اتخاذ الأسباب معصية، والتوكل على الأسباب شرك؛ وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ قال الله تعالى{وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى : {إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ} [يونس: ٨٤]؛ فجعل التوكل شرطًا للإيمان والإسلام، مما يدل على أهميته؛ فهو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها وأجلها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة. والتوكل على الله سبحانه يكون في جميع الأمور لا في بعض الأحوال؛ وليس معنى التوكل على الله إهمال الأسباب؛ فإن الله أمر بالتوكل وأمر باتخاذ الأسباب، فقال الله عز وجل:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ} [الأنفال: ٦٠]، وقال

الله تعالى :{خُذُواْ حِذْرَكُمْ} [النساء: ٧١]، لكن لا يعتمد على الأسباب في حصول النتائج. وكان النبي ﷺ أعظم المتوكلين، وكان يحمل السلاح، ويلبس الدروع، ويضع المِغْفَرَ على رأسه ﷺ، ولما كان أناس يحجون، ولا يأخذون معهم الزاد، ويصبحون عالة على غيرهم، ويسمون أنفسهم بالمتوكلين؛ أنزل الله تعالى:{وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ} [البقرة: ١٩٧]، ولهذا قيل: الاعتماد على الأسباب شرك، وترك الأسباب قدح في الشريعة، لا تجعلوا توكلكم عجزًا، ولا عجزكم توكلاً، بل إن الجنة لا تحصل إلا بسبب، وهو العمل الصالح . والله أعلم)، **وإنابته لله وحده؛ فلا يستغيث إلا بالله ولا يعتقد أن ينفعه أحد إلا الله أو يضره إلا الله عز وجل فيكون دعائه لله وذبحه لله ونذره لله وحلفه بالله ورغبته في الله ورهبته من الله تعالى.**

وهذا التوحيد هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وقومهم ومن أجل تحقيقه أنزلت الكتب وأرسلت الرسل..... ولذلك الكثير من الناس يقول: لا إله إلا الله، وهو يذبح لغير الله وينذر لغير الله ويستغيث بغير الله ويستجير بغير الله ويطوف على القبر وينذر للغير ويقسم بصاحب القبر وهذا كله ناقض لمعني لا إله إلا الله؛ فمن لوازم لا إله إلا الله أن لا معبود بحق إلا الله؛ فالنذر عبادة والذبح عبادة وكذلك الخوف والتوكل والرجاء عبادة فلا يجوز صرفها لغير الله تعالى؛ قال تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]؛ فقوله تعالى:{لَا شَرِيكَ لَهُۥ}؛ يدل على أن صرف شيء من الذبح لغير الله تعالى شرك وخروج عن توحيد الله جلا وعلا، ولذلك اعتنى العلماء رحمهم الله تعالى بهذا النوع من التوحيد ورهبوا عن نواقضه، وهذا

النوع من التوحيد وقع فيه كثير من الناس.

ومن أخل بهذا التوحيد فهو مشرك كافر وإن أقر بتوحيد الربوبية وبتوحيد الأسماء والصفات؛ فلو أن رجلا من الناس يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق المدبر لجميع الأمور وأنه سبحانه وتعالى المستحق لما يستحقه من الأسماء والصفات لكن يعبد مع الله تعالى غيره لم ينفعه إقراره بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات؛ فلو فرض أن رجلا يقر إقرارا كاملا بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لكن يذهب إلى القبر فيعبد صاحبه أو ينذر له قربانا يتقرب به إليه فإن هذا مشرك كافر خالد في النار قال الله تبارك وتعالى:{ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ } [المائدة: ٧٢].

ومن المعلوم لكل من قرأ كتاب الله عز وجل يجد أن المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم وسبى نساءهم وذريتهم وغنم أرضهم كانوا مقرين بأن الله تعالى وحده هو الرب الخالق لا يشكون في ذلك، ولكن لما كانوا يعبدون معه غيره صاروا بذلك مشركين مباحي الدم والمال.

قال علماؤنا أعزهم الله تعالى: ومن ادعى الألوهية فهو طاغوت؛ فلا بد لكي يسلم العبد من الشرك أو الكفر أن يكفر بالطاغوت أولاً ثم يؤمن بالله تعالى؛ قال عز وجل:{فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ } [البقرة: ٢٥٦].

وقد يقول قائل: وما هو الطاغوت؟

قلنا: الطاغوت؛ مأخوذ من قولهم: طغى الشيء إذا جاوز الحد؛ يقال: طغي السيل إذا زاد ماءه وارتفع؛ كما قال الله تعالى:{إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾} [الحاقة: ١١]؛ أي: زاد الماء وارتفع (وذلك يوم الطوفان)؛ فالمقصود أن الطغيان هو مجاوزة الحد.

وقد اختلفت عبارات السلف والعلماء رحمهم الله تعالى في معنى الطاغوت على أقوال؛ **أولاً: الطاغوت**: هو **الشيطان**، وهذا قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه؛ وذلك لأنه ما عبد شيء من دون الله عز وجل إلا إذا كان للشيطان فيه دَخَل، وما من شيء ينصب للعبادة من دون الله عز وجل إلا وحقيقة هذه العبودية - التي هي لغير الله تعالى - للشيطان كما قال تعالى:{ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾} [النساء: ١١٧]؛ فأخبر الله تبارك وتعالى أن عبادة غيره منصرفة إلى الشيطان؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الطاغوت هو الشيطان؛ لأنه هو في الحقيقة الداعي إلى عبودية العبد لغير الله تعالى.

ثانيًا: الطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله تبارك وتعالى، وهذا قول الإمام مالك - رحمه الله تعالى - وهو تعريف صحيح كما قال العلماء - رحمهم الله تعالى - ولكن يضاف إلى ذلك ورضي بهذه العبادة.

فمثلاً: عيسى وموسى - عليهما السلام - عبدا من دون الله تعالى، ولكن عيسي ليس بطاغوت؛ لأنه لم يرض بهذه العبادة، وكذلك موسى.

ثالثًا: الطاغوت: كهان (الكاهن له صلة بالشياطين؛ فيخبرونه بما يسترقه الشيطان من السمع ويزيد الشيطان على العبارة الواحدة مائة

عبارة فيكذب فيها مائة كذبة حتى تبلغ الآفاق؛ فالكهان يتلقون عن الشياطين ما يسترقونه وما يزيدون عليه) كانت تنزل عليهم الشياطين؛ فالكهان تتلقى من الشياطين وكانت العرب في الجاهلية تعبدهم وتعظمهم من دون الله عز وجل؛ فنهي الله تبارك وتعالى عن ذلك، وهذا قول جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

رابعًا: الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده؛ من متبوع أو معبود أو مطاع، وهذا قول الإمام بن القيم رحمه الله تعالى، وهو تعريف شامل وجامع.

وبالتالي فقوله تعالى:{ٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} [الزمر: ١٧]؛ أي: ابتعدوا عن مجاوزة الحدود في كل شيء سوى الله تعالى؛ سواء كان ذلك الشيء من الأحياء أو من الأموات، سواء كان صالحا أو غير صالح، وسواء كان شجراً أو حجراً أو غير ذلك. وعلى هذا لا يتحقق الإيمان بالله تعالى إلا بالكفر بالطاغوت.

ولذلك قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: اعلم رحمك الله تعالى: أن أول ما فرض الله تعالى على بني آدم؛ الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والدليل قوله عز وجل:{ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} [النحل: ٣٦].

كما قال رحمه الله تعالى: واعلم أن الإنسان لا يصير مؤمنا إلا بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى:{فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦].

فإن قال قائل: ما صفة الكفر بالطاغوت؟

قلنا: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله تعالى وتتركها وتبغضها، وتكفّر

أهلها وتعاديهم.

فإن قال قائل: وما هي الطواغيت؟

قلنا: الطواغيت كثيرة؛ رءوسهم خمسة، وهي؛ الأول: **الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله تعالى**؛ والدليل قوله تعالى:{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠} [يس: ٦٠].

الثاني: **الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى**؛ والدليل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠} [النساء: ٦٠].

الثالث: **الذي حكم بغير ما أنزل الله تعالى**؛ والدليل قوله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} [المائدة: ٤٤].

الرابع: **الذي يدعي علم الغيب من دون الله تعالى**؛ والدليل قوله تعالى:{عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦} [الجن: ٢٦].

الخامس: **الذي يعبد من دون الله تعالى وهو راض بالعبادة**؛ والدليل قوله تعالى:{وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩} [الأنبياء: ٢٩].

قال علماؤنا: ولهذا التوحيد (أي: توحيد الألوهية) نواقض؛ **أولاً:** الاعتقاد بالتشريك؛ كأن يعتقد الإنسان أن مع الله تعالى من ينفع أو يضر وكأن يدعو صاحب قبر مع الله تعالى ويقول آخذه مع الله تعالى زلفا وشفيعا عند الله تعالى كما فعل كفار قريش؛ حيث قال الله تعالى:{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ} [الزمر: ٣]، حينما بعث الله تعالى رسوله بينهم.

ثانيًا أن يكون الإنسان مستغيثًا مستجيراً بالله تعالى ولكن يصرف قلبه لغير الله تعالى على سبيل الرياء وهو الشرك الأصغر الذي أخبر النبي ﷺ أنه في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء في شدة الظلماء على الحجر الأملس.

وهو شرك الرياء؛ كأن يصلي الإنسان لله تعالى وقصده أن يصلي لله ولكن من أجل أن تعتقد صلاته؛ حيث قال تعالى:{فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا} [الكهف: ١١٠]. وعن أبي وائل عن أبي موسى قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة - من أجل أنه شجاع - ويقاتل رياء - ليراه الناس ويثنوا عليه - فأي ذلك في سبيل الله؟ قال:{من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله} [1]؛ أي: أن جميع هذه المقاصد لما دخلت على المقاتل أفسدت عبادته؛ فلو صرف الإنسان شعبة واحدة من قلبه لغير الله تعالى فقد أفسد عبادته لله تعالى، ولذلك قال الله تعالى عن أهل النفاق:{يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢].

فلا يجوز للإنسان أن يصرف في عبادته شيء لغير الله تعالى؛ فإذا صلى وصام وذكر الله تعالى فيكون كل هذا من أجل الله تعالى، فإذا أراد الإنسان أن يكون موحدا حقا فلا يصرف أي شيء من عبادته ولو مثقال ذرة لغير الله تعالى؛ ولذلك أمر النبي ﷺ الأمة من الاستغفار من هذا الشرك، وكان السلف الصالح يحملون في العبادة هم الإخلاص وكان أحدهم يقول: وددت أن عبادتي بيني وبين الله تعالى ولا يراني أحد، وقال بعضهم: ما جهدت نفسي على شيء

(1) أخرجه البخاري (7020).

مجاهدتها على الإخلاص؛ فقبول الأعمال ونفعها في الدنيا والآخرة موقوفة على الإخلاص (وهو أن تفعل كل شيء ولا تريد به إلا وجه الله تعالى).

الثالث: الإيمان بأسمائه وصفاته: وهو ما يسميه أهل العلم: توحيد الأسماء والصفات.

توحيد الأسماء والصفات معناه: اثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه وما أثبته له الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكيف ولا تعطيل ولا تأويل ولا معنى.

وهذا هو الذي عناه الإمام الموفق ابن قدامة في اللمعة بقوله: موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم وعلى لسان نبيه الكريم وكل ما جاء في القرآن أو صح عن المصطفى عليه السلام من صفات الرحمن وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل.

قولهم: الرد:

الرد: هو التكذيب والإنكار؛ كأن يقول قائل: ليس لله تعالى يد لا حقيقة ولا مجازًا، وهو كفر لأنه تكذيب لله تعالى.

قولهم: ولا تأويل:

التأويل: هو صرف النص من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به.

والتأويل يطلق ويراد به معنيين؛ الأول: التفسير؛ فتأويل الآية؛ أي: تفسيرها، وهذا نهج ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى -.

الثاني: الحقيقة التي يؤول إليها الشيء؛ فتأويل الرؤيا؛ أي: حقيقة الرؤيا؛ بمعني: أن حقيقة الرؤيا تحققت من خلال ما جرى.

والتأويل له حالتان؛ الأولى: أن يكون الدليل صحيح، والصارف عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح صحيحا؛ ففي هذه الحالة يكون التأويل صحيح.

مثال توضيحي: قوله صلى الله عليه وسلم :{من سمع النداء ولم يمنعه من اتباعه عذر فلا صلاة له}.

نقول: الأصل في قوله صلى الله عليه وسلم :{فلا صلاة له}؛ أي: لا صلاة صحيحة له؛ هذا هو المعنى الراجح، والمعنى المرجوح في قوله صلى الله عليه وسلم :{فلا صلاة له}؛ أي: لا صلاة كاملة له؛ فإذا أولنا قوله صلى الله عليه وسلم :{فلا صلاة له} من الصحة إلى الكمال كان هذا التأويل صحيح.

لماذا؟

لوجود دليل يقترن بهذا التأويل.

ما هذا الدليل؟

قوله صلى الله عليه وسلم :{صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه سبع وعشرين درجة}؛ ففي هذا الحديث نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر كلتا الصلاتين.

فحملنا قوله صلى الله عليه وسلم :{فلا صلاة له} من لا صلاة صحيحة إلى لا صلاة كاملة؛ إذ لو حملنا قوله صلى الله عليه وسلم :{فلا صلاة له} على أن المراد لا صلاة صحيحة ما اعتبر النبي صلى

الله عليه وسلم صلاة البيت.

وعلى هذا نقول: صرفنا الدليل من المعنى الراجح وهو نفي الصحة إلى المعنى المرجوح وهو نفي الكمال لوجود دليل صحيح يقترن به. وبالتالي نقول: إن هذا التأويل مقبول.

مثال آخر: ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى:{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾} [القلم: ٤٢]، قال:{يُكْشَفُ عَن سَاقٍ }؛ يعني: يكشف عن شدة؛ كما يقال: كشفت الحرب عن ساقها؛ يعني: كشفت الحرب عن شدة وبأس.

وهل هذا التأويل الذي ذهب إليه ابن عباس صحيح؟

والجواب: نعم.

إذن ابن عباس لا يثبت صفة الساق لله تعالى؟

والجواب: أين هذا المدعي؟ لا شك أن هذا خلاف ما يقتضيه العلم؛ فكون هذا القول ثابتًا عن ابن عباس لا يعني أنه ينفي صفة الساق؛ لأن صفة الساق جاءت موضحة في حديث أبي سعيد الخدري؛ حيث قال:**{ثم يكشف ربنا عن ساقه}**؛ فإذا أضيف لم يحتمل إلا الصفة؛ لأن الذوات إذا أضيفت فإما تقتضي الإضافة التشريف أو الصفة، وهذا لا يقتضي التشريف وإنما يقتضي الوصف.

إذن لماذا أول ابن عباس قوله تعالى:{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ } أن الساق هنا بمعنى الشدة؟

والجواب: لأنها لم تأتي مضافة؛ فإذا لم يضف في الآية فصحيح يمكن أن يحمل على ما فسرت به العرب من أنها تقول: كُشف اليوم عن

ساق؛ يعني: عن شدة؛ لأنه في الآية لم ترد مضافة؛ فاحتمل أن يكون المراد الكشف عن الشدة، ولهذا فسر ابن عباس وغيره الآية بهذا [(1)].

الثانية: أن يكون التأويل بغير دليل، وهذا هو الباطل الذي ذهب إليه المنحرفين، وهو الذي قصده الموفق - رحمه الله تعالى -.

قال العلامة محمد بن صالح في اللمعة: والمراد به هنا تفسير نصوص الصفات بغير ما أراد الله تعالى بها ورسوله، وبخلاف ما فسرها الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

فيقول أهل الأهواء: استوى؛ أي: استولى، ويقولوا في قوله عز وجل: {بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]؛ فاليد هي القدرة والنعمة، وفي قوله تعالى:{وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا} [النساء: ١٦٤]؛ قالوا: متكلم دون حرف ولا صوت، ومنهم من نفى صفة الكلام مطلقًا؛ فقالوا في تأويل هذه الآية: خلق له كلامًا في الشجرة فسمعه موسى، بل قالوا: كلمه؛ أي: جرحه بمخالب الحكمة، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :{ما من مكلوم يكلم في سبيل الله...}، وقالوا في قوله تعالى:{وَجَآءَ رَبُّكَ} [الفجر: ٢٢]، وقالوا: عينه عطفه ورحمته؛ كما قالوا في قول الله تعالى:{وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا} [النساء: ١٢٥]؛ أي: من الخِلة، وهي الاحتياج والفقر، وليست من الخُلة التي هي المحبة أو أعلى درجات المحبة؛ فيأتوا على كل صفة ثابتة بتأويل غير مراد لم يدل عليه النص، وإن دل عليها فإنها دلالة ضعيفة جدا، بل إن هذا التأويل مصادم للنصوص الأخرى، ومصادم لمنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

(1) انظر شرح اللمعة لفضيلة الشيخ العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

قال شيخنا أعزه الله تعالى: ولا شك أن هذا أقوال باطلة، ولهذا قال محمد بن حبيب بن أبي حبيب عن أبيه عن جده: شهدت خالد بن عبد الله القسري وقد خطبهم في يوم أضحى بواسط، فقال: ارجعوا أيها الناس فضحوا تقبل الله منكم فإني مضح بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما - سبحانه وتعالى عما يقول الجعد بن درهم - ثم نزل فذبحه، قال أبو رجاء: وكان الجهم أخذ هذا الكلام من الجعد بن درهم.

فلا ينبغي للإنسان نفي الصفة ولا المبالغة في الإثبات؛ فنفي الصفة هو مذهب المعطلة، والمبالغة في الإثبات هو مذهب المشبهة، ومنهج الوسطية - مذهب أهل السنة والجماعة - عدم نفي الصفة وعدم المبالغة في الصفة، وهذا المنهج الذي رضيه الله عز وجل ولا يمكن للإنسان أن يكون موحداً لله تعالى في أسمائه وصفاته إلا بسلوك هذا المنهج.

ولو كان الإنسان يتصور أمرا فلا ينبغي أن يدخل العقل في دليل النقل، فإن النقل يحكم العقل وليس العقل هو الحكم على النقل؛ فإن أهل الضلال سمعوا أوصاف الله تعالى وحكموا العقل عليها، سمعوا من صفات الله تعالى الكيد والمكر فقال تعالى:{وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: ١٦]، وقال تعالى:{وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ } [آل عمران: ٥٤]؛ فقال أهل الضلال: الكيد والمكر صفة نقص؛ فلا يمكن أن تكون لله تعالى، ولكن أهل السنة والجماعة قالوا: نثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه؛ فكيد الله تعالى كمال ومكره كمال، وكما قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - لما كان كيد الله تعالى للمستحق ومكره بمن يستحق كان كمال، ولما كان كيد المخلوق ومكره في غير المستحق كان نقصا فيه، وشتان ما بين

الخالق والمخلوق.

قال علماؤنا: وفتح باب التأويل معناه ترك النصوص لأي أحد أن يعبث به ويقول كما يهوى، وهذا التأويل الباطل الذي قالوه ما دخل إلا لما رأوا المتكلمين من المعتزلة العقلانيين يعبثون بنصوص القرآن والسنة الصحيحة ويتأولونها بغير دليل صحيح.

فالإنسان الموفق هو الذي يثبت صفات الله تعالى دون تعطيل أو تشبيه أو تمثيل وبالتالي فإن نفاة الصفات أدخلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد؛ كجهم بن صفوان - قال: الإيمان مجرد المعرفة فقط - ومن وافقه فإنهم قالوا: اثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة، فإن إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا غاية التعطيل، وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول والإتحاد وهو أقبح من كفر النصارى فإن النصارى خصوه بالمسيح وهؤلاء عموا جميع المخلوقات.

قال علماؤنا: ولا شك أن هذا التأويل مذموم؛ وهو من علامات الزيغ - أعاذنا الله تعالى وإياكم من الزيغ - واستدل الموفق بأن التأويل من علامات الزيغ بقوله تعالى:{فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ} [آل عمران: ٧]؛ **فجعل** ابتغاء التأويل علامة على الزيغ وقرنه بابتغاء الفتنة في الذم ثم حجبهم عما أملوه وقطع أطماعهم عما قصدوه بقوله سبحانه:{وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ} [آل عمران: 7]؛ أي: لا يعلم حقيقة ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة إلا الله تعالى، ولا يعلم حقيقة ما أعد الله تعالى للكافرين في النار إلا الله تعالى.

قال علماؤنا أعزهم الله تعالى: فما قاله الموفق - رحمه الله تعالى - قاعدة كبرى لأهل السنة والجماعة، وأما من يتعرض لأسماء الله تعالى وصفاته بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل فهم أهل الأهواء من المبتدعة وغيرهم.

قولهم: ولا تشبيه، وهو أن يجعل صفة من صفات الله تعالى مشابهة لصفات المخلوقين أو العكس.

وقولهم: ولا تمثيل؛ وهو أن يجعل صفة من صفات الله تعالى مماثلة لصفات المخلوقين أو العكس، والفرق بين التشبيه والتمثيل؛ أن التشبيه إنما يكون في بعض الشيء، أما التمثيل إنما يكون في كل الشيء، أما أهل السنة والجماعة فهم وسط بين أهل التعطيل وبين أهل التشبيه والتمثيل.

ولذلك قال أهل العلم: كل ممثل مكيف ولا عكس.

والأولى أن نقول: ولا تمثيل، ولا نتعرض للتشبيه.

لماذا؟

أولاً: لأن القرآن عبر به؛ قال تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ} [الشورى: ١١]؛ وكل ما عبر به القرآن فهو أولى، ولا أدل على المعنى المراد من القرآن.

ثانيًا: أن التشبيه يعني عند بعض الناس إثبات الصفات؛ ولذلك يسمون أهل السنة المشبهة؛ فإذا قلنا: ولا تشبيه؛ فقد يفهم بعض الناس أن هذا فيه نفي للصفات؛ فكان العدول عنه أولى.

ثالثًا: نفي التشبيه مطلقًا فيه نظر؛ لأن ما من شيئين من الأعيان أو

من الصفات إلا بينهما اشتراك من بعض الوجوه؛ فمثلاً: السمع؛ فيه اشتراك؛ فالإنسان له سمع، والخالق له سمع، لكن بينهما فرق، لكن أصل وجود السمع مشترك.

ولذلك كان التعبير بالتمثيل أولى من التعبير بالتشبيه من ثلاثة أوجه.

قولهم: ولا تكيف؛ فلا نقول مثلاً: كيف ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا؛ بدليل قوله تعالى:{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: ٣٣].

قال العلامة محمد بن صالح: فإذا جاء رجل وقال: إن الله تعالى استوى على العرش؛ على هذه الكيفية، ووصف كيفية معينة، فإننا نقول: هذا قد قال على الله ما لا يعلم؛ لأن الله تعالى لم يخبره بكيفية الاستواء، ولهذا قال بعض السلف: إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء؛ فكيف ينزل؟ فقل له: إن الله تعالى أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل.

كما أن كيفية الشيء لا تدرك إلا بواحدة من أمور ثلاثة:

أولاً: مشاهدته؛ ونحن لم نر الله تعالى.

ثانيًا: **مشاهدة نظيره**؛ والله عز وجل لا نظير له.

ثالثًا: **خبر صادق**؛ فليس أصدق من النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك لم يخبرنا بكيفية النزول.

وقول العلماء: " بدون تكيف ": ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل لها كيفية لكن المنفي علمنا بالكيفية.

وقد يقول قائل: ما تقولون في قوله صلى الله عليه وسلم :{إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته}؛ فهذا النبي صلى الله عليه وسلم أتى بقول كما، وهي تدل على التشبيه، والقاعدة: أنه يجب على المسلم أن يؤمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يؤمن بما جاء به الله تعالى؟

والجواب: أولاً: لا يمكن أن يتعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم مع قول الله تعالى؛ فالذي قال: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر... هو الذي أخبر عن الله تعالى بأنه ليس كمثله شيء.

ويجب على الإنسان في هذه الحالة أن يرد المتشابه إلى المحكم؛ لأن هذا طريقة الراسخين في العلم؛ قال الله عز وجل في كتابه:{ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ } [آل عمران: ٧].

ثانيًا: أن قوله صلى الله عليه وسلم :{إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر}؛ ليس فيه تشبيهًا للمرئي بالمرئي، ولكن تشبيه للرؤية بالرؤية؛ فالكاف في:{كما ترون}؛ داخلة على مصدر مؤول؛ لأن (ما) مصدرية، وتقدير الكلام: كرؤيتكم القمر ليلة البدر، وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي؛ والمراد: أنكم ترونه رؤية واضحة كما ترون القمر ليلة البدر؛ ولهذا أعقبه بقوله:{لا تضامون في رؤيته}.

وقد يقول قائل آخر: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{إن الله خلق آدم

على صورته}؛ والصورة مماثلة للأخرى، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى.

والجواب: أولاً: لا يمكن أن يتعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم مع قول الله تعالى كما بينا سابقًا.

ثانيًا: الذي قال:{إن الله تعالى خلق آدم على صورته} هو الذي قال:{إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر}؛ فهل نعتقد أن هؤلاء يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه أو نعتقد أنهم على صورة البشر لكن من الوضاءة والحسن والجمال واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر، لا من كل وجه؟

فإن قلنا بأنهم على صورة القمر من كل وجه؛ فهذا يلزم أنهم يدخلون بدوم أنف وبدون أرجل وبدون فم ونحو ذلك، وإن قلنا بأنهم على صورة القمر من حيث الوضاءة والحسن والجمال زال الإشكال. كما أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ فقوله صلى الله عليه وسلم :{على صورته}؛ كقوله عز وجل:{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي } [ص: ٧٢]؛ ولا يمكن أن الله تعالى أعطى آدم جزءًا من روحه، بل المراد بالروح التي خلقها الله تعالى، لكن الإضافة هنا من باب التشريف.

وقولهم: لا معنى (هذا قول أحمد وغيره)؛ المراد ولا معنى بالتكيف ولا بالتعطيل ولا بالرد حتى لا يظن بعض أهل العلم أن الإمام أحمد مفوض لصفات الله تعالى؛ فالتفويض عند أهل السنة والجماعة يكون في كيفية الصفة لا في حقيقتها.

قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى في قول النبي صلى الله عليه وسلم :{إن الله ينزل إلى سماء الدنيا} و{وإن الله يرى في

القيامة}،وما أشبه هذه الأحاديث: نؤمن بها ونصدق بها لا كيف (أي: بدون تكيف) ولا معنى (المراد: ولا معنى بالتكيف ولا بالتعطيل ولا بالرد حتى لا يظن بعض أهل العلم أن الإمام أحمد مفوض لصفات الله تعالى؛ فالتفويض عند أهل السنة والجماعة يكون في كيفية الصفة لا في حقيقتها) ولا نرد شيئا منها (كما أنكر الجهمية صفات الله تعالى) ونعلم أن ما جاء به الرسول حق (أي: ثابت) ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولهذا كان أحد الأئمة وهو إسحاق بن راهويه عند أمير خرسان فقرأ عليه أحاديث النزول برواياتها فقال له الأمير: كيف تحدث بهذه الأحاديث؛ فقال له: يا أمير هذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نرويها بها نحلل الحلال ونحرم الحرام ونستحل بها الفروج؛ فإذا رددنا هذا رددنا سنة النبي صلى الله عليه وسلم كلها؛ فما دام الإسناد ثابتًا فنؤمن بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم) ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه (بمعنى: أن الأسماء والصفات توقيفية، وأن ليس كل معنًا صحيح نثبته لله تعالى؛ وهذا ما نجده واضحًا أكثر في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتجد من يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اصنع الخير وأحسن إلى جارك ليلاً أو نهارًا؛ فهذا معنى صحيح ولكن هذا غير منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم، كذلك لا نأتي بصفة من الصفات ولو كان معناها صحيحًا ونثبته لله تعالى؛ فمثلاً: قد يقول قائل الله تعالى هندس هذا الكون بأسلوب رائع؛ فلا نقول: إن من أسماء الله تعالى المهندس، وإن كان هذا المعنى صحيحًا) بلا حد ولا غاية:{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ } [الشورى: ١١].

ونقول كما قال ونصفه بما وصف به نفسه لا نتعدى ذلك ولا يبلغه وصف

الواصـفين (بمعنـى: الله سبحانه وتعـالى هو العظيم وهو ذو الجلال والإكرام؛ فإن الواصفين لـه مهما وصفوه لم يبلغوا وصفه؛ فهو لـه الأسماء الحسنى والصفات العليا، ونحن نعلم بعض هذه الصفات، ولهذا فلا نستطيع أن نصل إلى وصف الله تعالى بكل وصف وبكل اسم ثبت له إلى المبلغ والغاية، ولهذا بلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله أن له أسماء استأثر بها عنده).

نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه صفة من صـفاته لشـناعة شـنعت (أي: لا نـرد صـفة مـن صـفات الله تعـالى مـن أجـل تشـنيع المخالفين؛ فهؤلاء المخالفون قالوا: لو أثبتنا لله تعالى وجه فإننا في هذه الحالة شبهناه بالمخلوقين؛ فيشنع علينا بمثل هذه الشنعات؛ ففي هذه الحالة نثبت لله تعالى ما ثبت حتى ولو شنع علينا أحد ولا نرد أي صفة من صفات الله تعالى؛ فلا يجوز لمن ينتسب لأهل السنة والجماعة أن ينحرف وينزلق من أجل شناعة هؤلاء؛ لأن صفة أهل الضلال والتحريف أنهم يخترعون شانعة جديدة يشنعون بها على الناس).

ولا نتعدى القرآن والحديث ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم **وتثبيت القرآن.**

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: آمنت بـالله وبما جاء عن الله على مراد الله (أي: بما وصف به نفسه من غير زيادة ولا نقصان) **وآمنت برسول الله** صلى الله عليه وسلم **وبما جاء رسول الله على مراد رسول الله** صلى الله عليه وسلم (أي: آمنت برسالته وبنبوته، على ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقص ولا تحريف، وأمنت بكل ما جاء به عن الله تعالى من بعث

وحساب، وثواب وعقاب، وجنة ونار، ونحو ذلك؛ والمعنى: أنني أمنت بهما كما أراد الله تعالى ورسوله).

قال المؤولة: الإمام الشافعي لا يعلم معاني الآيات والأحاديث لأن قوله هذا يعني أنه أحال المعنى على مراد من تكلم، وهذا يدل على أنه لم يفهم المعنى، وهو الإمام الشافعي. وهذا قول كسير؛ فإن قول الإمام الشافعي هذا قول مجمل؛ والمعنى: آمنا بالله تعالى وبما جاء عن الله فيما علمنا وفي ما لم نعلم على مراد الله تعالى.

قال الإمام الموفق ابن الموفق في اللمعة: وعلى هذا (أي ما قاله أحمد والشافعي) **درج السلف** (السلف هو من سبقنا؛ والمعنى: من صار على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه) **وأئمة الخلف** (الخلف هو من لحق السلف؛ أي: من صار على نهج السلف) **كلهم متفقون على الإقرار** (بما وصف الله تعالى به نفسه، وما وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم) **والإمرار** (أي: إمرار الصفة بمعناها، أي: عدم التعرض لها بتحريف ولا بتأويل، وليس معناه التفويض؛ والدليل على ذلك أنه ورد عن السلف مثل هذه العبارة؛ فقد سئل الإمام أحمد عن قوله صلى الله عليه وسلم : والله لا يؤمن، فقال: تمر كما جاءت) **والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله** (تقدم معناه).

وقد يقول قائل: هل صفات الله عز وجل من قبيل المتشابه أو من قبيل المحكم ؟

والجواب: صفات الله سبحانه وتعالى من قبيل المحكم الذي يعلم معناه العلماء ويفسرونه، أما كيفيتها؛ فهي من قبيل المتشابه الذي لا يعلمه

إلا الله.

وهذا كما قال الإمام مالك - رحمه الله تعالى - وقال غيره من الأئمة: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة؛ لا أحمد بن حنبل ولا غيره؛ أنه جعل ذلك من المتشابه؛ ومعنى ذلك أن علماء أهل السنة وأئمتها أجمعوا على أن نصوص الصفات ليست من المتشابه، وإنما ذلك قول المبتدعة والفرق المنحرفة عن منهج السلف. والله أعلم.

فيجب علينا وجوبًا حتميًا أن نؤمن بأسماء الله تعالى؛ وهذا يتضمن الإيمان بما يلي؛ أولاً: الإيمان بهذه الأسماء.

ثانيًا: بمعنى الاسم؛ فنقول: هو قدير؛ أي: ذو قدرة.

ثانيًا: الإيمان بأثر هذا المعنى.

فمثلاً: قد يسمى شخص كريم وهو فعلاً كريم، ولكن كرمه ليس له أثر، أما أثر الله تعالى فواقع، ولذلك نقول عليم؛ أي: وذو علم.

ولذلك يقول أهل العلم: أسماء الله تعالى أوصاف وأعلام.

أوصاف باعتبار دلالتها على الذات؛ فنقول: الرحمن، الرحيم، العليم، كلها أوصاف لله تعالى يتصف بها.

أعلام باعتبار دلالتها على المعاني؛ فنقول: الرحمن؛ أي: ذو رحمة واسعة.

صمد: أي: يلجأ إليه عند الحاجة.

قدوس: أي: ليس فيه عيب.

السلام: الآمان لخلقه؛ أي: يعطي لهم الأمن، أو السالم من العيوب.

المؤمن: أي: الذي يصدق وعده، أو المؤمن عباده من العذاب.

المهيمن: أي: الشديد المتصرف.

العزيز: أي: القاهر الغالب.

الجبار: أي: المنفذ لأوامره؛ فعندما يأمر فأمره لا يرد.

المتكبر: العالي عن صفات خلقه المنفرد بصفات العظمة.

الخالق: أي: الذي يوجد من عدم.

الباريء: أي يخلق ما فيه روح.

المقيت: العارف العالم.

الحسيب: الكافي لخلقه.

المحصي: هو الذي عد وأحاط كل شيء بعلمه؛ فلا يفوته شيء من الأشياء.

البر: المتعطف على عباده ببره ولطفه.

المقسط: العادل في حكمه.

الرشيد: يرشد الخلق إلى مصالحهم.

الصبور: هو الذي لا يتعجل على ظلم عباده.

وأسماء الله تعالى كلها حسنى لا تحصى ولا تعد؛ قال صلى الله عليه وسلم :{أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو علمته أحد من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك....}.

وقد وردت أحاديث تبين اسم الله تعالى الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى؛ فعن ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أبيهِ، سَمِعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً يَقُولُ: اللهُمَّ إنِّي أسْألُكَ بأنِّي أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا أنْتَ الأحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أحَدٌ، فقالَ:**{لَقَدْ سَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْمِهِ الَّذِي إذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى}** (1).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: " أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :**{لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى}** (2).

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:**{ألا أدلكم على اسم الله الأعظم؟}** قالوا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم :**{دعاء يونس:{لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ }}**، فقال رجل: أهذا ليونس خاصة؟ فقال صلى الله عليه وسلم :**{ألم تقرأ قوله تعالى:{ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨}** [الأنبياء: ٨٨]}؛ وهذا يدل على أن هذا الدعاء ليس خاص بيونس عليه السلام، وإذا تأملت أخي الحبيب في هذه الأحاديث تجد أن هناك لفظ مشترك بينها ألا وهو: لا إله إلا أنت؛ فلعل يكون هذا اللفظ هو اسم الله الأعظم. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(1) صحيح: أخرجه أبو داود (1493)، والنسائي في الكبرى (7666).

(2) صحيح: أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة باب الدعاء 167/2، 168 ح1495.

الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة ركن عظيم من أركان الإيمان؛ لأن فيه الإيمان بالغيب؛ والله تعالى وصف المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب؛ قال تعالى: {ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾} [البقرة: ٣]؛ والغيب: هو ما غاب عنا سواء في أمور المستقبل أو ما كان في أمر الواقع (أي: موجود الآن) ولكن لا نراه.

فوجود الملائكة من أمر الغيب؛ وهو ركن من أركان الإيمان، من كفر به كفر بالله تعالى؛ قال تعالى:{ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾} [البقرة: ٢٨٥]؛ وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى بين فيها أن الإيمان بالملائكة من الإيمان الذي يجب أن نصدق به ونؤمن به.

والإيمان بالملائكة: هو التصديق الجازم بأنهم موجودون، وكذلك الإيمان بصفاتهم الواردة في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهناك صفات مشتركة بين الملائكة، وإن كان كل واحد منهم له مهمة خاصة به؛ فمن هذه الصفات المشتركة ما يلي؛ أولاً: أنهم مخلوقون من نور؛ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال عليه الصلاة والسلام:{خلقت الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم} [1].

ثانيًا: أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ قال تعالى:{يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ

(1) صحيح: أخرجه مسلم (ج 4 / 2294).

وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾} [الأنبياء: ٢٠].

ثالثًا: أنهم ليسوا إناثًا؛ قال تعالى:{ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ} [الزخرف: ١٩].

قال علماؤنا [(1)]: قد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أربع مسائل:

الأولى: أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث، زاعمين أنهم بنات الله.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخا شديدا وأنكر عليهم ذلك في قوله:{أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ}؛ يعني: هل حضروا خلق الله تعالى لهم فعاينوهم إناثا؟

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأولى منها وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثا، فقد ذكرها الله تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى:{ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾} [الإسراء: ٤٠]، وكقوله تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾} [النجم: ٢٧]، وقوله تعالى:{ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ } [الصافات: ١٤٩ - ١٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية، وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ

---

(1) فضيلة العلامة محمد الأمين الشنقيطي (أضواء البيان ج 7 / 94، 95).

والتقريع: هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه حتى علموا أنهم خلقوا إناثًا؛ فقد ذكرها في قوله تعالى:{مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾} [الكهف: ٥١].

وأما المسألة الثالثة التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم - فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه، كقوله تعالى:{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾} [الانفطار: ١٠ - ١٢]؛ وقوله تعالى: {هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٩]، وقوله تعالى:{ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف: ٨٠].

وأما المسألة الرابعة: وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه، كقوله تعالى:{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾} [العنكبوت: ١٣].

قال علماؤنا: وفي المقابل لا نقول إنهم ذكور؛ لأن أمور العقيدة لا تؤخذ إلا بالنص؛ فإذا نفى الله تعالى أن الملائكة إناث فليس معنى ذلك أنهم ذكور؛ لأنه لم يأت دليل لنا بذلك؛ فالواجب أن نؤمن بأنهم ليسوا إناثًا كما لا نثبت أنهم ذكور؛ فالأمر في ذلك راجع إلى الله تعالى.

رابعًا: أنهم أولي أجنحة؛ قال تعالى:{ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾} [فاطر: ١]؛ فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربع أجنحة، ومنهم من يزيد على ذلك.

خامسًا: أنهم يطيعون الله تعالى ولا يعصونه أبدًا؛ قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾} [التحريم: ٦].

سادسًا: أنهم يتشكلون؛ فيأتون في صورة رجال حسان؛ فقد جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام في سورة بشر ليبشروه بمولد إسحاق عليه السلام؛ قال تعالى:{هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾} [الذاريات: ٢٤ - ٢٨]؛ فالله عز وجل أعطاهم القدرة على التشكل؛ فهؤلاء الرسل من الملائكة لما دخلوا على إبراهيم عليه السلام ما عرفهم؛ وقد جاءوا يبشرونه بالغلام العليم وهو إسحاق عليه السلام.

قال علماؤنا: يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة:

أولاً: تعجيل القرى (وهو لحم عجل حنيذ؛ أي: منضج بالنار)؛ لقوله:{فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ} [هود: ٦٩].

ثانيًا: كون القرى من أحسن ما عنده ؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحما الفتي السمين المنصح.

ثالثًا: تقريب الطعام إلى الضيف.

رابعًا: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق؛ كقوله:{أَلَا تَأۡكُلُونَ} [الذاريات: ٢٧].

كما جاءوا إلى داود عليه السلام في صورة خصمين؛ قال الله عز وجل: {وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا

تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾}
[ص: ٢١ - ٢٥].

قال النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ها هنا ملكان؛ أي المراد بالخصمان ها هنا الملكان.

وقوله:{تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ}؛ أي: أتوه من أعلى سوره.

سابعًا: فيهم شدة لا يعلمها إلا الله تعالى؛ ففي قصة بلقيس ملكة سبأ {قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠]؛ فهذا الذي كان عنده علم من الكتاب (هو آصف ابن برخيا ابن خالة سليمان)كان يعلم اسم الله تعالى الأعظم؛ فدعا به فسخر الله تعالى له الملائكة فأتت بالعرش في لمح البصر، وهذا يدل على أن الملائكة أقوى من الجن؛ لأن العفريت من الجن قال لسليمان عليه السلام:{أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ} [النمل: ٣٩]؛ أي: مقام سليمان الذي يجلس فيه.

والله سبحانه وتعالى له من الملائكة ما هو به عليم؛ قال صلى الله عليه وسلم :{إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد} [(1)]، وعن

(1) حسن: أخرجه أحمد (ج5 / 173).

حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إذ قال لهم:{**هل تسمعون ما أسمع؟**} قالوا: ما نسمع من شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**أسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد**}[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**ما في السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم**، وذلك قول الملائكة:{وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ} [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦]}[2].

ثامنًا: من صفاتهم أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون؛ قال الله عز وجل:{فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾} [هود: ٧٠].

خصائص الملائكة:

أولاً: منهم الموكل بالوحي؛ وهو جبريل عليه السلام، فهو صاحب الوحي؛ فلا ينزل ملك بالوحي إلا جبريل عليه السلام، وهو الذي يتلقى الأوامر من الله تعالى مباشرة فيأمر بها الملائكة، وهو أفضل الملائكة؛ قال تعالى:{قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾} [البقرة: ٩٧]؛ وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى أنكر على من يعادي

---

(1) صحيح: أخرجه ابن نصر في الصلاة (ابن كثير 4/ 474) والسلسلة الصحيحة (ح1060).

(2) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة "، والسلسلة الصحيحة ح1059 " وابن جرير " 22/ 112 " وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه " الدر المنثور 7/ 135 " وإسناده صالح للمتابعات ويشهد له الذي قبله.

جبريل، وبين في آية أخرى أنه كافر؛ فمحبة جبريل من محبة الله تعالى وبغضه من بغض الله تعالى، ولا شك أن بغض الله تعالى كفر مخرج من الملة الإسلامية بإجماع أهل العلم.

وله أسماء متعددة؛ أولها: الروح الأمين؛ قال الله تعالى: {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾} [الشعراء: ١٩٣]؛ فالمقصود بالروح الأمين هو جبريل عليه السلام.

ثانيها: روح القدس؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾} [البقرة: ٨٧]؛ فقوله تعالى في قصة عيسى: {وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ} [البقرة: ٨٧]، هو جبريل عليه السلام؛ وقال تعالى في قصة مريم: {فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾} [مريم: ١٧]؛ فقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا}؛ أي: جبريل عليه السلام، وهذا من الخلط الذي وقع فيه النصارى؛ فقد ظنوا أن الروح، والروح القدس هي إله أو جزء من الإله؛ فقالوا: الأب، والابن والروح القدوس، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ثالثها: رسول كريم؛ قال تعالى: {إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾} [الحاقة: ٤٠]؛ فالمقصود بالرسول الكريم جبريل عليه السلام.

ولقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم على صورته الحقيقية مرتين؛ الأولى: في صحراء الأبطح؛ قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾} [النجم: ٤ - ٩]؛ فهذه هي الرؤية الأولى له في الأبطح حين

تجلى له على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سد عظيم خلقه الأفق. أما المرة التي جاءه في الغار (غار حراء) فقال أهل العلم: إنه جاءه على صورة بشر على الصحيح؛ ولم يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرة؛ فلما رآه في صحراء الأبطح على صورته الحقيقية أخبره عليه السلام بنفسه؛ فقال له: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

المرة الثانية: عند سدرة المنتهى؛ قال تعالى:{ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾} [النجم: ١٣ - ١٥]. ولم يره النبي صلى الله عليه وسلم في صورته إلا هاتين المرتين، وبقية الأوقات في صورة رجل، وغالبا في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه (1).

وجبريل عليه السلام له صفات متعددة؛ أولاً: أنه ينصر المؤمنين بصفة عامه والنبي صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة؛ قال تعالى:{إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾} [التحريم: ٤].

ثانيًا: أنه أمين؛ قال تعالى:{ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾} [الشعراء: ١٩٣]؛ فإذا أرسل برسالة فهو مؤتمن على هذه الرسالة لا يزيد فيها ولا ينقص.

ثالثًا: من صفاته أنه مكلف بنصرة الأنبياء والمرسلين؛ فقد نزل لنصرة لوط عليه السلام وغيره من الأنبياء.

رابعًا: من صفاته أنه شديد القوى؛ قال تعالى:{عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ} [النجم: ٥]؛ فمن قوته أنه رفع قرية بني سدوم (قوم لوط عليه السلام وكانت سبع

---

(1) قال ابن عمر رضي الله عنه: كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي. رواه أحمد (ج2/ 107) بإسناد صحيح.

مدن) بطرف جناح من ستمائة جناح حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها؛ قال تعالى:{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾} [الحجر: ٧٤].

خامسًا: أنه ذو هيئة حسنة؛ قال تعالى:{ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ} [النجم: ٦]؛ فقوله تعالى:{ذُو مِرَّةٍ}؛ أي: ذو هيئة حسنة.

سادسًا: أنه رئيس الملائكة في القتال؛ وقد ثبت هذا في غزوة بدر؛ قال تعالى:{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾} [الأنفال: ١٢]؛ نزل جبريل عليه السلام ومعه ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان نزوله بمثابة ريح شديدة لم تر من قبل؛ فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو في العريش فقال: أبشر يا أبا بكر هذا جبريل قد أتى على فرس ومعه الملائكة. وقد رآه إبليس اللعين وهو نازل إلى بدر ففر من المعركة، وقال: إني أرى ما لا ترون.

ثانيًا: ومنهم ميكائيل؛ وهو صاحب الأرزاق، وهو ذو مكانة عالية ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه عز وجل، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله تعالى.

وقد جاء في بعض الآثار: ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض، وفي حديث ابن عباس عند الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل:{على أي شيء ميكائيل؟} قال: على النبات والقطر، ولأحمد عن أنس بن مالك

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجبريل عليه السلام:{**ما لي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟**} فقال عليه السلام: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار [1] عياذًا بالله تعالى منها.

ثالثًا: ومنهم إسرافيل؛ وهو صاحب النفخ في الصور (وهو قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل، قال مجاهد كهيئة البوق)؛ ينفخ نفختان؛ **الأولى**: **نفخة الفزع** (وتسمى أيضًا نفخة الصعق)؛ قال تعالى:{ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾} [النمل: ٨٧].

الثانية: **نفخة البعث**؛ قال تعالى:{وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [الزمر: ٦٨]. قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن صاحب البوق اتكأ ينتظر الأمر بالنفخ فإذا نفخ صعق من في السماوات والأرض، ثم إذا نفخ النفخة الأخرى يكون البعث وتحيا الخلائق من جديد.

ولأحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له؟**} قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا:{**حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**} [2].

وهؤلاء الثلاثة من الملائكة هم الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه من صلاة الليل:{**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل**

(1) الحديث فيه إسماعيل بن عياش عن عمارة، وعمارة مدني، وبالتالي فالرواية مطعون فيها من هذا الوجه.

(2) حسن بشواهده: أخرجه أحمد (ج 3 / 7).

فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم} [1].

رابعًا: ومنهم ملك موكل بقبض الأرواح (يسمى ملك الموت)؛ قال تعالى:{قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [السجدة: ١١]، وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة على صورته الحقيقية يوم المعراج، كاد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصعق، وعند قبضه للروح يراه الميت على صورته الحقيقية.

وله أعوان يأتون العبد، إن كان محسنًا ففي أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة، وإن كان مسيئًا ففي أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها في يده بل يضعونها في أكفان وحنوط يليق بها؛ قال الله عز وجل في كتابه العزيز:{فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾} [الواقعة: ٨٣ - ٩٦].

فهذه الأعوان من الملائكة هم الذين يساعدون ملك الموت في مهمته؛ قال الله عز وجل في كتابه العزيز:{وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١]،

---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (ج 1 / 534).

وقال تعالى:{وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢} [النازعات: ١ - ٢].

قال علماؤنا: النازعات: الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين بشدة.

والناشطات: الملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بنشاط ورفق ولين.

خامسًا: ومنهم المعقبات؛ وهم الموكلون بحفظ العبد في حله وارتحاله وفي نومه وفي كل حالاته؛ قال تعالى:{لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١} [الرعد: ١١]، وقال تعالى: {قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢} [الأنبياء: ٤٢]، وقال تعالى:{وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨} [الأنعام: ١٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية الأولى{لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ} [الرعد: ١١]: والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله تعالى خلوا عنه [(1)].

قال مجاهد رحمه الله تعالى: ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه. وقال تعالى:{ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ} [الأنبياء: ٤٢].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي بدل الرحمن، يمتن سبحانه وتعالى بنعمته على عبيده وحفظه لهم بالليل والنهار وكلاءته وحراسته لهم

---

(1) ابن كثير (2/ 522).

بعينه التي لا تنام [1]

سادسًا: ومنهم الكرام الكاتبين؛ وهم الذين يراقبون أعمال العباد، وعندهم القدرة العجيبة على علم ما يقوله الإنسان من شر وخير؛ فيكتبونه ويحصونه؛ قال تعالى:{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾} [الانفطار: ١٠ - ١٢]؛ وقال الله عز وجل:{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾} [الزخرف: ٨٠]، وقال الله تعالى:{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾} [ق: ١٧ - ١٨]؛ فكل ما يقوله العبد ويتلفظ به يكتبونه؛ (أما حديث النفس فإن الله تعالى تجاوز عنه لهذه الأمة) ولذلك قال الله تعالى:{ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾} [الكهف: ٤٩].

وعن علقمة عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله – عز وجل – له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه} فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

سابعًا: ومنهم خزنة جهنم؛ وهم الزبانية (مأخوذ من الذبن، وهو الدفع؛ فهم يدفعون الكفرة وعصاة الموحدين في النار بشدة وغلظة)، وفي صحيح مسلم: يؤتى بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام، كل

---

(1) ابن كثير (ج 3 / 188).

زمام في يد سبعين ألف ملك يجرونها " [1].

وعـــددهم تســـعة عشرـــ، قـال الله عـز وجـل:{وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا} [المدثر: ٢٧ - ٣١].

وقد أعطاهم الله تعالى من الخصائص ما يناسب مهمتهم؛ فهم غلاظ شـداد؛ قـال تعـالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ} [التحريم: ٦].

ورئيسهم مالـك خـازن النـار؛ قـال تعـالى:{وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾} [الزخرف: ٧٧].

قال علماؤنا أعزهم الله تعالى: كل الملائكة ابتسمت للنبي صلى الله عليه وسلم إلا مالك؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: من هذا؟ فقال عليه السلام: هذا مالك خازن النار، ما ابتسم منذ أن خلقت النار.

ثامنًا: ومنهم الموكلون بالنطفة في الرحم؛ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق (لأن الأمر يتعلق بالغيب؛ فناسب أن يقول رضي الله عنه الصادق المصدوق):{أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع كلمات: رزقه، أجله}

---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (ج 4 / 2184).

[1].

وقد جاء:{أن الملك يقول: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ أو توءم؟ ذكر أم أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الرزق؟ ما الأجل؟ فيقضي الله تعالى ما يشاء، فيكتب الملك كما أمره الله عز وجل فلا يغير ولا يبدل} [2].

تاسعًا: ومنهم حملة العرش (الكروبيون)؛ وعددهم ثمانية أجزاء؛ قال الله عز وجل في كتابه العزيز:{وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾} [الحاقة: ١٧]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " [3].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكروبيون ثمانية أجزاء؛ كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة [4]

عاشرًا: ومنهم مَلَائِكَةٌ سَيَّاحُونَ يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ؛ فهم يتجولون في الأرض؛ فإذا وجدوا حلقة فيها علم وذكر لله تعالى تنادوا تعالوا إلى بغيتكم فيجلسون في هذه الحلقة ويحبونها ويتكاثرون عليها؛ قال صلى الله عليه وسلم : وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وذكرهم الله فيمن عِنْدَهُ [5].

(1) أخرجه البخاري (ج 11 / 477) - باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.
(2) أخرجه البخاري (ج 11 / 477) - باب القدر.
(3) صحيح: أخرجه أبو داود (ج 4 / 232) في الرد على الجهمية.
(4) انظر ابن كثير (ج 4 / 442).
(5) صحيح: أخرجه مسلم (ج 4 / 2074).

وفيهم زوار البيت المعمور؛ وهو بيت في السماء السابعة بحيال الكعبة في الأرض لو سقط لوقع عليها، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم؛ يعني: لا تحول نوبتهم لكثرتهم.

ومنهم الموكل بفتنة العبد في القبر (منكر ونكير)، ومنهم ملك للجبال، ومنهم ملك للشمس، ومنهم ملك موكل بالرياح، ومنهم...، وعدد الملائكة لا تحصى ولا تعد، ولكل ملك مهمة؛ فهذا ما ذكرناه على سبيل الاختصار حتى لا نطيل.

ويذكر أهل العلم أن من الإيمان بالله تعالى الإيمان بعالم الجن:

الإيمان بالجن ليس من أركان الإيمان، ولكن ذكر لنا ربنا الجن في كتابه العزيز؛ والإيمان بالكتاب ركن من أركان الإيمان، فيكون الإيمان بالجن داخل ضمن الإيمان بالكتاب، والجن مخلوق من نار؛ قال تعالى: {وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾} [الرحمن: ١٥].

وما عصي الله تعالى أبدًا قبل إبليس، ولذلك يستحق أعظم عقوبة؛ لأنه أول من بدأ المعصية، وهي الكبر، ولذلك قال أهل العلم: الكبر سبب كل المعاصي.

والجن مخلوق قبل الإنسان كما دلت عليه الآية الكريمة؛ قال الله عز وجل:{وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾} [الحجر: ٢٧]؛ وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى بين فيها أمران؛ الأول: أن الجن خلقوا من نار السموم؛ والسموم جزء من سبعين جزء من نار جهنم. الثاني: أن الجن خلقوا قبل الإنسان.

ومن أحكام الجن ما يلي:

أولاً: يتناسلون؛ قال تعالى:{أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا } [الكهف: ٥٠]؛ وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى بين فيها أن للشيطان ذرية.

وعن سلمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فيها باض الشيطان وفرخ}.

قال العلامة محمد الأمين: وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه(1).

قال القرطبي: وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه (2).

ثانيًا: أنهم يأكلون؛ قال صلى الله عليه وسلم :{لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحمًا}.

ثالثًا: فيهم رجال وغير ذلك؛ قال تعالى:{وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦} [الجن: ٦].

رابعًا: أننا لا نراهم؛ قال تعالى:{ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ } [الأعراف: ٢٧]؛ فهذا نص صريح في أننا لا نراهم.

خامسًا: جمهور أهل العلم على أن الجن ليس من جنسهم نبي؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الإنس والجن؛ وقال بعض أهل العلم: يحتمل أن يكون من جنسهم رسل؛ قال تعالى:{يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠} [الأنعام: ١٣٠].

والصحيح: أن الرسل من الإنس؛ قال ابن عباس رضي الله تعالى

(1) أضواء البيان (ج 3 / 293).
(2) التفسير المنير للزحيلي (ج 15 / 276).

عنهما: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي كما قال:{وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩].

سادسًا: منهم المؤمنون ومنهم الكافرون؛ قال الله تعالى:{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)} [الجن: ١٤]، والكفار منهم يطلق عليهم الشياطين، وكلمة الشيطان علم على إبليس، والشيطان هو كل متمرد على الله تعالى سواء كان من الجن أو كان من الإنس؛ قال الله عز وجل:{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)} [الأنعام: ١١٢].

والجن الذي أسلم كان يظن أن ما قاله السفيه إبليس من الكذب على الله تعالى صحيح، ولكن لما عرفوا الحق باستماعهم للقرآن رجعوا عن ذلك؛ قال تعالى:{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤)} [الجن: ٤]؛ أي: حسبنا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبًا؛ فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولدا (وهذا من الغلو في الكفر، وهو معنى قوله تعالى:{شَطَطًا (٤)} حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق.

قال علماؤنا: هذا من قلة عقلهم، قال العلامة ابن القيم: قدرتهم العقلية أقل من الإنس بكثير، حتى إن أعقلهم لا يزيد تفكيره عن تفكير طفل يبلغ عشر سنوات. وهذا من أسباب إيذاءهم للبشر؛ فقلة عقلهم جعلتهم يؤذون البشر بغير سبب.

وكانت الجن تصعد إلى السماء يتلقون ويستمعون ما يلقيه جبريل على الملائكة ثم تحدث به وتكذب حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم امتنعوا عن الصعود والسماع؛ فالجن كان عندهم القدرة أن

يصعد بعضهم على بعض حتى يصلوا إلى السماء؛ فإذا سمعوا شيئًا أخبر الذي فوق من تحته بما سمعه ويزيده كذبًا وهكذا؛ فتصل المعلومة إلى الأرض ومعها مائة كذبة؛ فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أصبح من يقترب إلى السماء احترق بالشهب؛ قال تعالى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾} [الجن: ٩].

سابعًا: عندهم القدرة على التشكيل؛ فقد يتشكلوا في صورة حية أو كلب أسود.

ثامنًا: من أذيتهم الوسواس للبشر؛ فيلقون الوساوس فيهم فيفعلون الشر؛ قال تعالى: { مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾} [الناس: ٤]؛ أي: من شر ذي الوسواس وهو الشيطان، والوسوسة حديث النفس، والخناس؛ أي: يخنس إذا ذكر العبد ربه سبحانه وتعالى.

وقد ذكر الترمذي في نوادر الأصول أن الوسواس الخناس ابن لإبليس اللعين؛ جاء به إلى حواء وقال لها: اكفليه فقطعه آدم أربع أجزاء ووضع كل قطعة على شجرة ثم ناداه إبليس فحيي.. إلى أن ذبحه آدم عليه السلام وشواه وأكله؛ فقال إبليس عليه لعنة الله تعالى: هذا ما أردت أن يكون في جوف ذريتك ليوسوس لهم [1].

رابعًا: من فوائد هذه القصة أنه ينبغي لكل مسلم يؤمن بالله تعالى أن يتحرى من الخبر؛ ووجه ذلك أن سليمان عليه السلام تحرى؛ قال الله تعالى على لسانه: {سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [النمل: ٢٧].

خامسًا: يجب على كل إنسان يخشى الله تعالى ويتقيه ويعلم علم اليقين

---

(1) قال علماؤنا: ولا نظن أن هذا الخبر يصح.

انه ملاقيه ألا يقبل الهدية إذا كان فيها صد عن سبيل الله عز وجل؛ ووجه ذلك أن سليمان عليه السلام لم يقبل الهدية؛ وقال:{قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } [النمل: ٣٦].

سادسًا: يجب على كل من يعرف الحق أن يتبعه؛ ووجه ذلك أن بلقيس ملكة سبا لما علمت أنها كانت على الباطل وعرفت الحق رجعت إليه هي وقومها؛ وهذا هو حال الشرفاء والنبلاء وأصحاب الفضل أنهم إذا علموا الحق اتبعوه.

وأذكر قصة بسيطة يستأنس بها في هذا الشأن (الرجوع إلى الحق).

كان أبو هريرة رضي الله عنه يفتي الناس أن من أصبح وهو جنب وطلع عليه الفجر ولم يغتسل من الجنابة فإنه يُحكم بفساد صومه، وأن عليه القضاء؛ فلما حدث أبو هريرة رضي الله عنه بذلك بلغ خبره إلى مروان بن الحكم - رحمه الله تعالى - فعجب من المسألة؛ فلما دخل عليه عبد الرحمن بن الحارث المخزومي - رحمه الله تعالى - سأله مروان أن يذهب إلى أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها - وأن يسألها هل إذا طلع الفجر على الإنسان وهو جنب ولم يغتسل يُحكم بفساد صومه أولا، فذهب عبد الرحمن إلى أم المؤمنين وسألها فحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل ذلك وأنه كان يطلع عليه الفجر ولم يغتسل من الجنابة، فلما رجع عبد الرحمن إلى مروان وسمع منه الحديث قال مروان لعبد الرحمن: والله لتفزعن بها أبا هريرة، وفي رواية: والله لتَقعرَن بها أبا هريرة، فكره عبد الرحمن ذلك، وقال: إنه جاري وإني أكره ما أكرهه؛ أي: أوجهه بما يكرهه.

فقال له مروان: أقسم بالله لتفعلن، وعزم عليه في ذلك، حتى جاء في بعض الروايات أنه قال له: الآن تذهب إليه؛ فلما تأخر عبد الرحمن قال له مروان: أوليس لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة - وهذا مما يدل على فضل مروان من حرصه على السنة وتبين خطأ من أخطأ وبيان هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يعمل الناس بالقول المرجوح مع وجود القول الصحيح المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فركب عبد الرحمن إلى أبي هريرة رضي الله عنه، وكانت له مزارع بالعقيق وذي الحليفة، فانطلق حتى أتى أبا هريرة، وقال: يا أبا هريرة إن هناك أمرًا كرهت أن أواجهك به ولكن مروان أقسم علي أن أفعل ذلك. ثم حدثه بالحديث عن أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمه - رضي الله تعالى عنهما - فلما ذكر الحديث لأبي هريرة رضي الله عنه قال: هكذا حدثني الفضل؛ أي: هكذا سمعت عن الفضل بن العباس رضي الله عنه مرفوعًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحكم. ثم قال له مباشرة: هل حدثتاك بذلك؟ فقال عبد الرحمن: نعم. فقال له أبو هريرة رضي الله عنه : هن أعلم برسول الله رضي الله عنه، ورجع أبو هريرة رضي الله عنه إلى قول أم المؤمنين عائشة وقول أم المؤمنين أم سلمه - رضي الله تعالى عنهما -.

وفي هذا دليل على فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على السنة وعظيم توفيق الله تعالى لهم؛ فإن من دلائل السعادة والتوفيق انشراح الصدر للحق وحب الحق والحرص عليه، فإذا رأيت الرجل يحب السنة وإذا رأيت الأمة من إماء الله تعالى تحرص على السنة فاعلم أن ذلك من دلائل السعادة وبشائر السعادة. فلما علم

أبو هريرة رضي الله عنه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه كان يفعل ذلك ولم يشدد فيه ولم يَعتبره موجبًا لفساد الصوم رضي بذلك وقال: هن أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله هذا فيه دليل على فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإكرامهم لأهل العلم وإنزالهم لكل ذي منزلة في منزلته.

فهذا أبو هريرة رضي الله عنه الذي كان وعاء من أوعية السنة وديوانًا من دواوين العلم والعمل ومع هذا كله إذا وجد السنة عند غيره لم يستكبر ولم يستنكر من قبولها والعمل بها والإذعان لها، وكذلك كان الصحابة رضى الله عنهم يحفظون لأمهات المؤمنين ما كانوا عليه من العلم بالسنة؛ فكانوا إذا اختلفوا في شيء من السنة من أمور النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة أهله وفي بيته رجعوا إلى أمهات المؤمنين، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نزلت به النازلة أو المسألة في حكم شرعي يتعلق بهدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيته أو مع حبه وأهله وزوجه رجع إلى أمهات المؤمنين كما في قصة الغسل من الإيلاج بدون إنزال.

فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما اختلف الصحابة في هذه المسألة رجع إلى عائشة، وأمر السائل أن يسأل عائشة، فلما حدثته بالسنة قال: من خالف بعد ذلك جعلته نكالاً للعالمين؛ فقال له أبي بن كعب رضي الله عنه : على رسلك يا أمير المؤمنين أنا أخبرك لماذا كان هذا الخلاف؛ كنا في باديء الأمر لا غسل إلا من إنزال ثم بعد ذلك عزم علينا؛ فالواجب على من علم السنة واطلع عليها أن يحرص على العمل، وأن يحرص كذلك على الرجوع إلى من هو أعلم؛ فإن مروان من فقهه وعلمه وبصيرته لما قال أبو هريرة رضي الله

عنه هذه الفتوى سأل من هو أعلم بمثل هذه السنة وهن أمهات المؤمنين - رضي الله تعالى عنهن -.

تمت القصة بعون الله تعالى

***

زوجة زكريا

قصص النساء في القرآن

[11] زوجة زكريا

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى:{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران: ٤٠]، وابنها يحيى، الذي ورد ذكره قي قوله تعالى:{يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ} [مريم: ١٢].

***

موجز القصة:

زوجة نبي الله زكريا على نبينا وعليه السلام زوجة صالحة نص القرآن على صلاحها، هي امرأة عاقر، وزوجها كبير في السن، ومع ذلك لم ييأسا بل عَلما أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فألحت وزوجها بالدعاء لله تعالى.

هي امرأة مباركة وأي بركة، فهي زوجة نبي، وأم نبي، بل قيل: وبنت نبي، وخالة نبي، إنها أم يحيى نبي الله عليه السلام، وزوجة نبي الله زكريا عليه السلام.

قال القتبي: امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران، وقيل: أشياع،وعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة؛ فتكون أيضاً خالة نبي، وقيل: خالة مريم أم عيسى عليهما السلام.

وقد ورد الحديث عنها في أربعة مواضع من القرآن الكريم، في سورة آل عمران بعد ذكر قصة ولادة مريم وكفالة زكريا لها ورزق
الله لها بغير حساب:{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي

ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾} [آل عمران: ٣٨ - ٤٠].

وفي سورة مريم في قوله تعالى:{ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾} [مريم: ٥]، وفي قوله: { قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾} [مريم: ٨].

وفي سورة الأنبياء في قوله تعالى:{وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾} [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

نقول وبالله تعالى التوفيق والسداد: لقد كان نبي الله زكريا فرداً لم يولد له ولد، وكان كفيلاً لمريم عليها السلام، وذلك بعد أن ولدتها أمها وقد نذرت ما في بطنها لله عز وجل:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٣٧]؛ فلما رأى زكريا عليه السلام صلاح مريم وعبادتها وانقطاعها في محرابها وهي الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز الستة عشر سنة، تاقت نفسه للذرية الصالحة، فصلاح الأولاد أعظم كنز للإنسان في حياته، وبعد مماته، أليسوا عمراً ثان لأبيهم، كما روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:{**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**}.

فأخذ زكريا عليه السلام يدعو ربه{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾} [آل عمران: ٣٨]، مع أنه عليه السلام كان كبيرًا في السن، وكانت امرأته عاقرًا، ولكنهما أيقنا يقينًا تامًّا وهما يريان أصناف الأرزاق عند مريم حتى أن فاكهة الصيف تأتيها بالشتاء، وفاكهة الشتاء بالصيف، يرى زكريا عليه السلام ذلك وهو الذي تكفل بإطعامها، فمن الذي يأتي لها بهذا؟! فأيقن أن الله تعالى على كل شي قدير، وأنه لا يرد دعوة الداع إذا دعاه، وأن الله تعالى إذا قال للشيء كن فيكون.

وفعلاً جاءه الفرج من الله القريب سبحانه كما في قوله:{ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾} [آل عمران: ٣٩]، وكما في قوله: {يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾} [مريم: ٧].

ومع ذلك تعجب زكريا عليه السلام فزوجته كانت عاقراً كما قال الله عنه:{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾} [آل عمران: ٤٠ - ٤١]، وكما في قوله:{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾} [مريم: ٨ - ١٠]؛ فكانت امرأته عاقرًا، فأنعم الله تعالى عليها بالحمل، استجابة لدعائهما كما في قوله:{وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ

لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

أيها المؤمنون الموحدون: أتدرون لماذا استجاب الله دعاءهما، أتعلمون لماذا أصلح الله هذه المرأة وجعلها مباركة، ورزقها الذرية رغم عقمها، وكبر سن زوجها؟، لقد أُجيب على هذا في آخر الآية: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)} [الأنبياء: ٩٠]، ثلاثة أسباب للصلاح وللعطاء ولعلاج العقم: المسارعة بالخيرات، والدعاء رغبة ورهبة، وخشوع قلوبهم لله تعالى، فحملت إيشاع بنت عمران زوجة زكريا عليه السلام، فيا من ابتلى بعدم الإنجاب، لا تكن في هم وضيق، فإن الله تعالى عليم خبير، فثق بعلمه وسلم الأمر له، وخذوا بالأسباب من مراجعات واستشارات، ولكن قبل طرق أبواب الأطباء، عليكم بقرع أبواب السماء، افعلوا كما فعل زكريا وزوجه، علما أن الله وحده هو المعطي والمانع، فانطرَحَا يصليان بين يديه،وسارعا بفعل الخيرات إليه، وسألاه بذل وخشوع وانكسار،{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)} [الأنبياء: ٩٠]؛ فقل كما قال زكريا:{رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [الأنبياء: ٨٩]، وسلي أيتها المؤمنة ربك كما سأل زكريا{رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [آل عمران: ٣٨].

فهيا أيها الزوجان احذرا اليأس وألحا على الله بالدعاء، وأعلنا الرضا واليقين، وأنتما ترددان: يا عالماً بكل نجوى، ويا سامعاً لكل شكوى، وثقا بقوله:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } [البقرة: ١٨٦]، فألحا فهو لدعوة المضطر مجيب، فإن لم يحصل لك

بعد ذلك ما تريد، فثق يقيناً أنه أخره أو صرفه لخير أراده لك، فهو علام الغيوب، وأنتم للمستقبل تجهلون ولا تعلمون، فأحسنوا التوكل عليه، وثقوا بأنه لا يقضي للعبد قضاء إلا وله فيه خير، ولكنكم قوم تستعجلون، هذه حقيقة التوحيد ومعناه، بأن الأمر له وحده سبحانه، {لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

فتأمل! جعل الله عز وجل الناس أربعة أقسام:

الأول: منهم من يعطيه البنات.

الثاني: ومنهم من يعطيه البنين.

الثالث: ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا.

الرابع: ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له.

وقال بعض أهل العلم - رحمهم الله تعالى -: هذا أيضاً في الأنبياء عليهم السلام{يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا} [الشورى: ٤٩]؛ يعني: لوطا عليه السلام لم يولد له ذكر، إنما ولد له ابنتان.{وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ} [الشورى: ٤٩]؛ يعني: إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى.{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا} [الشورى: ٥٠]؛ يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم ولد له بنون وبنات. {وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا} [الشورى: ٥٠]؛ يعني: يحيى وعيسى عليهما السلام لم يولد لهما.

وهذا على وجه التمثيل، وإلا فالآية عامة في حق كافة الناس،

{إِنَّهُۥ عَلِيمٌ} [الشورى: ٥٠]؛ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام،{قَدِيرٌ}؛ أي: على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك.

وكل شيء بيد الله تعالى فهو مغير الأحوال، وما بين غمضة عين وانتباهها يغير الله من حال إلى حال، فلا تحزن أخي، ولا تحزني أنتِ إن حصل تأخر في الذرية، فهذا ابتلاء، ودفعه يكون بالتوبة وكثرة الاستغفار والمسارعة في الخيرات والعمل الصالح، مع خشوع القلب وتسليمه لله وقضائه، والصبر على ذلك.

قال الإمام الآلوسي - رحمه الله تعالى -: الله تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الإنسان بهواه، وفيه إشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها، وإصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليها؛ فالله تعالى له التصرّف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لذلك نقول بعد كل صلاة: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. فهل نعقل ما نردد ونقول؟

وفي قوله:{يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا} [الشورى: ٤٩]؛ قيل: من يُمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ هنا بالإناث، وعن بعض العرب: أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا ::: يَظَلّ فِي الْبَيْتِ الّذِي يَلِينَا
غَضْبَانُ أَنْ لاَ نَلِدَ الْبَنِينَا ::: تالله ما ذلك في أيدينا
لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَا ::: وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا
نحن كالأرض للزارعينا ::: و... ننبت ما قد زرعوه فينا

وفى الحديث الذي رواه البخاري:{مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ}؛ فما أروع البناتِ بعد هذا الحديث، والله تعالى صاحب القدرة التامة، والإرادة النافذة، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. ثم تدبروا قوله:{إِنَّهُمْ كَانُوا} [الأنبياء: ٩٠]؛ لم يقل: إنه كان، يريد نبيَّ الله زكريا وامرأته، وهنا تظهر أهمية التعاون على الحق والخير، وتظهر أهمية اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة، لأنهما سيكونان رفيقا العمر، وسيكونان جليسا بعضهما مدى الحياة، فإذا كانا صالحين سعد كل منهما وأسعد الآخر، أما إن كانا غير ذلك شقي كل منهما وأشقى معه الآخر.

فهذا نبي الله زكريا عليه وعلى نبينا السلام يأخذ بيد امرأته ويشجعها لكي:{يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]؛ فمن صحب الصالحين ورافقهم سعد بهم، فكيف إذا كانت هذه الصحبة زواجاً وشراكة حياة بأكملها، والزوجة الصالحة من حسنة الدنيا لأن الله تعالى ذكر ذلك في القصة على سبيل الامتنان على زكريا عليه السلام مما وهبه الله له في الدنيا، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم :{الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة}.

ما يؤخذ من القصة:

موافقة إشياع بنت عمران لزوجها زكريا وطاعتها له على الخير، وربما أن هذا التعاون بينهما سبب لاستجابة دعوتهما في طلب الذرية والولد، وأيضاً تدبر قوله:{فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ}، ولم يقل: " إلى الخيرات " مما يؤكد أن الخير أصل فيهم، ومع ذلك تميزوا بمسارعتهم ومسابقتهم إليه، فيتضح هنا أهمية وأثر المسارعة في

الخيرات، فإذا فُتح لك بابُ خيرٍ فسارع ولا تتردد، بل أسرع وأشرك معك من تحب من أهلك وإخوانك، فربما أُغلق هذا الباب دونك بسبب تمنعك وترددك في سرعة ولوجه، فاحذر نفسك الضعيفة وحيل الشيطان ولا تتردد، وتأمل قول الحق: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: ٢٤]، فهيا أقبل قبل أن يحول الله بينك وبين قلبك، فتُمنع خيراً كثيراً كان قد فتح لك، فإن استطعت فلا تترك بابًا من أبواب الخير إلا ولك فيه سهم وإن قل، ثم بعدها ادع الله بما شئت خوفاً وطمعاً، وكن مخلصاً خاشعًا، وسترى عجباً،{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾} [الواقعة: ١٠ - ١١].

تمت القصة بفضل الله تعالى

* * *

مريم عليها السلام

وقد ورد ذكرها في مواطن منها قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }
[آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

* * *

موجز القصة:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها، وهو ثلاث وثمانون آية؛ منها في الرد على النصارى عليهم لعائن الله تعالى الذين زعموا أن لله تعالى ولدًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم، ويدعون بزعمهم أن الله تعالى ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم.

فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله، خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له كن فكان.

وبين أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وبسط ذلك في سورة مريم؛ فقال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾} [آل عمران: ٣٣ - ٣٧].

يذكر الله تعالى أنه اصطفي آدم عليه السلام والخلص من ذريته، المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص وقال:{وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ}؛ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق.

ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب؛ وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا ولد مريم عليها السلام، وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن آمون بن منسا بن حزقيا بن أخريق بن موثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يازم بن يهفشاط بن أيشا بن أيان بن رحبعام بن سبيمان بن داود.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أم مريم كانت لا تحبل، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له، فاشتهت الولد؛ فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا؛ أي: حبيسًا في خدمة بيت المقدس.

قالوا: فحاضت من فورها؛ فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ } [آل عمران: ٣٦]؛{وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ}؛ أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خدامًا من

أولادهم.

ولما وضعت أم مريم عليها السلام مريم لفتها في خرقة ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها.

وقد تكفلها زكريا عليه السلام، واتخذ لها مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها؛ فكانت تعبد الله فيه، ونقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها، يجد عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه؛ فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها:{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} [آل عمران: ٣٧]. فتقول:{هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ}
[آل عمران: ٣٧]؛ أي: رزق رزقنيه الله تعالى{إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٣٧].

{وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ} [آل عمران: ٤٢]؛ أي: اذكر وقت قول الملائكة؛ أي: جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصَّكِ بالكرامات{وَطَهَّرَكِ} من الأدناس والأقذار ومما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة{وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ} [آل عمران: ٤٢]؛ أي: اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب.

{يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ} [آل عمران: ٤٣]؛ أي: الزمي عبادته وطاعته

شكراً على اصطفائه{وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ } [آل عمران: ٤٣]؛ أي: صلي لله تعالى مع المصلين{ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ } [آل عمران: ٤٤]؛ أي: هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا ويحيى إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل {وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ } [آل عمران: ٤٤]؛ أي: ما كنت عندهم إذا يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته{وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ } [آل عمران: ٤٤]؛ أي: يتنازعون فيمن يكفلها منهم، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير.

{ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ } [آل عمران: ٤٥ - ٥١].

{ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ } [آل عمران: ٤٥]؛ أي: بمولودٍ يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب{ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ

مَرْيَمَ} [آل عمران: ٤٥]؛ أي: اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبَه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب{وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ} [آل عمران: ٤٥]؛ أي: سيداً ومعظماً فيهما{وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ} [آل عمران: ٤٥]، عند الله تعالى: {وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا} [آل عمران: ٤٦]؛ أي: طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً.

قال الزمخشري: " ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة "؛ ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز{وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ} [آل عمران: ٤٦]؛ أي: وهو من الكاملين في التقى والصلاح.

جاء في مسند أحمد والصحيحين، وجامع الأصول (ج 10 / 310) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:{لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج، وينما صبي يرضع من أمه...}.

فنص هذا الحديث الشريف على أن الذين تكلموا في المهد هم:

الأول: عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى في كتابه:{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾} [مريم: ٢٩ - ٣٠].

الثاني: صاحب جريرج؛ وجريج عابد، ولكنه ليس بفقيه فعرض نفسه إلى محنة في هذه الحياة ولطف الله تعالى به، وكان جريج رجلاً عابدًا فأخذ صومعة يتعبد فيها فجاءته أمه ونادت عليه وقالت: يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي؟ فأقبل على صلاته ثم نادت عليه مرة ثانية في الغد ففعل كما فعل في المرة الأولى ثم نادت عليه الثلاثة في بعد غد ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى والثانية فقالت:

اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المياميس كما جاء ذلك صريحًا في البخاري (والمياميس: الزانيات).

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها (أي: تفتن الناس) فقالت: إن شئتم لأفتننه؛ فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعي كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت منه فلما ولدت قالت: هو من جريج؛ فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وضربوه، فقال: ما شانكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي فاتوا به، ثم قال: دعوني أصلي وبعد أن انتهى طعن الصبي في بطنه وقال له: يا غلام من أبوك قال: فلان الراعي، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به (تبركًا) وقالوا: نبني صومعتك من ذهب قال: لا، أعيدوها من لبن كما كانت ففعلوا.

الثالث: وبينا صبي يرضع من أمه؛ فمر رجلاً راكبًا على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا (هذا هو حال من يريدون الآخرة) فترك الثدي وأقبل إليه (أي: الراكب) فنظر إليه وقال: اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل إلى ثدي أمه يرضع (قال أبو هريرة رضي الله عنه : كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه يضع السبابة في فمه) ثم مرت الأم ومعها رضيعها بجارية وهم يضربونها ويقولون لها: زنيت سرقت وهي تقول حسبنا الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها؛ فترك الثدي وأقبل إلى الجارية ونظر إليها وقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت أمه: حمقى؛ فقال: إن ذلك الرجل كان جبارًا، وان هذه يقولون لها: زنيت، سرقت، وهي لم تزن ولم تسرق.

قال علماؤنا: وهناك أصناف آخرين تكلموا في المهد غير هؤلاء الثلاثة.

فقد ثبت في مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم والحديث صححه واقره عليه الذهبي وراوه البزار في المسند عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما كانت ليلة أسري بي أتيت على رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ما شطةِ ابنةِ فرعون؛ فقال صلى الله عليه وسلم : وما حالها؟

فقال جبريل: كانت تسرح لبنت فرعون فوقع المشط، فقالت: باسم الله؛ فقالت بنت فرعون: أتقصدين أبي؟ فقالت: لا، وإنما ربي وربك ورب أبيك الله، قالت: أخبر ولدي بذلك؟ قالت لها: أخبريه؛ فأخبرته فدعاها، وقال لها: وهل لك ربي غيري؟ قالت: نعم ربي وربك ورب كل شيء هو الله، فتهددها إن لم ترجع عن ذلك ليقتلها، فقالت: افعل ما بدا لك، فجمعها هي وأولادها وحمى بقرة من نحاس (وتطلق أيضا نقرة) ثم أتى بأولادها يلقيهم واحد تلو الآخر؛ فكل واحد كان يقع في هذا القدر المحمى مات فورًا ثم ما بقيت إلا هي وصبي لها ترضعه، فلما قربت هي وابنها من هذه البقرة كأنها تقاسعت من أجل الشفقة على ولدها، فقال لها هذا الغلام: يا أماه إنك على الحق فاصبري؛ فهذه الرائحة الطيبة هي رائحة ما شطة بنت فرعون وابنها رحمها الله تعالى برحمته الواسعة.

جاء في المستدرك (ج 8 / 595) بسند صحيح على شرط الشيخين عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{تكلم في المهد أربعة؛ عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف،

وصاحب جريج، وابن ماشطة ابنة فرعون} رواه الحاكم.

قال الحافظ رحمه الله تعالى في الفتح: اجتمع من هذين الحديثين أن الذين تكلموا في المهد خمسة، وكذلك قال بذلك الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج 6 / 136).

جاء في صحيح مسلم عن سهيل الرومي في قصة الملك الذي كان عنده ساحر، والخلاصة أن هذا الملك لما آمن الناس بالله تعالى حفر لهم أخاديد وأشعل فيها النار، فكل من لم يرجع عن دين الله تعالى كان يلقيه في هذا الأخدود، ومن جملة هؤلاء امرأة وكان معها صبيها فتقاسعت فقال لها ابنها: قعي ولا تقاسعي فإنك على الحق.

السابع: قيل إنه نبي الله تعالى يحيى؛ روى هنا الثعلبي في تفسيره كما في فتح الباري (6 / 480) عن الضحاك.

الثامن: وأشار البغوي في تفسير السنة أن الذي تكلم في المهد هو إبراهيم عليه السلام.

التاسع: روى الواقدي في المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم في المهد عند ولادته.

العاشر: مبارك اليمامة ولا يعلم باسمه، لما شهد النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة في حجة الوداع روى عنه البيهقي في دلائل النبوة (ج 6 / 60)، والخطيب في الفقيه وابن قانه في الإصابة (ج 3 / 454) عن معوض بن معيقل اليماني قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو في مكة المكرمة فرأيت وجهه يبرق سرورًا أبيضًا من القمر فدخل رجل من أهل اليمامة عنده ولد صغير لفه في خرقة أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إليه

النبي صلى الله عليه وسلم وقال له:{يا غلام من أنا؟}قال: أنت محمد رسول الله، فسمي بمبارك اليمامة.

قال ابن كثير في البداية والنهاية (ج 6 / 185) معلقًا على هذا الأثر هذا حديث غريب جدًا، وليس هذا مما ينكر عقلاً ولا شرعًا؛ فقد ثبت في الصحيح قصة صاحب جريج.

قال علماؤنا حفظهم الله تعالى: الثلاثة الذين ذكروا في الحديث لهم ميزه على الآخرين أو أن هؤلاء (الذين ذكروا أنهم تكلموا في المهد غير الثلاثة) من جملة من تكلموا. والله تعالى أعلم. نرجع إلى القصة:{قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} [آل عمران: ٤٧]؛ أي: كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟{قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: ٤٧]؛ أي: هكذا أمر الله تعالى عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب{إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٧]؛ أي: إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخرٍ ولا حاجةٍ إلى سبب، يقول له كن فيكون{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ}؛ أي: لكتابة{وَالْحِكْمَةَ}؛ أي: السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء {وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ}؛ أي: ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل، قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا.

{وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: بأني قد جئتكم بعلامةٍ تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآيةٌ صدقي{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير{فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أنفخ في تلك الصورة

فتصبح طيراً بإذن الله.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكذلك كان يفعل، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله، وهذه المعجزة الأولى{وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية{وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عاذر، وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره، وكرر لفظ " بإذن الله " دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة.

{وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكّون فيها؛ فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته، وهذه هي المعجزة الرابعة{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله تعالى، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى عليه السلام، فقال: {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ} [آل عمران: ٥٠]؛ أي: وجئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة{وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: ٥٠]؛ أي: ولأحلّ لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح.

{وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ٥٠]؛ أي: جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [آل عمران: ٥٠]؛ أي: خافوا الله وأطيعوا أمري{ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [آل عمران: ٥١]؛ أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له جلَّ وعلا{هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [آل عمران: ٥١]؛ أي: فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

استطراد إلى قصة مريم وتبيين أن مقامها عند هز الجذع ليس أقل من مقامها في الغرفة:

قال علماؤنا: وهنا نكتة شريفة يجب الاعتبار بها في قصة مريم عليها السلام عند هز الجذع، وهي معضودة بقصة أيوب عليه السلام في بركة ركضه وبركات بعض الأنبياء فيما لمسوه وركضوه وضربوه؛ وذلك أن معظم أهل الإشارة رحمهم الله أصفقوا على أن مريم عليها السلام كان مقامها في الغرفة أعلى مما كان عند النخلة؛ واستدلوا على ذلك بما جاء في الخبر عن الرزق الذي كان يجد عندها زكريا عليه السلام إذا كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء فكان يأتيها بلا سبب، فلما نظرت إلى عيسى عليه السلام حين ولدته أحبته فأمرت بالكسب في هز النخلة لكونها رجعت من جمع إلى تفريق.

وقالوا في هذا وأطنبوا وأنشدوا الأبيات المشهورة على قافية الباء إلى غير ذلك وهذه رحمهم الله وهلة منهم وغفلة عن الأولى والأحرى في حق تلك الصديقة، وأول ما يعترض به عليهم أن يقال لهم من أين يحكمون عليها أنها لما رأت الولد تفرقت بميل قلبها إليه.

وهذا لا يصح إلا بتوقيف والتوقيف في ذلك معدوم وبمن تردون على من يدعي نقيض دعواكم، ويبرهن عن ذلك أن مريم عليها السلام ما كانت قط في مقام هو أعلى من مقامها في تلك الأزمة على تلك الحالة وعلى قدر الأزمات يأتي الفرج وذلك أنها قبضت في ذلك المقام من سبعة أوجه.

أولا: أن خاطبها الملك على ضعفها وصغر سنها ووحدتها في الفلاة وهذا أمر لا يتخيل ما يكون فيه إلا من دهمه.

ثانيًا: أنه كان أول خطاب خوطبت به، وقد جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خاطبه الملك في أول مرة كاد أن يتردى من حالق الجبل خيفة من فجأة الملك وفجأة الخطاب، وكان عليه السلام في ثاني حال يأتيه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصد عرقا هيبة من فجأة الوحي وإعظاما للملك.

ثالثًا: أنه أخبرها بأنها تلد من غير فحل، وهذا مما يعظم سماعه لكونه غير معتاد لا سيما لمثلها.

رابعًا: طريان المخاض عليها وآلامه التي توازي آلام الموت لا سيما أول مخاض.

خامسًا: وهو أشد عليها من كل ما وقع؛ وهو ما يصمها الناس به من الملامة والأذية وإقامة الحد عليها وهي بريئة.

سادسًا: وهو أشد عليها من أذيتها وهو ما يلحق قومها من الناس إذا قذفوها فإنها صديقة بشاهد القرآن والصديق أشفق على خلق الله مما هو على نفسه.

سابعًا: فيما يكون عذرها إذا اعترضت وأنكر عليها ما جاءت به.

فهذه سبع قوابض لو سلط أحدها على جبل لتصدع، ويكفيك قولها عند ذلك يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا؛ فأي مقام فوق مقام من ابتلي بمثل هذه المعضلات دفعة واحدة فصبر وشكر، ويعضد ما قلناه في علو مقامها في ذلك الحال قوله تعالى{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)} [آل عمران: ٣٧].

وذلك أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها تلك الفواكه المذكورة في غير أوانها فيقول أنى لك هذا يعني بأي عمل بلغت هذا المقام كان عليه السلام يستعظم ذلك المقام في حقها لغرارتها وضعفها، فتقول هي: هو من عند الله؛ أي ليس ذلك مقاما بلغته بكبير عمل، وإنما هو من فضل الله تعالى؛ فكأن ما تشير إليه أنتم عظماء لكم المقامات والأحوال وأنا ضئيلة ضعيفة فأنتم ترزقون بسبب وأنا بغير سبب؛ ففي قول زكريا عليه السلام{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} دليل على ضعف مقامها في الغرفة؛ فإن المقامات عند القوم مرتبطة بعلوم مخصوصة وأعمال مخصوصة، وكذلك الأحوال والكرامات أيضا هبة من الله تعالى لهم على قدر مقاماتهم؛ فلما كان ذلك غاية قبضها وعلاء مقامها في القبض بسطت من سبعة أوجه:

أولا: أن كلمها الوليد؛ قال تعالى:{فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)} [مريم: ٢٤]، قرئ بفتح الميم؛ فقال قوم: ناداها الملك من مكان منخفض عنهما، وقال آخرون: ناداها الوليد وهو الأظهر لوجهين:

الأول: أن تحت في حق الوليد أمت.

الثـاني: أن تكلـيم الوليـد آنـس فـي الخطـاب مـن كـلام الملـك علـى ما تقدم.

ثانيًا: أن كلمها وليدها ولم يكلمها وليد غيرها؛ لأن تكليم ولدها من بركات أحوالها

ثالثًـا: أن كلمهـا فـي الحـين فـإن فيـه تنفـيس خنـاق قبضـها بسـرعة البشارة.

رابعًا: أن كلمها بالبشارة ألا تحزني.

خامسًا: أن أخبرها أنـه سري؛ أي: رفيع القدر عند الله تعالى، وما يحب أحد أن يكون غيره أحسن منه إلا ولده.

سادسًا: أنه لما كلمها الوليد استبشرت بأنـه سيقيم حجتها عند قومها كالذي فعل.

سابعًا: وهي البشارة العظمـى التـي تثبت أن مقامها عند الجذع كان أعلى من مقامهـا فـي الغرفـة وهو قولـه تعـالى لهـا:{وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾} [مريم: ٢٥]، وتتصـور الكرامـة فـي هزها من أحد عشر وجها:

الأول: أنه نبهها على بركة يدها بأن تمس الشيء فيظهر عليه بركة ذلك المس كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها، وكما قيل:

لو مس عودا سلوبا لاكتسى ورقا ::: ولو دعـا ميتـا في القـبر لبـاه

الثاني: أن الملموس كان جذعا، والجذع في اللسان هو ساق النخلة إذا جز رأسها، يقول العرب: على كم جذع بيتك مبني، وجاء في الخبر فحن الجذع إليه وكانت أسطوانة في المسجد النبوي؛ وقال تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ} [طه: ٧١]، ولا يكون الصلب إلا في الخشب؛ فصح أن ساق النخلة إنما يسمى جذعا إذا جز رأسه، وإذا جز رأس النخلة يبست فلا تلقح ولا تورق بعد فلما لمسته اخضر في الحين.

الثالث: أن نبتت فيها أغصان وورق ورؤوس النخل إذا قطعت لا تخلف.

الرابع: أن أثمرت في الحين والنخل لا تثمر إلا بعد ريح في أيام كثيرة.

الخامس: أن صارت رطبا في الحين.

السادس: قوله{جَنِيًّا }؛ أي: حان قطافها فصلحت للجني، فإنها قد تسمى رطبا في أول نضجها قبل أن تصلح للجني على جهة المجاز، وهنا لطيفة وهي أن الله تعالى آنسها بأن أراها مثلا بالجذع اليابس حين اخضر من غير سقي وبعد يبسه اخضر وأثمر في الحين كما ولد عيسى عليه السلام من غير فحل وتكلم في الحين وتم خلقه دفعة وولد في الحين فتلك بتلك.

السابع: أن هزتها فتساقطت ومعلوم أن هز مثلها على ما هي عليه من ضعفها ونفاسها لسوق النخل لا يسقط الرطب، فإن كان أعطيت في الحين قوة تهز بها النخل فتسقط رطبها فخرق كبير وإن تساقطت الرطب للمسها إياها فخرق آخر أكبر منه.

الثامن: قوله تعالى:{فَكُلِي وَٱشۡرَبِي} فيه بشارة بسرعة الخلاص من ألمها؛ فإن النفساء لا تأكل ولا تشرب إلا بعد مدة لشغلها بألمها.

التاسع: أنه بشرها بحصول الطعام والشراب عندها؛ لأنها كانت بأرض فلاة فإن الناس يخافون عدمهما في الفلوات.

العاشر: قوله لها:{وَقَرِّي عَيۡنٗا} فعلمت بكلامه الخارق أنه لا يكذبها فأنست.

الحادي عشر: أنه علمها كيف تجيب إذا سألها قومها في قوله لها: {فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا} [مريم: ٢٦]، ألا ترى إلى طمأنينتها إلى مبارأة ولدها كيف أتت به قومها تحمله ظاهرا لهم وقد كادت تفر به إلى بلد آخر أو تخفيه ما استطاعت فلا يشعر به قومها فلما طابت نفسها به في إقامة حجتها عند قومها أتتهم به تحمله ظاهرا لهم.

فهذه رحمك الله سبعة أحوال ثوبها ربها عليها بثمانية عشر حالا سبعة منها قبل الهز وأحد عشر بعده كلها تتضمن من البسط والأنس والكرامات ما يدل على رفعة شأنها وعزة مكانها عند ربها فكيف تبخس هذه الصديقة في حقها وتحط عن مقامها في الهز، ويعضد ما رمناه من علو المقام لها في ذلك الوقت صحة الشبه في قوله تعالى لأيوب عليه السلام{ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢} [ص: ٤٢]؛ أراد الله تعالى أن يريه عاقبة صبره وبركة تصرفه وفائدة ركضه وثمرة لمسه الأرض بأخمصيه، ومعلوم أن المياه لا تنبع بسبب الركض على مجرى العادة، وأن الركض يخرج مخرج الهز خرفا بحرف، وكذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام:{ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ

ٱلۡحَجَرَ} [البقرة: ٦٠]، أراد الله تعالى أن ينبع له الماء بواسطة الضرب حتى تظهر كرامته عند بني إسرائيل، وكذلك في البحر حين ضربه فانفلق، وكذلك عيسى عليه السلام كان يركض القبور فيحيي الله به الموتى ويلمس الطين فيصير طائرا بإذن الله تعالى، وكذلك نبينا عليه الصلاة السلام لمس الماء فنبع من بين أصابعه ولمس الطعام فنما وزيد فيه، وتفل في بئر فعذبت وكثر ماؤها، وتفل في عين علي كرم الله وجهه فبرأت من داء الرمد.

وشربت أم أيمن بوله فبرأت من داء البطن، وتفل على رجل أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الغار حين لسعته العقرب فبرئ في الحين؛ فليت شعري ما الذي أغفل أولئك الجلة عن هذه الأدلة حتى يغضوا من مقام مريم عليها السلام بالهز وهو الأعلى كما ترى أيها اللبيب الفطن المتناصف.

فإن قيل: إنما كانت تلك الأفعال منهم على سبيل إظهار المعجزة لكونهم أنبياء ومريم عليها السلام لم تكن نبية.

قلنا: ليس الأمر كذلك بدليل أنهم لو تحدوا بتلك الخروق من غير تناول منهم لها فوقعت على وفق تحديهم بها لصحت المعجزة، وإذا صحت المعجزة دون التناول باللمس والضرب علم أن تلك الأفعال وقعت إكراما لهم زائدا على ثبوت المعجزة وأيضا فإن اللمس والضرب والتفل ليس من قبيل المعجزات فإنه معتاد والمعتاد لا يكون معجزة؛ فهذا هذا ومن اعترض من المقلدة بالجزاف فعليه الدليل ولا دليل فإن القوم الذين قالوا ذلك لم يأتوا بدليل سوى ما نقرره من أن التوكل فوق الكسب، وهذه مسألة قد حفيت فيها الأقدام واضطربت الأفهام والأظهر فيها أن الكسب مع التوكل إعلاء فإنه

يقع بالظاهر ويبقى الباطن متوكلا فإذا تصور الجمع بين الظاهر والباطن فالكسب الحلال ممن جمع بينهما فهو إعلاء مقام لكونهما مقامين وعملين فلا منافرة بين التوكل والكسب لاختلاف المجال ومريم عليها السلام صديقة ومن بعض مقامات الصديق الجمع بين الكسب والتوكل.

وفي الكسب فائدة كثيرة فإنه مما ينفع الناس ويصلح شؤونهم ويقوم بمنافعهم في لباسهم وأقواتهم؛ فلو ترك الناس الكسب بالجملة لهلكت الأرض ومن عليها فقد تصورت فيه المنفعة العظمى، وقد جاء عنه عليه السلام أنه قال: سيد القوم خادمهم، وجاء عنه عليه السلام أنه قال: الناس عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، والمنفعة على ضربين دنيوية وأخروية:

فالأخروية إرشاد المكلف وتعليمه ما يلزمه من وظائف التكليف، والدنيوية معالجة المعيشة بالأسباب العادية التي يقوم بها أود الحاجات وإبقاء رمق حياة؛ فقد انحصرت المنفعة الدنيوية في الكسب وفيه أيضا سبب للمنفعة الأخروية فإنه لولا سد الجوعة وستر العورة على مقتضى الشرع ومجرى العادة لم تكن الحياة ولا تصورت عبادة، فأهلا بالكسب وأهله فإنهم أحب الناس إلى الله تعالى وكيف يعاب الكسب أو يغض من قدره، وقد أثبته سيد الرسل لنفسه صلى الله عليه وسلم حيث قال:{جعل رزقي تحت ظل رمحي} يعني ما يأكل من الغنائم بسبب الكسب بالرمح، وما فوق مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام، وأمر الله تعالى داوود عليه السلام بالكسب حيث قال له:{ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ} [سبأ: ١١]؛ يعني سابغات الدروع؛ ولذلك أخبر أن داوود عليه السلام كان يأكل من

كسبه في عمل الدروع.

وكذلك جاء في الأثر أن سليمان عليه السلام كان يأكل من عمل الخوص، وجاء عنه أنه قال: اطلبوا الرزق في خبايا الأرض يعني فيما يزرع، وقال لصاحب الناقة اعقلها وتوكل.

وهذه الأخبار تدل على إثبات الكسب شرعا وأنه لا يقدح في التوكل، فخرج من هذه الأحاديث إثبات الكسب شرعا، وأن مريم عليها السلام كان مقامها في تلك الحالة إعلاء لكونها جمعت بين الكسب والتوكل [1].

يؤخذ من قصة مريم ما يلي:

أولا: مشروعية الاستعاذة؛ أي: قول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ووجه ذلك قوله تعالى على لسان أم مريم عليها السلام: {وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ} [آل عمران: ٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**لو أن أحدكم أراد أن يأتي أهله فقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا**} متفق عليه.

فهذا الحديث الشريف اشتمل على توجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته في أدب من الآداب المتعلقة بالجماع؛ بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، وهذه السنة النبوية التي من حافظ عليها؛ فقد حفظ حق ولده من بعده، كما حفظت أم مريم، مريم عليها السلام بقولها:{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ} [آل عمران:

(1) مظان العقبان في شماريخ ثهلان من كتاب تنزيه الأنبياء.

٣٦]، فأرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذكر الله سبحانه وتعالى عند إرادة الجماع، وهذا الهدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبره بعض العلماء رحمهم الله تعالى من الإحسان للولد؛ ذلك أن الوالدين يحسنين إلى الولد قبل وجوده؛ وذلك حينما يختار الأب زوجة صالحة، وأما تخاف الله وتتقيه، فيكون قد أحسن إلى ولده أكرم الإحسان، ثم بعد ذلك إذا قدر له أن ينكح هذه المرأة ويتزوجها فإنه يحرض على اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم في إتيانه لأهله، فإذا حرص على ذلك، وذكر هذا الهدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخبر رسول الهدى صلى الله عليه وسلم أنه حرز من الله تعالى، وحصن حصين من ملك الملوك سبحانه وتعالى لمن ذكر اسمه عند إرادة الجماع للولد والذرية، فأرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الخير العظيم، وكان بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه لا يترك باب خير إلا دلنا عليه، ولا سبيل رشد إلا هدانا إليه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وجزاه عنا وعن أمته خير ما جزى نبيا عن نبوته وصاحب رسالة عن رسالته.

هذه السنة (قول: بسم الله) تكون قبل الابتداء بالجماع، وذلك لأن حال الجماع حال لا يناسب الذكر، ومن هنا يقدم ذكر الله عز وجل قبل إصابة المرأة.

وقوله: بسم الله؛ هذا الاسم العظيم الذي شهد الله جل جلاله أنه عظيم البركة، ما كان في قليل إلا كثره ولا يسير إلا باركه{تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨} [الرحمن: ٧٨]؛ فهو الاسم العظيم الذي قامت عليه السماوات والأرض، بسم الله التي ينخس عندها عدو الله، بسم الله التي تطيب بها الأشياء، ويحل به البركة.

وهذا القول من ذكر الله عز وجل إنما يكون بليغا عظيم الأثر عظيم النفع عظيم العاقبة إذا كان الإنسان يذكره مستحضر القلب، قوي الإيمان بالرب، متعلقا به سبحانه وتعالى، حتى عند شهوته؛ إذا بالإسلام يهذبه ويقومه ويسدده ويرشده إلى ما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته. إنه الإسلام الذي يعيش مع المسلم حتى في فراشه، وحتى في إتيانه لأهله{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا } [المائدة: ٣]، فما بقي أمر من أمور المسلم إلا وله باب من أبواب العبادة، وباب من أبواب القربة لله عز وجل، يأتي الغافل شهوته ويقضي وطره، وينتهي من نزوته، ولكن المؤمن الكامل في إيمانه لا يمكن أن يرى شهوة من الشهوات يستطيع أن يدخر منها حسنة للآخرة إلا جعلها نصب عينيه، وحرص كل الحرص أن يفعل شيئا يقدمه للآخرة، حتى الشهوات لو أن الإنسان قصد بإتيانه لامرأته أن يعف نفسه، وأن يعف زوجه، وأن تكون له ذرية صالحة فإنه يؤجر على ذلك، وكم من رجل دخل على زوجته وفي نيته وقرارة قلبه منذ أن يعقد عليها أنه يريد أن يبني بيتا مسلما، ويريد أن يعف نفسه بحلال الله عن حرامه، ويريد أن يحصن أمة من إماء الله عز وجل عن حرام الله تعالى فنوى هذه النية الصالحة منذ أول لحظة من دخوله، وإذا به بأجر ومثوبة من الله تعالى حتى ينتهي زواجه أو يلقى الله تعالى.

هذا من عظمة الإسلام؛ أنه يعظم بالنية، ويعظم بالشعور أنه في عبادة مع الله جل جلاله، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون بها له أجر؟ قال:{أرأيتم لوضعها في الحرام أكان عليه وزر}؛ فبين النبي صلى الله عليه وسلم أمر غيبيا لا يمكن للعقول أن تدركه،

ولا يمكن للناس أن يطلعوا عليه وهو ملابسة الشيطان للإنسان؛ هذه الملابسة التي تكون حتى في حال الجماع، فأبى عدو الله عليه لعائن الله أن يترك ولي الله المؤمن دون أن يؤذيه في أي أمر من أموره حتى في جماعه وإتيانه لأهله يريد أن يتلبس فيخلط الطيب بالخبيث، ويؤذيه فيما يكون منه من ولد.

وصدق الله عز وجل حينما أخبر بعداوته فإنه العدو المبين، فهنيئا ثم هنيئا لمن طيب الله ذريته، وهنيئا ثم هنيئا لمن طيب الله قوله فطابت به ذريته وطاب به عمله، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن إذا دخل بيته فقال: بسم الله ثم إذا أراد أن يصيب طعاما قال: بسم الله، قال الشيطان لأعوانه لا مبيت لكم ولا عشاء، فإذا دخل الرجل بيته ولم يذكر اسم الله قال أدركتم المبيت، فإذا أكل ولم يذكر اسم الله، قال: أدركتم العشاء، فإذا جامع أهله ولم يذكر اسم الله كان الشيطان معه، وهذا كله يدل على فضل الذكر، وقل أن تجد إنسانا محافظا على ذكر الله ينسى أن يذكر الله تعالى في هذا الحال، ولذلك من عود نفسه على أن يذكر الله قائما وقاعدا، مقبلا ومدبرا ذاهبا وراجعا، وعلى كل أحيانه فإن الله تعالى يعصمه ويحفظه، ويبارك له في وقته وعمره، ومن هنا بين النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قدر الولد من هذا الجماع أنه لا يضره الشيطان، وفي هذا دليل على أن الذرية قد يضرها الشيطان، ولذلك للشيطان همز، وللشيطان مس، وللشيطان لمز وكل ذلك نصت عليه نصوص الكتاب والسنة، والدليل فيه واضح من كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ أن الشيطان يتلبس بالإنسان وأنه يأكل من طعامه، ويشرب من شرابه، وأنه يأتي معه أهله والعياذ بالله، وهذا كله بيان وإعذار،

وقد أعذر من أنذر.

فأنذرنا الله عز وجل بهذه النصوص في كتابه وسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حينما قال في كتابه:{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾} [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨]؛ فهذا يدل على عظيم الأذية والضرر من الشيطان، ومع هذا كله فكيده ضعيف إن شاء الله، ولا يمكن أن يؤذي عبدا إلا أن شاء الله تعالى؛ قال تعالى:{إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾} [المجادلة: ١٠]؛ فإذا توكل العبد على ربه عصم بعصمة الله تعالى، وحفظ بأمر الله تعالى وحماه الله عز وجل ووقاه.

ثانيا: يؤخذ من قصة مريم عليها السلام مشروعية القرعة عند النزاع، وقد أقرها شرعنا الحكيم

فالقرعة ثابتة في تمييز كل حقين متساويين لا تميز بينهما؛ وهي حكم شرعي ثبت في القرآن وفي السنة؛ في القرآن ورد في موضعين:

الأول: قوله تعالى في نبي الله يونس عليه السلام:{فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾} [الصافات: ١٤١].

الثاني: قوله تعالى:{وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران: ٤٤].

ووردت في السنة في ستة مواضع؛ منها: أن رجلاً أعتق ستة اعبد؛ فجزأهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجزاء، وأقرع بينهم ليخرج

الثلث فقط [1].

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها [2].

وقد أنكر بعض أهل العلم القرعة؛ وقالوا: إنها من الميسر، وأنها من الاستسقام بالأزلام.

وهذا قول باطل؛ ودليل بطلانه ما يلي:

أولا: ثبتت مشروعية القرعة بالكتاب والسنة.

ثانيًا: أن قاعدة الميسر دائرة بين الغنم والغرم.

فمثلاً: لو جئت بمال مشترك بين اثنين؛ ولنفرض أن هذا المال ثلاثون جنيهًا؛ فإذا قسمته قسمين؛ قسم عشرة جنيهًا، وقسم عشرون جنيهًا؛ وقلنا: سنقرع بينكما؛ فلا يجوز.

لم؟

لأن أحدهما سيصبح غارمًا والآخر غانمًا؛ وهذا يوجب العداوة والبغضاء؛ وهذا هو الميسر الذي نهى الله تعالى عنه.

أما شيئين متساويين، ولا يمكن التمييز بينهما فإننا في هذه الحالة نستعمل القرعة ولا نقول إنها ميسر لما بيناه.

---

(1) أخرجه مسلم في النذر - باب من أعتق شركاً له في عبد (1668) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري في النكاح - باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً (5211)، ومسلم في الفضائل - باب فضائل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (2445) عن عائشة رضي الله عنها.

ناقضة الغزل

قصص النساء في القرآن

[13] ناقصة الغزل

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: { وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا } [النحل: ٩٢]، وهي ريطة بنت عمرو بن سعد بن زيد، وكانت خرقاء تغزل هي وجواريها من الغداة إلى نصف النهار، ثم تأمرهن فينقضن جميعاً ما غزلن، فكان هذا دأبها لا تكف عن الغَزل، ولا تبقي ما غزلت.

***

موجز القصة:

قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها: ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وتلقب بجعر، وكانت بها وسوسة، وكانت اتخذت مغزلا بقدر ذراع وصنارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن فهذا كان دأبها.

تمت القصة بعون الله تعالى

***

خولة بنت ثعلبة

قصص النساء في القرآن

[14] المجادلة [خولة بنت ثعلبة]

وقــد ورد ذكرهــا في قــول الله تعــالى: {قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾} [المجادلة: ١].

***

موجز القصة:

تعد خولة بنت ثعلبة أحد الصحابيات الجليلات اللواتي يعتبرن قدوة لباقي النساء المؤمنات في العصور التي تبعت عصرهم. وسوف نعرض بمشيئة الله تعالى عرضًا لبعض صفات هذه المرأة الجليلة، وبعض الوقفات في حياتها، وتعد خولة بنت ثعلبة من مشهورات العرب؛ لأن فيها وفي زوجها نزلت سورة المجادلة عندما ظاهرها زوجها.

وزوجها هو: أوس بن الصامت رضي الله تعالى عنها، وهو ابن عمها، وهو أخو الصحابي الجليل عبادة بن الصامت؛ كان رضي الله عنه من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان من أهل بدر الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: {لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفر الله لكم}، وبايع بيعة الرضوان الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: {لن يلج النار أحدا بايع تحت الشجرة}، وتوفي في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنهم؛ فرضي الله تعالى عنه وأرضاه وجعل أعالي الجنة مسكنه ومثواه.

والآن هيا بنا ننطلق لنعرف من هي هذه الصحابية الجليلة:

هي خولة بنت مالك بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف، صحابية جليلة من الأنصار.

وكانت امرأة فقيرة معدمة، عاشت مع زوجها حياة مسالمة، وكان أوس بن الصامت يعمل ويكد كثيراً للحصول على الرزق وليحصل على قوت بيته، ولكن بعد تقدمه في العمر، أصبح شيخاً ضجراً، وقد ساء خلقه مع زوجته.

خولة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

خاطبت خولة في ذات يوم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما كان خارجاً من المسجد، وكان معه الجارود العبدي، فسلم عليها عمر فردت عليه، وقالت: " هيا يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت "، فقال الجارود: قد أكثرت على أمير المؤمنين أيتها المرأة، فقال عمر: " دعها أما تعرفها! هذه خولة التي سمع قولها من فوق سبع سماوات فعمر أحق والله أن يسمع لها ".

مظاهرة زوجها لها:

في ذات يوم حدث حادث بين الزوجين السعيدين، شجار بينهما، لم يستطع أي أحد منهما تداركه، فقال لها أوس: " أنت علي كظهر أمي!...فقالت: والله لقد تكلمت بكلام عظيم، ما أدري مبلغه؟!... " ومظاهرة الزوج لزوجته تعني أن يحرمها على نفسه، وبذلك القسم، يكون قد تهدم البيت الذي جمعهما سنين طويلة، وتشتت الحب والرضا الذين كانا ينعمان بهما.

وسلم كل منهما للواقع بالقسم الجاهلي الذي تلفظ به الزوج لزوجته، ولكن بعد التفكير العميق الذي دار في رأس خوله، قررت أن تذهب

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف لا وهي تعيش في مدينته، وهي قريبه منه وبجواره.

وعندما ذهبت إليه وروت المأساة التي حلت بعش الزوجية السعيد، طلبت منه أن يفتيها كي ترجع إلى زوجها، ويعود البيت الهانئ لما كان عليه دوما في السابق، ويلتم شمل الأسرة السعيدة.

لم يكن من الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يتأكد من الأمر، ويسمع المشكلة من الطرفين، وهذا إن دل فإنه يدل على دقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحري في الأمور؛ وذلك لتحقيق العدالة التي يدعو إليها الدين الإسلامي، فاستدعى أوس بن الصامت، وسأله عن وقائع ما حدث بينه وبين زوجته، فاعترف بأن ما قالته خولة قد حدث وهو صحيح.

وهذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم الكريم الصادق الآمين؛ فإنه يستبين الأمور قبل أن يصدر الحكم؛ ووجه ذلك أن خولة رضي الله تعالى عنها لما اشتكت إليه صلى الله عليه وسلم من زوجها ما أخذ الخبر منها مباشرة وحكم، بل قال لها استدعي زوجك.

وقد حصل هذا مع عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله تعالى عنهما؛ فإن عمرو بن العاص لما اشتكى ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب تقصيره في زوجته وأنه أقسم أن يقوم الليل ويصوم النهار استدعاه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: أنت الذي قلت ذلك؟

وهنا وقفة لا بد منها؛ وهي أنه يجب على كل مسلم يخاف الله تعالى ويعلم أن الله سائله عن إخوانه وحقوق المسلمين أن يتقي الله تعالى

في الشائعات، وألا يعتقد شيئًا في إخوانه المسلمين إلا وعنده حجة يلقى الله تعالى بها؛ فهذا رسول الأمة يتثبت من الخبر مع أن الخبر جاءه بشهادة والد على ولده، وليس هناك أقوى من شهادة الوالد على ولده، قد يشهد الوالد لولده، والعكس، لكن أن يشهد ضده وعليه فهذا من أقوى أنواع الشهادة، ولذلك كان بعض العلماء يقول بعدم قبول شهادة كل من الوالد والولد للآخر؛ لأن التهمة منتفية؛ فإن الأب الحنون والأب الصادق لم يرض بأن يجلب الضرر على ولده، ومع هذا كله لم يكتف صلى الله عليه وسلم بخبر عمرو بن العاص، بل قال لعبد الله: أأنت الذي قلت كذا وكذا؟ قال الله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦} [الحجرات: ٦]، وليس المراد بهذا أن يوصف عمرو بأنه فاسق حاشاه، وإنما هو المنهج القرآني الرباني أن الغالب في الشائعات أن تكون من الفساق؛ فعُبر بالغالب؛ ولذلك ينبغي التثبت، وينبغي أن يحفظ المسلم الصادق لإخوانه حقوقهم فلا يعتقد شيئًا حتى يثبت بالدليل.

فقال له عبد الله: قد قلته بابي أنت وأمي يا رسول الله، وهنا وقفة ثانية مع هذا الصدق؛ حيث يجب على كل مسلم أن يكون صادقًا أمينًا في خبره وقوله؛ فالذي قال يعترف أنه قال والذي فعل يعترف أنه فعل، ولا يجوز له أن يقول خلاف الحق والحقيقة؛ قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩} [التوبة: ١١٩]؛ فصدق عبد الله رضي الله عنه وصدَّق الخبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: قد قلته، وهذه شجاعة في الحق أن الإنسان إذا قال شيئًا وسئل عن هذا الشيء هل قاله أم لا فليقل: قد قلته، ويجب أن

يكون صادقًا في قوله، وإذا غير عليه الكلام فليقل: قلت كذا وكذا، ولم أقل كذا وكذا.

المهم أن النبي صلى الله عليه وسلم استدعى أوس بن الصامت، وقال له:{**يا أوس: لا تدن من زوجتك ولا تدخل عليها حتى آذن لك**}، وبذلك زاد قلق خولة وذعرها، فأخذت تتوسل وتشكو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر.

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر نزول الوحي عليه ليرى ما هو الواجب الذي يأمره الله تعالى لتنفيذه، فإن هذا الأمر يمكن أن يتكرر على مر الزمن، وهو ليس فقط لخولة وزوجها أوس، فالمعروف أن القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان، وعندما تنزل أية ما في واقعة معينه، إنما هي عبره للناس كافة على مر العصور، فالقرآن الكريم شامل لكل شؤون الحياة الاجتماعية والسلوكية، وقد أرسل لكافة البشرية.

فجلس الجميع ينتظرون نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وكانت خوله تجادله صلى الله عليه وسلم وتخبره بأن لديها عيالاً لا تستطيع تركهم، فإن تركتهم لوالدهم، فسوف يضيعون، وإن أخذتهم هي، فسوف يجوعون، وظلت هي كذلك تفكر كيف سيعود شمل الأسرة إلى الكيان السابق، إلى أن تغير حال الرسول الكريم، فأخذ يرتجف ويتصبب عرقاً،وتولاه صمت طويل وخشوع جليل، فقالت عائشة - رضي الله عنها - لخولة: " إنها لحظة الوحي، وما أظنه إلا قد نزل فيك أنت "، فلم يكن من خوله المرأة المؤمنة إلا أن تتضرع بالدعاء لله تعالى، وتسأله الخير في حكمه.

فلم تزل هي كذلك حتى ناداها الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت ابتسامة البشرى تشع من وجهه، فتأكدت خولة بأن الله عز وجل قد أنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام خيراً لها ولزوجها، فلقد أنزل الله تعالى سورة المجادلة فيها وفي زوجها{قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾} [المجادلة: ١]؛ فجاء الحكم الإلهي حيث قال الله تعالى:{ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾} [الأحزاب: ٤]؛ **وكان الظهار في الجاهلية ضربًا من الطلاق**؛ فقد حكى الإمام الشافعي عن بعض أئمة العلم أنهم كانوا يقولون: كان الطلاق في الجاهلية بثلاث أشياء:

الأول: بالطلاق.

الثاني: بالظهار.

الثالث: بالإيلاء.

ثم جاء الإسلام فهذب هذه الأشياء؛ فجعل الطلاق طلاقًا، وجعل الظهار موجبًا للكفارة، وجعل الإيلاء له أحكام خاصة به.

وقوله تعالى:{ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾} [المجادلة: ٢]؛ تأكيد بأنه لا يمكن جعل الزوجة كالأم، وما هذا إلا منكر وقول زور على الله تعالى؛ فالأم محرمة شرعاً وعرفاً على أبنائها، فما من داع لتذكير الناس بالحكم، فهو واجب مفروض، ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم لخولة ما أمره الله

به:{مريه فليعتق رقبة} أخذاً بقول الله تعالى -:{وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣} [المجادلة: ٣]؛ فأجابت خولة رضي الله تعالى عنها قائلة بأن ليس لديه ما يعتق به رقبة، فقال:{فليصم شهرين متتابعين}؛ عملاً بقول الله عز وجل في كتابه العزيز:{فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا} [المجادلة: ٤]؛ فردت بأنه شيخ كبير لا يقوى على الصيام، فقال:{فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر}، حسب ما قال الله عز وجل:{فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المجادلة: ٤]، فقالت أنه لا يملك لذلك ثمناً، فقال: " فإنا سنعينه بعرق من تمر "، فأدبرت قائلة بأنها ستعينه بعرق آخر أيضاً، فقال صلى الله عليه وسلم :{فقد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً}، فأسرعت خولة المرأة المؤمنة والزوجة الصالحة والوفية إلى بيتها لتخبر زوجها المتلهف بحكم الله العادل واليسير، فأسرع الزوج السعيد إلى أم المنذر بنت قيس، وعاد من عندها حاملاً وسق تمر، فراح يتصدق على ستين مسكيناً كما أمره الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وبذلك تم تنفيذ أمر الله، وعاد الزوجان سعيدين كما كانا سابقاً، واجتمع شمل الأسرة من جديد، وعاشا في وئام وصفاء.

قال شيخنا حفظه الله تعالى: وسبب نزول هذه الآية وما قبلها يعني آية الظهار؛ أن أوس بن الصامت رضي الله عنه ظاهر من زوجته خوله بنت ثعلبة رضي الله تعالى عنها لأنها راجعته في أمر من الأمور؛ ثم خرج إلى أصحابه ورجع إلى بيته فأراد منها ما يريد الرجل من زوجته فمنعته، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

واشتكت أمرها إليه؛ فما انتهت من كلامها حتى نزل الوحي ليحكم في أمرها، ولذلك قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: سبحانه من وسع سمعه الأصوات.

فلما اشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره؛ قال لها:{اجعليه يعتق رقبة}؛ فقالت له: ما عنده يا رسول الله فلا يملك إلا نفسه، فقال لها:{اجعليه يصوم شهرين متتابعين}؛ فقالت: يا رسول الله إنه شيخ كبير لا يستطيع الصوم، فقال لها:{اجعليه يطعم ستين مسكين}، فقالت: من أين له أن يجد؟، ثم قالت: عندي عرق من تمر، فقال صلى الله عليه وسلم :{وأنا أُعينه بعرق آخر واستوصي بابن عمك خيرَ}.

قال علماؤنا حفظهم الله تعالى ورعاهم: يؤخذ من هذه القصة فوائد كثيرة؛ منها:

أولا: إبطال الله تعالى لظاهرة كانت شائعة أيام الجاهلية ألا وهي المظاهرة، وهي تعني تحريم الزوج زوجته على نفسه، وأنزل الله تعالى حكم ذلك القسم ألا وهو لا يوجب التحريم المؤبد، بل التحريم المؤقت حتى تؤدى الكفارة، وجعل الله الكفارة بعتق رقبة، أو صوم شهرين متتابعين إن لم يقدر على عتق رقبة، أو إطعام ستين مسكينا إن لم يستطع الصيام.

ثانيًا: مكانة المرأة التي تحاول الحفاظ على زوجها وبيتها في الإسلام، كما فعلت خولة عندما أصرت على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلب من الله الحكم العادل لتعود إلى زوجها.

ثالثًا: بيان عظمة الصحابيات وأنهن قدوة صالحة لجميع النساء.

رابعًا: بلاغة خولة بنت ثعلبة وفصاحة لسانها، وتبين ذلك من خلال موقفها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جادلته بعد أن ظنت أنها ستفترق عن زوجها، وتبيينها سلبيات هذا التفريق على الأولاد والبيت، وفي موقف آخر أيضاً مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما اعترضت على سياسته وطلبت منه أن يتق الله تعالى في الرعية، في عبارة قوية لم يستطع عمر حيالها إلا أن يسمع لها.

خامسًا: في هذه القصة تأكيد على وجوب الاعتماد على الله - عز وجل - في أخذ الأحكام، واعتبار القرآن الكريم هو مصدر التشريع الإسلامي الأساسي وتتبعه بعد ذلك السنة النبوية الشريفة.

سادسًا: بيان لطف الله عز وجل بعباده وتخفيف الكفارات لهم عند عدم الاستطاعة.

سابعًا: بيان عدل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث إنه طلب سماع القضية من الطرفين، وليس من طرف واحد، وذلك للوصول إلى أفضل الأحكام وأدقها.

ثامنًا: يجوز دفع الكفارة عمن لا يستطيع دفعها، أو لا يقدر على أدائها؛ ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع لخولة رضي الله تعالى عنها فرقا من تمر حتى تعين زوجها على الكفارة.

قال علماؤنا: ويجوز للغير أن يدفع عن أخيه المسلم الكفارات المالية.

تاسعا: الأدب العالي للصحابيات مع أزواجهن؛ فهذه خولة لما طلب من زوجته ما يطلب الأزواج وامتنعت ما نهرته ولا قهرته؛ بل قالت في كل أدب: حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله.

وعلى هذا يجب على كل امرأة أن تتأدب مع زوجها حتى تنال سعادة

ربها؛ والمقصود بالأدب: التحلي بالأخلاق الطيبة من قول أو فعل، والأدب هو الخلق الذي يحمل الإنسان على مكارم الأمور ومحاسن العادات وجميلها.

والأدب على نوعين:

الأول: مكتسب؛ وهو مكارم الأخلاق التي يتأثر بها الإنسان إما بدليل الشرع؛ وذلك بدلالة الشرع عليه ترغيبًا وتحبيبًا، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخلاقه الكريمة التي أثنى الله عز وجل عليه بها، وكما جاء عن عباد الله الصالحين من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين من محاسن العادات ومكارم الأخلاق؛ كالجود والسخاء ونحو ذلك، وإما بما يكون في العادة والطبع.

الثاني: جبلي؛ وهو الذي جبل الله تعالى عليه العبد؛ كأن يجبله على الحياء والخجل الذي يحمد من الإنسان في مواضعه المحمودة؛ فإن الله تعالى يجبل الإنسان على أخلاق محمودة كريمة؛ وقد يحمله على أخلاق مذمومة ممقوتة؛ فقد قسم الأخلاق كما قسم الأرزاق، ولذلك اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - هل باب الآداب جبلي كله أو هو مكتسب كله أو التفصيل؟

فقال بعض العلماء: إن الآداب جبلية والإنسان يكون أديبًا وعنده خلق الأدب بالجبلة؛ بمعنى أن الله تعالى يخلقه ويجبله عليها، واستدلوا أصحاب هذا القول بما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأشج عبد القيس:{**إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى؛ الحلم والأناة**} قال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهما في أم جبلني الله تعالى عليهما؟ قال:{**بل جبلك الله تعالى عليهما**} فقال: الحمد لله الذي

جبلني على ما يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك قالوا: الآداب كلها خلقة وسجية؛ ولذلك قال حسان بن ثابت:

سجية تلك فيهم غير محدثة ::: إن الخلائق فاعلم شرها البدع

وقال بعض العلماء: إن الأخلاق تكون مكتسبة والآداب تهتدي إليها العقول والناس يهتدون إلى مكارم الأخلاق والآداب على قدر عقولهم؛ فمن كمل عقله كمل أدبه ومن نقص عقله نقص أدبه نسأل الله تعالى السلامة والعافية؛ ولذلك قالوا: سمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه ويحجره ويمنعه عما لا يليق، وسمى الله تعالى العقل حجرًا؛ قال تعالى:{هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾} [الفجر: ٥]؛ أي: لذي عقل يحجره ويمنعه عما لا يليق؛ فقالوا: إن الإنسان يكون مكتسبًا للأخلاق على قدر عقله؛ فإن كمل عقله كمل خلقه، وإن نقص عقله نقص خلقه، ولذلك قالوا: إن الإنسان إذا حصل منه ما يدل على سوء أدب وسوء طبع دل ذلك على نقصان عقله، ومن هنا رد العلماء شهادة ساقط المروءة، قالوا: لأن عدم التزامه بالأعراف والعادات المحمودة يدل على نقص عقله، وناقص العقل لا تقبل شهادته؛ وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم :{**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**}؛ فالإنسان إذا كمل عقله انكف عما لا يليق وإذا نقص عقله ارتكب سفاسف الأمور ووقع في قبائح الأفعال والأقوال.

ومن العلماء من يقول: الأخلاق منهما ما هو جبلي ومنها ما هو مكتسب، وأن الإنسان قد يجبله الله تعالى على أخلاق محمودة وقد يكتسبها، والدليل على الجمع بين الأمرين أن السنة دلت على اجتماعهما؛ أما كون الإنسان مخلوقًا جبليًا فحديث أشج عبد القيس

الذي تقدم؛ وأما كون الإنسان يعطي الخلق بعد أن كان غير متخلق به؛ فمنه ما ثبت في الصحيح عن علي؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح قيام الليل بقوله:{وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت وأنا عبدك ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم اهدني لأحسن الأخلاق والأقوال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني شرها وسيئها لا يصرف عني شرها وسيئها إلا أنت لبيك وسعديك...} الحديث؛ فقوله:{اهدني لأحسن الأخلاق}؛ دليل على أن الأخلاق تحدث في الإنسان وتطرأ على الإنسان هداية من الله تعالى ثم باكتساب من العبد؛ ولذلك أمر بصحبة الأخيار. وهذا القول هو الصحيح المقطوع به.

عاشرا: وجوب الرجوع إلى أهل العلم عند الاستشكال؛ ووجه ذلك أن خولة رضي الله تعالى عنها لما التبس عليها قول زوجها: أنت علي كظهر أمي امتنعت عنه حتى تسأل عن هذا الحكم خوفا من أن تقع في الحرام وهي لا تدري.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *

حمّالة الحطب

[15] حمّالة الحطب

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: {وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾} [المسد: ٤].

وهي أم جميل بنت حرب بن أمية، كانت تحمل الشوك، فتضعه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم، وزوجها أبو لهب: عبد العزى، كني بذلك لتلهّب وجنتيه وإشراقهما، أو في النار مناسبة لحاله فيها.

* * *

موجز القصة:

هذه المرأة لم يرد اسمها في القرآن الكريم صراحة، وإنما أشير إليها بصفتها " امرأة أبي لهب " عم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وذلك مرّة واحدة في معرض التنديد والذمّ لها ولزوجها، وذلك في قوله تعالى: {تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ} [المسد: ١ - ٥].

فمن هي امرأة أبي لهب هذه؟ ما اسمها؟ وما قصتها.

هي أروى بنت حرب أم جميل وإن شئت قلت: أم قبيح، وقيل " العوراء "... أخت أبى سفيان صخر بن حرب.

كانت عونا لزوجها على كفره وحجوده، آذت الرسول صلى الله عليه وسلم وأطلقت فيه لسانها بفحش القول وبذيء الكلام، كرهت نور الإسلام وأخذت في الصد عنه.. وولداه عتبة ومعتب.

ماذا كانت تفعل لإيذاء الرسول الكريم؟ وما أسباب نزول السورة التي ذكرت في المرة السابقة " المسد "؟ وما هي المُعجزة الظاهرة في سورة " المسد " على النبوة؟

قال تعالى:{حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ} يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، هي مهيأة لذلك مستعدة له،{فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ}؛ قال مجاهد: من مسد النار، وعن مجاهد وعكرمة{حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ} كانت تمشي بالنميمة (واختاره ابن جرير).

وقال ابن عباس والضحّاك: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد، فأعقبها الله تعالى منها حبلاً في جيدها من مسد النار، والمسد الليف، وقيل: هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً، قال الجوهري: المسد الليف، والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص، وقال مجاهد:{حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ}؛ أي طوق من حديد.

أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لمّا نزلت: {تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ} أقبلت العوراء (أم جميل) بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذمّماً أبيْنا - ودينه قليْنا - وأمره عصينا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلتْ وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{إنها لن تراني}، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: {وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا} [الإسراء: ٤٥].

فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قد علمت قريشًا أني

ابنة سيدها، قال: فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم (أخرجه ابن أبي حاتم). وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى:{ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾}؛ أي في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها، ثم ترمى إلى أسفلها، ثم لا تزال كذلك دائماً.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوّة، فإنه منذ نزل قوله تعالى:{ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾} [المسد: ٣ - ٥]؛ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا سراً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة، على النبوّة الظاهرة.

كما أن أبي لهب لم يكن الوحيد الذي آذى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولكن السورة القرآنية نزلت فيه ولم تنزل في أبي سفيان، رغم أنه آذى النبي صلى الله عليه وسلم وحاربه في أكثر من موقف، ولم تنزل به آية تشير إلى أن النار مصيره!!! ذلك أن الله تعالى يعلم أنه سيسلم وسيحسن إسلامه، وهذا دليل قاطع أن القرآن الكريم منزل من لدنّ عليم خبير.

ما يؤخذ من هذه القصة:

أولا: عذاب أم جميل زوجة أبي لهب، وأنها مع زوجها تصلى نار جهنم وتذوق حرها وتتلظى بلهبها، وأنها هالكة في الدنيا، ومعذبة في الآخرة بحبل من نار، وسلاسل من نار جهنم تطوقها، لإيذائها النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها كانت في غاية العداوة له، ولإفسادها بين الناس بالنميمة وتأجيج نار العداوة بينهم.

ثانيا: قد تكون المرأة سوء على زوجها؛ قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ } [التغابن: ١٤]؛ ووجه ذلك أن أم جميل لعنها الله تعالى كانت تعين زوجها اللعين أبا لهب على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم.

تمت القصة بعون الله تعالى

***

الرهينة:كبيشة بنت معن

قصص النساء في القرآن

[16] الرهينة: كبيشة بنت معن

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا } [النساء: ١٩].

* * *

موجز القصة:

يقول الله تعالى محدثاً عن القرآن الكريم: { إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا } [الإسراء: ٩]؛ وفي قصتنا آيات كريمة جاءت بشرى لسيدة مؤمنة من نساء الصحابة في سورة عظيمة اهتمت بشأن النساء وأحكامهن، وسُميت باسمهن فكانت سورة النساء التي أنزل الله سبحانه وتعالى فيها حقوقاً للمرأة كان لا يعرفها المجتمع الجاهلي، ولا حتى المجتمعات الأخرى. ولنزول هذه الآيات الكريمة في تلك السيدة المؤمنة من نساء العهد النبوي قصة نتلو عليكم تفاصيلها في السطور التالية.

كان في العهد النبوي سيدة مخلصة مؤمنة تدعى كبيشة بنت معن؛كانت كبيشة بنت معن تعيش مع زوجها أبو قيس حياة هادئة سعيدة لا يعكر صفاءها شيء؛ فقد كان الزوج محباً لزوجته مقدراً لها، وكانت هي تبادله المحبة بأكثر منها وتخلص له على أجمل وأكمل ما يكون؛ فقد ألف الإسلام بينهما وجمعتهما صحبة الدين، فزادهما الإيمان والعبادات قرباً لبعضهما البعض.

صحيح أن الله لم يرزقهما أولادا لكنهما كانا سعيدين وراضيين بحكم الله تعالى لهما؛ فقد كان لأبي قيس أولاد من زوجة سابقة فلم يفارق كبيشة لعدم إنجابها بل أحبها وأحب عشرتها.

الزوجة الوفية:

وذات يوم مرض زوج كبيشة مرضاً مفاجئاً ولم يعرفوا له دواء فحزنت كبيشة عليه حزنا شديدا ولازمت فراشه تمرضه، وتواسيه وتخفف عنه آلام المرض؛ فقد كانت كبيشة تعرف عظم حق الزوج على زوجته؛ فقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم :{**إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وأطاعت زوجها، وحفظت فرجها، قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت**} [1].

وكانت كبيشة لا تُرى إلا جالسة بجوار زوجها ترعاه وتسهر على راحته وتداويه وتدعو له بالشفاء العاجل حتى لا يتركها وحيدة فليس لها من بعده أحد إلا الله تعالى، وكانت كبيشة قد سمعت من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:{**أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة**} [2].

وفجأة وعلى غير توقع، تدهورت صحة أبي قيس زوج كبيشة تدهوراً كبيراً وما لبث الزوج المخلص أن مات وترك زوجته لعادات وتقاليد المجتمع الجاهلي الذي كان يظلم المرأة ظلماً بيناً!.

وعاشت كبيشة وحيدة في دار زوجها، تذكر حُسن معاملته لها، وحسن عشرته معها وأخلاقه الكريمة التي كان يتمتع بها وتخشى من الأيام القادمة حيث لم يكن للمرأة وقتها حق في ميراث من زوجها ولا حتى من أبيها، بل كانت هى نفسها تورث لأقارب الزوج خاصة إذا كانت مثل حال كبيشة ليس لها من زوجها أولاد!

---

(1) حسن لغيره: أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (306/4).
(2) حسن: أخرجه الترمذي (1161) في الرضاع.

كُبيشة تصبح رهينة:

ولم تمض أيام قليلة، حتى جاءت اللحظة التي كانت تخشاها كبيشة حين جاء ابن زوجها من امرأة أخرى، وطرح على كبيشة ثوبه وكان هذا من عادات العرب في الجاهلية وكان لرمى الثوب هكذا معنىً خطير! فقد كان هذا هو العُرف في الجاهلية وكان هذا له معنى واحد ومعناه أنها أصبحت إرثاً من حق ابن الزوج بعد موت أبيه!!

ويقول ابن عباس شارحاً لنا هذا الوضع الغريب: كانوا في الجاهلية، إذا مات الرجل عن زوجته جاء قريب الزوج خاصة ابنه من إمرأة أخرى فألقى ثوبه على تلك المرأة فمنعها من الناس وحبسها وحدد إقامتها، فإن كانت جميلة تزوجها! وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، وإن شاء زوجها غيره وأخذ مهرها.

عادات جاهلية بالية:

لقد كانت تلك عادة العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يجعلون النساء ميراثا لهم، كما تورث الأموال والعبيد، يتصرفون فيهن كما يشاءون ولاحق للمرأة أن تتذمر أو تشكو أو حتى تهرب من هذا الوضع المشين؛ جلست كبيشة حبيسة في دار زوجها، تفكر ماذا تفعل..؟

ثم قالت لنفسها: إن هذه العادات كانت قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام، لقد جاء الإسلام ليرفع الظلم عن المظلومين؛ حرم وأد البنات، وساوى بين الرجل والمرأة في التكاليف والعبادات، وجعل مقياس التفاضل بين الناس التقوى والعمل الصالح وبالتأكيد فإن هذا الوضع الظالم المهين للمرأة لن يرضي الله ولا رسوله؛ ووجدت كبيشة نداء بداخلها يحثها على القيام وعدم

الاستسلام لهذا الواقع الأليم فقالت لنفسها: قومي يا كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعرضي عليه مشكلتك ولا تأبهي للحبس الإجباري الذي فرضته عليك العادات والتقاليد.

كبيشة تعرض مشكلتها:

وهناك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، جلست كبيشة تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم في أمرها، وأمر كل النساء أمثالها؛ دخلت كبيشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرضت عليه مشكلتها؛ قالت: يا رسول الله، مات زوجي، فلا أنا ورثته ولا ابنه تزوجني، أو تركني أتزوج غيره، بل تركني محبوسة في داري ورمى على ثوبه كما هى العادة قبل الإسلام أيرضيك يا رسول الله أن هذا وضع المرأة بعد أن أكرمها الله وحرم وأدها وأوصيت أنت عليها؟

سكت رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ثم قال لها: يا كبيشة اذهبي، واجلسي في بيتك حتى يأتي أمر الله؛ فقد كان رسول الله لا ينطق في حكم جديد إلا بوحي من الله عز وجل فيقول تعالى:{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ} [النجم: ٣ - ٥].

قرآن كريم يتنزل في أمر كبيشة:

لم يطل انتظار كبيشة في بيتها طويلاً؛ فقد حكم الله تعالى في قضيتها وقضية كل النساء أمثالها، ونزل قول الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات ينادى بإكرام المرأة المؤمنة ومناصرتها ضد العادات والتقاليد الجاهلية ويأمر بحق المرأة في الميراث، وينهى عن الاستيلاء على رزقها وميراثها رغماً عنها؛ بل ويعطيها أهليتها المالية الخاصة ويحرر لها ذمتها المالية ويسبق الإسلام بذلك كل

الشرائع الأخرى والقوانين الوضعية التي إما ضيقت على المرأة أو أفرطت في أمورها؛ قال الله عز وجل: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا} [النساء: ١٩].

حقوق للمرأة لم تكن من قبل:

وبهذه الآيات الكريمة أبطل الإسلام ماكان في الجاهلية، وحرم على ابن الزوج أن يرث زوجة أبيه أو أن يتزوجها، وحرم زواج أبناء الزوج من زوجة أبيهم، وأعطى المرأة حريتها في الزواج بعد موت زوجها وقرر لها الحق الطبيعي في ميراث زوجها إن كان له مال، بل أنه أعطى لها ربع ميراث زوجها إذا لم يكن له أولاد. وهكذا أنصف الله تعالى كبيشة ومعها كل النساء المسلمات اللاتي كن على مثل حالها فلقد حرم الله على نفسه الظلم وحرمه بين عباده.

تمت القصة بعون الله تعالى

❊ ❊ ❊

زينب بنت جحش

قصص النساء في القرآن

[17] زينب بنت جحش

وقد ورد ذكرهما في قوله تعالى:{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا } [الأحزاب: ٣٧].

* * *

موجز القصة:

قال الإمام الذهبي في السير: بنت جحش بن رياب، وابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، وهي أخت حمنة بنت جحش، وأبي أحمد من المهاجرات الأول.

كانت عند زيد، مولى للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي يقول الله تعالى فيها: { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾} [الأحزاب: ٣٧].

زوجها الله تعالى نبيه بنص كتابه، بلا ولي ولا شاهد، فكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين، وتقول: زوجكن أهليكن، وزوجني الله من فوق عرشه

زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم:

كان زيد بن حارثة مولى خديجة وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وهو ابن ثماني سنوات فأعتقه وتبناه. وكانوا يدعونه زيد ابن محمد. وقد زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت عمته " زينب بنت جحش " إلا أنه كان يشكوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها تؤذيه وتتكبر عليه بسبب النسب وعدم الكفاءة، فكان يقول له:{أمسك عليك زوجك}؛ أي: لا تطلقها، لكنه لم يطق معاشرتها وطلقها، وبعد أن انقضت عدتها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة التبني؛ وذلك أن الله تعالى أراد نسخ تحريم زوجة المتبني؛ قال تعالى:{ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾} [الأحزاب: ٤٠]، قال:{ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ } [الأحزاب: ٥]، فكان يدعى بعد ذلك زيد بن حارثة.

وقال الله تعالى:{فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: ٣٧].

وقد كان الله تعالى أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن زيداً سيطلق زوجته ويتزوجها بعده إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في الكتمان، وقال لزيد:{اتق الله وأمسك عليك زوجك} فعاتبه الله على ذلك حيث قال:{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ } [الأحزاب: ٣٧]، وقد نزلت فيها آية الحجاب.

عن أنس صلى الله عليه وسلم قال: لما انقضت عدة زينب قال النبي

صلى الله عليه وسلم لزيد:{اذهب فاذكرها علي} فانطلق حتى أتاها، وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤمر من ربي عز وجل.

ثم قامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن، قال أنس: ولقد رأيتنا حين دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟ فتقرَّى حجر نسائه كلهن، ويقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة.

ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا، فخرج حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب، وأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب؛ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا

كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾} [الأحزاب: ٥٣].

زينب في بيت النبوة:

هي الزوجة التي زوجه الله تعالى بها، وكانت تفتخر بذلك على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول: زوجكن أهلوكن وزوجني الله من السماء، عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهم: إن جدي وجدك واحد - تعني عبد المطلب - فإنه أبو أبي النبي صلى الله عليه وسلم وأبو أمها أميمة بنت عبد المطلب، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام.

وهي التي كانت تسمى عائشة بنت الصديق في الجمال والحظوة، وكانت دينة ورعة عابدة كثيرة الصدقة وكانت تسمى أم المساكين، قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم أمانة وصدقة.

وثبت في الصحيحين في حديث الإفك، عن عائشة أنها قالت: وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عني زينب بنت جحش، وهي التي كانت تساميني من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فعصمها الله بالورع، فقالت: يا رسول الله احمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً.

وعن عُبَيْدَ بنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعتُ عَائِشَةَ تَزْعُمُ أَنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلاً،

فتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا، فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيْحَ مَغَافِيْرَ! أَكَلْتَ مَغَافِيْرَ! فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ.

قَالَ: بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ، وَلَنْ أَعُوْدَ لَهُ؛ فَنَزَلَ:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤} [التحريم: ١ - ٤].

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً}، قالت: فكنا نتطاول أينا أطول يداً، قالت: فكانت زينب أطولنا يداً، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق.

وعن عَبْدِ اللهِ بنِ شَدَّادٍ: أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِعُمَرَ:{إِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ أَوَّاهَةٌ}.

قِيْلَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ، مَا الأَوَّاهَةُ؟

قَالَ: الخَاشِعَةُ، المُتَضَرِّعَةُ؛ و{إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ} [هود: ٧٥].

روى أنه لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش - زوجة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بالذي يخصها فلما دخل عليها قالت: غفر اللّه لعمر. غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني. فقالوا: هذا كله لك. قالت: سبحان اللّه واستترت منه بثوب. قالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت لبرزة بنت رافع: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان من أهل رحمها وأيتامها

فقسمته حتى بقيت بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة: غفر الله لك يا أم المؤمنين والله لقد كان لنا في هذا حق. فقالت: فلكم ما تحت الثوب. قلت: فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: " اللَّهمَّ لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا " فماتت.

روايتها للحديث:

رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد عشر حديثا، ومما أخرجه البخاري عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول:{لا إله إلا الله، ويل للعرب، من شرق اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها -} قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال:{نعم إذا كثر الخبث}.

ما يستفاد من هذه القصة:

يستفاد من قصة أمنا أم المؤمنين زينب بنت جحش فوائد عظيمة منها ما يلي:

أولا: أن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها من المهاجرات الأول ومن طلائع فجر الإسلام الأول.

ثانيا: زوجها الله تعالى من فوق سبع سموات؛ فكانت أكرم أمهات المؤمنين وليا وسفيرا، وكانت تفتخر بذلك بين زوجات النبي الطاهرات، وحق لها ذلك.

ثالثا: في سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها

الفضائل الكثيرة والبركات العظيمة، ومن أجل ذلك إبطال العرف السائد في الجاهلية بعدم جواز تزويج الرجل الحسيب النسب بزوجة دَعيُّه إذا طلقها الداعي؛ فأبطل الله تعالى ذلك العرف الفاسد، وهذا الموروث السرطاني الذي يبدد أواصر المجتمع ومن هنا كان في ذلك رفع الحرج عن الأمة، وكفى بذلك فضل ونعمة.

رابعا: كانت رضي الله تعالى عنها مستجابة الدعوة.

خامسا: كانت رضي الله تعالى عنها من سادات النساء دينا وورعا وجودا ومعروفا وكرما؛ فكانت مضرب المثل في الإنفاق والدقة حتى لقبت بأم المساكين، وحق لها ذلك.

سادسا: كانت لها منزلة وزلفى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد شهدت بذلك عائشة رضي الله تعالى عنها وكفى بها شهادة.

سابعا: كانت رضي الله تعالى عنها خاشعة متضرعة عابدة راضية صوامة قوامة كثيرة فعل الخيرات.

ثامنا: أول من صنع لها النعش ودفنت بالبقيع ولى عليها عمر رضي الله عنه.

تاسعا: كانت رضي الله تعالى عنها من رووا الحديث؛ فقد بلغ مسندها إلى إحدى عشر حديثا.

عاشرا: كانت أول نساء النبي صلى الله عليه وسلم لحوقا به؛ وبذلك تحققت نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:**{أسرعكن بي لحوقا أطولكن باعا أو يدا}**.

حادي عشر: ماتت رضي الله تعالى عنها في سنة عشرين من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *

قصة عائشة

قصص النساء في القرآن

[18] قصة عائشة رضي الله تعالى عنها

قال الله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور: ١١].

***

ملخص القصة:

هي أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق - رضي الله تعالى عنها - وعن أبيها وُلدت قبل الهجرة بسبعة سنين، وقيل بغيرها، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم نكحها قبل الهجرة، ودخل بها بعد الهجرة، وذلك في السنة الثانية بعد انتهائه من غزوة بدر، وكانت أحب نسائه صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الحديث الصحيح أنه لما راجعته أم سلمه، وذكرت له هدايا الصحابة في يوم عائشة، وأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قد غرن منها فقال صلى الله عليه وسلم :{يا أم سلمة لا تؤذني في عائشة فوالله ما نزل الوحي في لحاف واحدة منكن غيرها}؛ فكان هذا من مناقبها، وفضلها - رضي الله تعالى عنها وأرضاها - وحفظت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فجمعت الكثير الطيب، ولذلك عُدت من فقهاء الصحابة وانتهت إليها الفتوى، فكانت أمور النبي صلى الله عليه وسلم في بيته وأهله لا يُسأل عنها إلا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ولذلك قال أبو موسي الأشعري رضي الله عنه : ما اختلف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في شيء فرجعوا إلى عائشة - رضي الله

تعالى عنها - إلا ووجدوا عندها منه علما، وكانت آية في الفقه والعلم والفهم، ولذلك اعتبرها العلماء من فقهاء الصحابة - رضي الله تعالى عنها - وكان آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن توفي بين ثحرها ونحرها، وتوفي وهو عنها راض.

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت كثيرة التهجد، والعبادة، كثيرة الصلاة، والصيام، والقيام، ومع هذا كله كان يأتيها العطاء من معاوية رضي الله عنه وعنها وهو يبلغ الألوف فتفرقها فما تغيب الشمس وعندها من هذا العطاء شيئًا، وربما كانت صائمة فأفطرت على كسرة من الخبز لا تجد ما تَطعَمه من شدة فقرها مع أنها كانت غنية في أول يومها من العطاء، وذلك ليس بغريب عنها فهي من بيت جود وكرم فأبوها الصديق كان على تلك السيرة المرضية السوية رضي الله عنهم وتوفيت سنة 56 هـ أو 57 هـ رحمها الله تعالى برحمته الواسعة.

حادثة الإفك:

وهي سبب نزول قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾} [النور: ١١].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا اقرع بين نسائه، فأتيهن خرج سهمها خرج بها معه؛ قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فاقرع بيننا في غزوة غزاها - وهي غزوة بني المصطلق، وكانت سنة 5 أو 6 هـ - فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب؛ فأنا احمل في هودجي وانزل فيه مسيرنا، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه

وسلم من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة أذن ليله بالرحيل، فقمت حين آذنوني بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش.

فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل فلمست صدري؛ فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت التمس عقدي فحبسني ابتغاؤه، واقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت اركب وهم يحسبون أني فيه، قالت عائشة: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدوا عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب.

فتيممت (أي: قصدت) منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني ويرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني حين رآني، وكان يعرفني قبل فرض الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي.

والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير انه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون حتى أناخ راحلته فوطيء على يدها فركبتها، فانطلق بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، وهالك من هالك في، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول.

استطراد قبل أن تكمل قصتها رضي الله عنها: قال هذا الخبيث كلمة خبيثة

مثله؛ قال: والله ما برأت منه وما برأ منها؛ كلمة خبيثة من شخص خبيث، وصدق الله تعالى إذ يقول:{وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعراف: ٥٨]؛ فكل بئر ينضح بما فيه.

تقول رضي الله تعالى عنها: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمتها شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا اشعر شيء من ذلك، والذي جعلني لا اعرف وأنا متعبة اللطف الذي كنت أراه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتكي؛ إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ فذلك يحزنني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهن وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً؛ وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا؛ فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شاننا فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس لعمر الله ما قلت.

أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟

قالت: أي هنتاه، أو لم تسمعي ما قال؟

قلت: وماذا قال؟

فأخبرتي بقول أهل الإفك؛ فازددت مرضًا إلى مرضي؛ فلما رجعت إلى بيتي، ودخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: كيف تيكم؟

قلت: تأذن لي أن آتي أبواي؟ قالت: وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر

من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فجئت أبوي فقلت: يا أماه، ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله أوقد تحدث أليس بهذا؟، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: نعم قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله هم أهلك، وما نعلم إلا خيرا.

وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله تعالى عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: يا بريرة، هل رأيت شيئا يريبك من عائشة؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال، وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا. وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من

إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، إنك لمنافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها وجلست تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك، إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة فانه بلغني عنك كذا وكذا؛ فان كنت بريئة فسيبرئك الله، وان كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا، وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئني الله تعالى بها. قالت: فو الله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم منزله، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أنزل عليه من الوحي قالت: فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سري عنه وهو يضحك وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما والله لقد برأك الله، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني.

قالت: فأنزل الله سبحانه وتعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾} [النور: ١١]؛ فلما أنزل الله تعالى هذه الآيات في

براءتي قال أبو بكر الصديق - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره - والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة: قالت: فأنزل الله تعالى:{ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)} [النور: ٢٢].

فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدا، رواه البخاري ومسلم، كلاهما عن أبي الربيع الزهراني.

ما يؤخذ من هذه القصة:

أولا: قال علماؤنا حفظهم الله تعالى: اتفق الفقهاء على أن من قذف عائشة رضي الله تعالى عنها، فقد كذب صريح القرآن الذي نزل بحقها، وهو بذلك كافر [1]؛ قال الله تعالى في حديث الإفك بعد أن برأها الله تعالى منه:{ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)} [النور: ١٧]؛ فمن عاد لذلك فليس بمؤمن [2].

ولذلك الروافض الذين يسبون في أمنا عائشة الآن كفرة؛ لأنهم بسبها إياها يكذبون القرآن الكريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: محنة الروافض محنة اليهود؛ وذلك للأمور الآتية:

الأول: اليهود قالوا: لا يصلح الملك إلا في آل داود وقالت الشيعة: لا

---

(1) ابن عابدين 4 / 237، وفتاوى السبكي 2 / 552، والإقناع 4 / 299، والخرشي 8 / 74، والصارم المسلول 571.
(2) الصارم المسلول 571.

تصلح الإمامة إلا في ولد على رضي الله عنه.

الثاني: وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال وينزل السيف، وقالت الشيعة: لا جهاد في سبيل الله تعالى حتى يخرج المهدي وينادي مناد من السماء.

الرابع: واليهود يؤخرون الصلاة إلى اشتباك النجوم، وكذلك الشيعة يؤخرون المغرب إلى اشتباك النجوم. والحديث:{**لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب إلى اشتباك النجوم**}.

الخامس: واليهود حرفوا التوراة وكذلك الشيعة الإثني عشرية حرفوا القرآن.

السادس: واليهود لا يرون المسح على الخفين وكذلك الشيعة الإثني عشرية.

السابع: واليهود تبغض جبريل؛ يقولون: هو عدونا من الملائكة وكذلك الشيعة الإثنى عشرية؛ يقولون: غلط جبريل عليه السلام بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم.

الثامن: وكذلك الشيعة الإثنى عشرية وافقوا النصارى في خصلة النصاري؛ ليس لنسائهم صداق إنما يتمتعون بهن تمتعا وكذلك الشيعة الإثني عشرية يتزوجون بالمتعة ويستحلونها.

وفضلت اليهود والنصارى على الشيعة الإثني عشرية بخصلتين:

الأولى: سُئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسي.

الثانية: سُئلت النصاري: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواريو عيسى.

وسئلت الشيعة الإثني عشرية: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: إنهم خالفوا الحق في وجوه ثلاثة:

الأول: قالوا: يجوز مسح الرجل المكشوفة بدلاً عن غسلها.

الثاني: جعلوا الكعبين هما العظمتان البارزتان على ظهر القدم.

الثالث: منعوا من المسح على الخفين.

وكل هذا ثابت وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه ممن روي المسح على الخفين وهذا يدل على أن القوم يتبعوا أهواءهم.

والروافض طوائف عديدة ذكرها أهل العلم - رحمهم الله تعالى - ونذكرها هنا على سبيل ذكر الشيء بالشيء؛ قال أبو الحسين الملطي - رحمه الله تعالى - إن أهل الضلال الرافضة اثنا عشرة فرقة:

الفرقة الأولى: الغالية من السبئية وغيرهم وهم أصحاب عبد الله بن سبأ:

قالوا لعلى رضي الله عنه : أنت أنت، قال: ومن أنا؟ قالوا: الخالق البارئ؛ فاستتابهم فلم يرجعوا فأوقد لهم نارا ضخمة وأحرقهم وقال مرتجزا:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا ::: أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد بقي منهم إلى اليوم طوائف يقولون ذلك ويتلون من القرآن: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾} [القيامة: ١٧ - ١٨]، وهم يقولون: إن عليا ما مات! ولا يجوز عليه الموت، وهو حي لا يموت، ويقال لما جاءهم نعي على رضي الله عنه إلى الكوفة قالوا:

لو أتيتمونا بدماغه في سبعين قارورة لم نصدق بموته؛ فبلغ ذلك الحسن بن على رضي الله عنهما فقال: فلم ورثنا ماله وتزوج نساؤه.

الفرقة الثانية من السبئية؛ يقولون: إن عليا لم يمت وإنه في السحاب وإذا نشأت سحابة بيضاء صافية منيرة مبرقة مرعدة قاموا إليها يبتهلون ويتضرعون ويقولون: قد مر علي بنا في السحاب

الفرقة الثالثة من السبئية؛ يقولون: إن عليا قد مات ولكن يبعث قبل القيامة ويبعث معه أهل القبور حتى يقاتل الدجال ويقيم العدل والقسط في العباد والبلاد وهؤلاء لا يقولون إن عليا هو الله ولكن يقولون بالرجعة.

الفرقة الرابعة من السبئية؛ يقولون: بإمامة محمد بن على، ويقولون: هو في جبال رضوى ولم يمت ويحرسه على باب الغار الذي هو فيه تنين وأسد وإنه صاحب الزمان يخرج ويقتل الدجال ويهدي الناس من الضلالة ويصلح الأرض بعد فسادها.

وهؤلاء كلهم أحزاب الكفر وفرق الجهل؛ فمتى لم يقروا بموت محمد صلى الله عليه وسلم وعلي عليهما السلام فالضرورة إلى المكابرة وأينما كانوا لا حجة لهم، وأما قولهم: إن عليا هو الإله القديم فقد ضاهوا بذلك قول النصارى. وقولهم على رضي الله عنه في السحاب؛ فإنما ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلى رضي الله عنه :**{أقبل}** وهو معتم بعمامة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تدعى السحاب؛ فقال:**{قد أقبل على في السحاب}**؛ يعني في تلك العمامة التي تسمى السحاب؛ فتأولوه هؤلاء على غير تأويله.

الفرقة الخامسة هم القرامطة والديلم؛ وهم يقولون: إن الله نور علوي لا

تشبهه الأنوار ولا يمازجه الظلام وإنه تولد من النور العلوي النور الشعشاني؛ فكان منه الأنبياء والأئمة؛ فهم بخلاف طبائع الناس وهم يعلمون الغيب ويقدرون على كل شيء ولا يعجزهم شيء ويقهرون ولا يقهرون، ولهم علامات معجزات وأمارات ومقدمات قبل مجيئهم وظهورهم وبعد ظهورهم يعرفون بها وهم مباينون لسائر الناس في صورهم وأطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم. ووصفوا الله تعالى بالنفي لا بالإثبات فقالوا: لا نقول: هو حي ولكن نقول: ليس بميت.

وزعموا ما يلي؛ أولاً: الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض، وإنما هو شكر للمنعم وأن الرب لا يحتاج إلى عبادة خلقه وإنما ذلك شكرهم؛ فمن شاء فعل ومن شاء لم يفعل والاختيار في ذلك إليهم.

ثانيًا: أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور؛ فمن مات بلى جسده ولحق روحه بالنور الذي تولد منه حتى يرجع كما كان.

ثالثًا: أن كل ما ذكر الله عز وجل في كتابه من جنة ونار وحساب وميزان وعذاب ونعيم؛ فإنما هو في الحياة الدنيا فقط من الأبدان الصحيحة والألوان الحسنة والطعوم اللذيذة والروائح الطيبة والأشياء المبهجة التي تنعم فيها النفوس. والعذاب هو الأمراض والفقر والآلام والأوصاب وما تتأذي به النفوس وهذا عندهم الثواب والعقاب على الأعمال وهو يقولون: بالناسوت في اللاهوت على قول النصارى سواء يزعمون أن الإنسان هو الروح فقط وأن البدن هو مثل الثوب الذي هو لابسه فقط.

رابعًا: أن كل ما يخرج من جوف واحد منهم من مخاط ونخاع

ورجيع وبول ونطفة ومذي ودم وقيح وصديد وعرق فهو طاهر نظيف حتى ربما أخذ بعضهم من رجيع بعض فأكله لعلمه أنه طاهر نظيف (أنوار الولاية ص 440).

خامسًا: أن من قال بهذا القول واعتقد هذا المذهب فهو مؤمن ونساؤهم مؤمنات محقنو الدماء محقنو الأموال، ومن خالفهم في قولهم واعتقادهم فهو كافر مشرك حلال الدم والمال والسبي، ويسمى بعضهم بعضا المؤمنين والمؤمنات.

سادسًا: أن نساء بعضهم حلال لبعض وكذلك أولادهم وأبدانهم مباحة من بعضهم لبعض لا تحظير بينهم ولا منع؛ فهذا عندهم محض الإيمان حتى لو طلب رجل منهم من امرأة نفسها أو من رجل أو من غلام فامتنع عليه فهو كافر عندهم خارج من شريعتهم، وإذا أمكن من نفسه فهو مؤمن مواس فاضل، والمفعول به من الرجال والنساء أفضل عندهم من الفاعل حتى يقوم الواحد منهم من فوق المرأة التي لها زوج وليست بمحرم فيقول لها: طوبا لكي يا مؤمنة! وهكذا يقولون للرجل والغلام إذا أمكن من نفسه وكذلك أموالهم وأملاكهم لا يحظرونها من بعض على بعض مباحة بينهم وهم في الحرب لا يدبرون حتى يقتلوا ويقولون: حياة بعد القتل والموت إنا نخلص أرواحنا من قذر الأبدان وشهواتها ونلحق بالنور وهم يرون قتل من خالفهم لا يتحاشون من قتل الناس وليس عندهم في ذلك شيء يكرهونه؛ فأما شرب الخمور والمنكر والملاهي وسائر ما يفعله العصاة فهو عندهم شهوات إن شاء فعلها وإن شاء تركها، ولا يرون فيها وعيدا ولا في تركها ثوابا.

الفرقة السادسة هم الحلولية؛ يقولون: إن الله عز وجل نور على الأبدان

والأماكن، وزعموا ما يلي؛ **أولاً**: أن أرواحهم متولدة من الله القديم وأن البدن لباس لا روح فيه ولا ألم عليه ولا لذة له.

ثانيًا: أن الإنسان إذا فعل الخير ومات صار روحه إلى حيوان ناعم مثل فرس وطير وثور مودع يتنعم فيه ثم يرجع إلى بدن الإنسان بعد مدة وإذا كان نفسا خبيثة شريرة ومات صار روحه في بدن حمار دبر أو كلب جرب يعذب فيه بمقدار أيام عصيانه ثم يرد إلى بدن الإنسان لم تزل الدنيا هكذا ولا تزال تكون هكذا.

الفرقة السابعة من الحلولية؛ يقولون: إن الله تبارك وتعالى بعث جبريل إلى على فغلط جبريل عليه السلام وصار إلى محمد صلى الله عليه وسلم فاستحيا الرب وترك النبوة في محمد وجعل عليا رضي الله عنه وزيره والخليفة بعده.

الفرقة الثامنة من الحلولية؛ وهؤلاء زعموا أن عليا رضي الله عنه ومحمدا صلى الله عليه وسلم شريكان في النبوة وأن الرسالة إليهما وأن طاعتهما ومعصيتهما واحد لا فرق بينهما وأن عليا رضي الله عنه نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلى:**{أنت مني بمنزلة هارون من موسي}**، وهؤلاء جهال وقد خالفوا الأمة والكتاب والسنة والعقل [1].

الفرقة التاسعة هم المختارية؛ يقولون: بنبوة المختار بن أبي عبيد.

الفرقة العاشرة هم السمعانية؛ يقولون: بنبوة ابن سمعان.

الفرقة الحادية عشرة هم الجارودية؛ يقولون: بانتقال الروح من جسد

---

(1) انظر القول بالحلول والاتحاد في مصباح الهداية (ص 1، 134، 142، 114، 148، 149، 145).

إنسان رديء إلى جسد إنسان مؤلم ممرض فتعذب فيه مدة بما عمل من الشر والفساد ثم تنقل إلى جسد إنسان متنعم فتتنعم فيه طول ما بقيت في الجسد الأول، وزعموا أن هذا يسمى الكور فيكون معذبا أو مقيدا في جسد هرم أو ممرض أو مسقم أو يكون منعما في جسد شاب حسن متلذذ واحتجوا في ذلك بقول الله:{أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾} [ق: ١٥]؛ وهؤلاء قد غلطوا في تأويل هذه الآية؛ وإنما تأويلها أن قريشا ومشركي العرب كانوا يشكون في النشأة الآخرة ويوقنون بالنشأة الأولى، ولا يجيزون قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، فقال الله عز وجل يحتج عليهم بالنشأة الأولى:{أَفَعَيِينَا}؛ أي: عجزنا بالخلق الأول؛ يعني أن ابتدعته من غير شيء وهم لا يشكون فيه{بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ}؛ أي: شك من خلق جديد؛ أي: ابتداع الشيء أقرب في الوهم من إعادته وهؤلاء تأولوه على الأكوار.

أقول: واعلم أن هؤلاء الفرق من الإمامية الذين ذكرناهم كفار غالية قد خرجوا من التوحيد والإسلام.

الفرقة الثانية عشر هم أصحاب هشام بن الحكم؛ يعرفون بالهشامية وهم الرافضة الذين روى فيهم الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يرفضون الدين وهم مشتهرون بحب على رضي الله عنه فيما يزعمون وكذب أعداء الله تعالى وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم وإنما يحب عليا رضي الله عنه من يحب غيره وهم أيضا ملحدون؛ لأن هشاما كان ملحدا دهريا ثم انتقل إلى الثنوية والمانية ثم غلبه الإسلام فدخل في الإسلام كارها فكان قوله في الإسلام بالتشبيه والرفض؛ أما قوله بالإمامة فلم نعلم أن أحدا

نسب إلى على رضي الله عنه وولده عيبا مثل هشام لعنه الله وما قصد هشام بقوله في الإمامة قصد التشيع ولا محبة أهل البيت ولكن طلب بذلك هدم أركان الإسلام والتوحيد والنبوة.

اعتقاد الشيعة الإثنى عشرية في القرآن الكريم:

اعتقاد تحريف القرآن الكريم؛ يقول الله تعالى:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) } [الحجر: ٩].

يقول الشيعة: إن القرآن الذي عندنا ليس هو الذي أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، بل جرى عليه التبديل والتغير، وزيد فيه ونقص منه، وجمهور المحدثين من الشيعة يعتقدون التحريف في القرآن كما ذكر ذلك النوري الطبرسي صاحب كتاب (**فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب**) وهو كتاب شامل مفصل بحث فيه المحدث الشيعي بحثًا وافيًا في إثبات تحريف القرآن - بزعمه - وأورد فيه أكثر من ألفي رواية من الروايات الشيعية المعتمدة في كتبهم تفيد القول بالتحريف والنقص، وأن لا اعتماد على هذا القرآن بين أيدي المسلمين اليوم. ورد الطبرسي على من أنكر أو أظهر التناكر من الشيعة. وقد كافأت الشيعة الطبرسي في إثبات أن القرآن محرف بأن دفنوه في مكان متميز من بناء المشهد العلوي في النجف.

ومما استشهد به النوري الطبرسي على وقوع النقص بالقرآن؛ إيراده في الصفحة 180 من كتاب سورة الشيعة (سورة الولاية) مذكور فيها ولاية علي رضي الله عنه؛ وهذا نصها: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنبي والولي الذين بعثناهما يهديانكم إلى الصراط المستقيم * نبي وولي بعضهما من بعض وأنا العليم الخبير * إن الذين يوفون بعهد

الله لهم جنات النعيم * والذين إذا تليت عليهم آيتنا كانوا بآياتنا مكذبون * إن لهم في جهنم مقامًا عظيمًا إذا نودي لهم يوم القيامة أين الظالمون المكذبون للمرسلين * ما خلقتهم المرسلين إلا عني وما كان الله ليظهرهم إلى أجل قريب وسبح بحمد ربك وعلي من الشاهدين). تعالى الله عما يقولون ويفترون.

بعض أقوال شيوخهم في إثبات تحريف القرآن؛ يذكر صاحب (الكافي): "... رفع إلى أبي الحسن مصحفًا وقال: " لا تنظر فيه؛ ففتحته وقرأت فيه{لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ } [البينة: ١]، فوجدت فيها - أي: السورة - اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم " [(1)].

وفي الكافي كذلك (ج 1 / 412): عن جابر، عن أبي جعفر عليهما السلام قال: قلت له: لم سمي أمير المؤمنين - أي علي بن أبي طالب -؟ قال: " الله سماه هكذا؛ أنزل في كتابه: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم وأن محمدًا رسولي وأن عليًا أمير المؤمنين).

فإضافة هذه الزيادة على الآية الكريمة (وأن محمدًا رسولي وأن عليًا أمير المؤمنين) واعتبارها من القرآن؛ هو عين القول بالتحريف.

عقيدة الشيعة في السنة:

الشيعة يردّون كتب السنة جملة وتفصيلاً؛ فلا يعتبرونها ولا يقرّونها؛ لأن رواتها كفار - بزعمهم - وترتب على ردهم للسنة أن يوجدوا بدائل، وهذه البدائل هي أقوال الأئمة - المعصومين عندهم الذين لا يخطئون عمدًا ولا سهوًا ولا نسيانًا طول حياتهم، ولا فرق في ذلك بين سن

(1) الكافي (ج 2 / 261).

الطفولة وسن النضج العقلي، ولا يختص هذا بمرحلة الإمامة؛ يقول الخميني: إن الأئمة الذين لا نتصور فيهم السهو والغفلة ونعتقد فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين (الحكومة الإسلامية ص 52) - لذلك لا تجد لهم في كتبهم من الأحاديث ما هو مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم إلا نادرًا خصوصًا كتب الفقه الشيعي، لا تجد فيها عن فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكل الروايات تسند عن أئمتهم.

عقيدة الشيعة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تقوم عقيدة الشيعة الإثنى عشرية على سب وشتم وتكفير الصحابة رضي الله عنهم. ذكر الكليني في (فروع الكافي) (كذبًا) عن جعفر: " كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة؛ فقلت: من الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي ". وذكر المجلسي في (حق اليقين) أنه قال لعليّ بن الحسين مولى له: " لي عليك حق الخدمة فأخبرني عن أبي بكر وعمر؟ فقال: إنهما كانا كافرين، الذي يحبهما فهو كافر أيضًا ". وفي تفسير القمي عند قوله تعالى:{وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]؛ قالوا: الفحشاء أبو بكر، والمنكر عمر، والبغي عثمان. ويقولون في كتبهم (مفتاح الجنان): " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد والعن صنمي قريش وجبتَيهما وطاغوتيهما وابنتيهما... الخ " ويعنون بذلك أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم.

وفي يوم عاشوراء يأتون بكلب أسود ويسمونه عمر، ثم ينهالون عليه ضربًا بالعصى ورجمًا بالحجارة حتى يموت، ثم يأتون بسلخة

(الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد) ويسمونها عائشة، ثم يبدؤون بنتف شعرها وينهالون عليها ضربًا بالأحذية حتى تموت.

قال الخميني في وصيته (الوصية السياسية: الخميني ص 23): وأنا أزعم بجرأة أن الشعب الإيراني بجماهيره المليونية في العصر الراهن **أفضل من أهل الحجاز في عصر رسول الله**، ويقول هذا الخبيث الكافر في سبه لخير الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم : إننا هنا لا شأن لنا بالشيخين، **وما قاما به من مخالفات للقرآن ومن تلاعب بأحكام الإله، وما حللاه وما حرماه من عندهما، وما مارساه من ظلم ضد فاطمة بنت** النبي صلى الله عليه وسلم **وضد أولادهما**، ولكننا نشير إلى جهلهما بأحكام الإله والدين.

لعنة الله تعالى على هؤلاء الذين قالوا:

* إن النبي صلى الله عليه وسلم مارس المتعة؛ فقد قال بعض كفارهم في قول الله تعالى:{وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾} [التحريم: ٣]؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بالحرة متعة فاتهمته إحدى زوجاته بالفاحشة، فقال لها: إن هذا نكاح لأجل، وقد أحله الله تعالى لي فاكتميه عني. أعوذ بالله تعالى من هذا الكفر.

* إن النبي صلى الله عليه وسلم زوج عثمان رضي الله عنه من ابنتيه خوفًا من شره عليه وعلى الإسلام. أعوذ بالله تعالى من هذا الكفر.

* إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع لسانه على فم فاطمة رضي الله تعالى عنها.

* فيه صفات عند الإمام الحسين أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فالحسين أبوه عليّ وأمه فاطمة وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فأمة آمنة، وأبوه عبد الله، وجده عبد المطلب، ولا شك أن عليًا وفاطمة والرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من آمنة وعبد الله وعبد المطلب، ومن هنا يوجد صفات في الحسين رضي الله عنه أفضل من النبي. أعوذ بالله تعالى من هذا الكفر.

* إن عليًا رضي الله عنه ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذ عائشة فقالت له: يا علي أما وجدت مكانًا تجلس عليه إلا فخذي. أعوذ بالله تعالى من هذا الخبيث.

* يجب أن نعرف أن التضحية التي ضحى بها الحسين لم يقم بها أحد من الأنبياء.

* قال بعض كفارهم في قول الله تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [البقرة: ٢٦]؛ البعوضة هو علي رضي الله عنه، وما فوقها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* حسن شحاته الشيعي يسخر من زواج النبي صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة بنت أبي سفيان؛ يقول هذا الكافر اللعين: حد يناسب أبو سفيان؛ فهو أبغض خلق الله تعالى إلى الله تعالى، لو كان الواحد هيفضل طول العمر بدون زواج ولم يوجد إلا بنت أبو سفيان ما تزوجها، ومع ذلك تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أبو سفيان، ولكن اكتفاءً من شره.

* قال الخميني (كشف الأسرار صـ 155): إن الأنبياء فشلوا في

دعوتهم ولم ينجحوا في نشر العدالة، حتى النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين الذي جاء لإصلاح العدالة لم ينجح في نشر العدالة، وإنما ينجح المهدي في نشر العدالة.

* قال الخميني: وواضح أن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان قد بلغ ما أمر الله تعالى به لما كانت هذه الخلافات.

* جاء في الكافي (ج 1 / 48): لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم مكث أيامًا ليس له لبن؛ فألقاه الله تعالى على ثدي أبو طالب فشرب منه ثم دفعه إلى حليمة السعدية.

* قال حسن شحاته: النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان بمفرده يضرب ويهان وإذا كان مع عليّ رضي الله عنه لا يستطيع أحد أن يمس طرفه.

* قال حسن شحاته: لعنة الله عليك يا عائشة بعدد أنفاس الناس؛ يا بنت الكلب دخلتي أبو بكر وعمر بجوار النبي صلى الله عليه وسلم.

* قال بعض كفارهم: من جملة أفعال عائشة جريمة جنسية؛ قيل إنها زينت جارية وطافت بها، وقالت: لعلنا نصطاد بها شبابًا من قريش.

* قال بعض كفارهم: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج، قال له جبريل عليه السلام: يا محمد لو تقدمت اخترقت، ولو تقدمت أنا احترقت، فإذا بكف أمير المؤمنين مدت من السماء فرفعت محمدًا صلى الله عليه وسلم.

* قال بعض كفارهم: فاطمة تدخل الجنة قبل محمد صلى الله عليه وسلم.

* قال بعض كفارهم عبد الحميد المهاجر: لولا عليّ ما خلقت الجنة (مشارق الأنوار صـ 188).

* جاء في كشف اليقين صـ 313: عليّ رضي الله عنه على الحوض لا يدخل الجنة إلا من جاء بجواز من عليّ رضي الله عنه.

* جاء في بحار الأنوار (ج 99 / 133): عليّ باب الهدى من خالفه كان كافرًا، ومن أنكره دخل النار.

أقوال أهل السنة في الشيعة الإثنا عشرية:

قال الإمام مالك - رحمه الله تعالى - عن الشيعة: إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء، ولو كان صالحًا كان أصحابه صالحين [1]. وقال رحمه الله تعالى: الذي يشتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له اسم، أو قال: نصيب في الإسلام.

قال الحافظ بن كثير - رحمه الله تعالى - عند قوله سبحانه: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩} [الفتح: ٢٩]: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمة الله عليه - في رواية بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك.

---

(1) الصارم المسلول (ج 3 / 108).

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى -: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله؛ **فمن نقص واحد منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين.**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - **معلقًا على ما قاله أئمة السلف**: " وأما الشيعة الإثنى عشرية فأصل بدعتهم زندقة وإلحاد وتعمد الكذب كثير فيهم، وهم يقرون بذلك حيث يقولون: ديننا التقية؛ وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما في قلبه؛ وهذا هو الكذب والنفاق فهم في ذلك كما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - في كتاب السنة للإمام أحمد بن حنبل ص 82: ليست الرافضة من الإسلام في شيء.

عندما ناظر النصارى الإمام ابن حزم وأحضروا له كتب الرافضة للرد عليه لإثبات التحريف في القرآن قال عن الرافضة: إن الرافضة ليسوا مسلمين، وليس قولهم حجة على الدين، وإنما هي فرقة حدث أولها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة، وكان مبدؤها إجابة ممن خذله الله تعالى لدعوة من كاد الإسلام، وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في التكذيب والكفر.

قال الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - **في خلق أفعال العباد للإمام البخاري ص 125**: ما أبالي صليتُ خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يُسلم عليهم ولا يُعادون ولا يُناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم.

قال الإمام أبو زرعة الرازي - رحمه الله تعالى - **في كتاب الفرق بين الفرق ص 356**: إذا رأيت الرجل ينقص أحدًا من أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق.

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى -: إن أصل دعوة الروافض كيد الدين ومخالفة الإسلام وبهذا يتبين أن كل رافض خبيث يصير كافرًا بتكفيره لصحابي واحد فكيف بمن يكفر كل الصحابة واستثنى أفرادًا يسيره [1].

أخي طالب العلم الحبيب هذا بعض مقتطفات عن الشيعة الكفرة، والكتاب ليس محله عن الكلام عن هؤلاء الخبثة، ولكن أحببت أن أنوه إلى بعض معتقادتهم الكافرة لكي تحذروا منهم ومن خميني العرب في هذا العصر ألا وهو حسن نصرة الشيعي زعيم حزب الشيطان الذي تربى في إيران على يد الخميني الذي كفره علماء المسلمين بل يعلن حزب الله دائمًا أن الخميني الكافر هو المرشد الروحي لهم.

ثانيًا: قال علماؤنا حفظهم الله تعالى: يؤخذ من حادثة الإفك أن طالب العلم يجب عليه أن يصبر إذا سمع ما يضره من أذى الناس؛ لأن طالب العلم لا بد وأن يقال فيه، فهذا الإمام البخاري - رحمه الله تعالى برحمته الواسعة - بالرغم من أن العلماء اتفقوا على أن كتابه من أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ومع ذلك طعن في عقيدته؛ فقال أهل سمرقند: إنه يقول بخلق القرآن.

وانقسموا إلى قسمين؛ قسم يقول بدخوله، وقسم يمنع دخوله حتى كاد أن يقتتلوا فلما بلغه الخبر قال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك فقبض في ذلك الشهر، وهذا أبو هريرة رضي الله عنه الذي

---

(1) انظر نثر الجوهر على حديث أبي ذر.

يلقب بحافظ الصحابة اتهم بأنه يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى برحمته الواسعة - فإن زعماء مصر اتفقوا على أنه مباح الدم، ووقعُوا على ذلك، وصدق من قال:

تا الله لو صحب المرأ جبريلَ ::: لا بد من قال وقيلَ
قد قيل في الله أسماء مسماة ::: تتلى إذا رتل القرآنُ ترتيلَ
قد قيل إن له صاحبةً ::: تعالى الله عما قيلَ

وعلى طالب العلم أن لا يلتفت إلى عيوب الناس؛ فالواجب عليه أن ينشغل بنفسه، وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

قال الإمام مالك - رحمه الله تعالى برحمته الواسعة -: أعرف أُناسًا لا عيوب عندهم تكلموا في الناس فأوجدوا لهم عيوبًا، وأعرف أُناس عندهم عيوب سكتوا عن عيوب الناس فسكت الناس عن عيوبهم. قال ابن القيم - رحمه الله تعالى برحمته الواسعة - في الفوائد: أخسر الناس صفقة من اشتغل بنفسه عن الله تعالى، وأخسر منه صفقة من اشتغل بالناس عن نفسه. قال الشاعر:

عليك نفسك فاشتغل بمعانيها ::: ودع عيوب الناس للناس

وهذا في العيوب القاصرة؛ أما العيوب المتعدية؛ كمن يفتح بيته للزنا أو الخمر ونحو ذلك فهؤلاء يجب على الناس الإنكار عندهم.

وأقول لطالب العلم: ما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته، وجاهل لأخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته. والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة؛ إذا تفضل الله تعالى بالرحمة، وتمم على عبده النعمة؛ فأما المدافعة والإهمال، وحب الهوى والاسترسال، وإيثار الخفض والدَّعَةِ، والميل مع الراحة

والسعة؛ فإن خواتم هذه الخصال ذميمة وعقابها كريهة وخيمة.

ثالثًا: ولا يجوز للإنسان أن يكون جريئًا على نقل الكلام ولمز الناس والطعن فيهم، ومن كانت في نفسه طمأنينة إلى نقل المقادح والطواعن والجرح في الناس فليعلم أن في قلبه مرضًا فيسأل الله عز وجل أن يسلمه من هذا المرض، فلا يزال هذا المسكين ينقل القدح في العلماء وأهل الفضل حتى تصيبه دعوة في سهام الليل تشقيه في دنياه وأخراه، ولذلك ثبت عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما قام الرجل فقال لعمر: أما قد سألتنا عن سعد لا يمشي بالرعية ولا يقسم بالسوية، فقال سعد رضي الله عنه : اللهم إن كنت تعلم أنه كاذب فأطل عمره وأعمي بصره وعرضه للفتن، فبلغ أكثر من مئة سنة يتغزل النساء في الكوفة فتقول له النساء: ألا تتقي الله؟ فقال: شيخ أصابته دعوة رجل صالح.

فالطعن في عقائد الناس لا يجوز إلا عن حجة وبرهان، وينبغي للإنسان أن يتثبت ويتحوط، ومن أحب عقيدة السلف وحرص عليها فإنه يتقي الله تعالى أن يخدش عن عقيدة أحد إلا عن بينة وسلطان، ولا يجوز للإنسان أن يصنف الناس على حسب مراتبهم فيطعن في عقيدة هذا ومنهج هذا ورأى هذا وفكر هذا دون حجة وبرهان. وقف الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - عند أحد القضاة، فقال القاضي: قد شهد عليك فلان، فقال الرجل: إنه مجروح، قال ائتي بشاهد، فجاء بشاهد يجرح في الشاهد الذي شهد عليه، فقال ما تقول فيه؟ قال: إنه مجروح، قال القاضي: بأي شيء جرحته؟ فقال الشاهد: أنا أعرف الذي يجرحه، فقال له القاضي: لا أقبل حتى تبين لي وجه الجرح، يقول الإمام الشافعي: فما زال القاضي يصر على أن يبين له وجه

الجرح، فقال له: رأيته يبول قائما، فقال له القاضي: وما عساه أن يبول قائما، قال: إنه يصيب البول ثوبه فتبطل صلاته، فقال له القاضي الفقيه: هل رأيته أصاب الثوب بوله وعلم وصلى بذلك؟!

فينبغي للإنسان أن يتقي الله عز وجل؛ قال الله تعالى:{سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ} [الزخرف: ١٩]، والله ما من إنسان يحمل لمزة في إنسان سواء كانت في دينه ودنياه إلا كانت شهادة عليه وسيقف بين يدي الله تعالى ويسأل عنها، وقد قال عز وجل في الإفك وهو قدح في العرض فقط:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾} [النور: ٢٣]؛ فأخبر الله تعالى أنهم ملعونون في الدنيا والآخرة، وهذا في العرض الغير مخرج من الملة، فما بالكم بمن يكفر الناس، قال صلى الله عليه وسلم :{من كفر مسلما فقد كفر}؛ فيجب على الإنسان ألا يقدح في أهل السنة والجماعة.

واعلم أيها الأخ الكريم أن ما يسلم أهل العلم من القدح، وكلما عظم شأن الإنسان عند الله تعالى كلما قدح فيه؛ قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾} [الأحزاب: ٦٩]؛ انظر كيف قدح الناس في موسى لكن من الذي تولى براءته إنه الله تعالى. ولذلك قال بعض العلماء: إن من دلالة الواجهة عند الله تعالى أن يؤذي الإنسان بما ليس فيه؛ فأهل العلم هم النجوم وهم الشموس الذين بهم يهتدي، فليحذر طالب العلم التجرأ على العلماء. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

رابعًا: يؤخذ من حادثة الإفك مشروعية الغيرة على الأهل؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع هذا الكلام عن زوجته غار عليها غيرة شديدة وحزن حزنًا شديدًا؛ والغيرة تكون محمودة شرعًا إذا كانت

موضوعة في مكانها التي تحمل على صيانة العرض والدفاع عنه اتقاء لله تعالى وخوفًا من غضبه وعقابه لأن الله تعالى حمل كل ذي عرض بالمحافظة على عرضه؛ وهذه الغيرة ثبتت فيها النصوص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسًا ذات يوم مع أصحابه رضي الله عنهم فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي اهتز عرش الرحمن لموته: والله لو وجدتي مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مفصح؛ فنظر الصحابة رضي الله عنهم إليه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أتعجبون من غيرة سعد إني لأغير منه والله أغير مني، وفي الصحيحين أن الله تعالى يغار وغيرة الله تعالى أن يأتي العبد محارمه.

وعلى كل أخت وكل زوجه وكل أم أن تتقبل هذه الغيرة من وليها وأن تكون موضع الرضا لأنه مما أذن الله تعالى به ورسوله، وكانوا يقولون في الحكمة: ما وضعت الغيرة في الرجال إلا وضعت الصيانة في النساء، وما نزعت الغيرة في الرجال إلا نزعت الصيانة في النساء، والغيرة إذا نزعت من الأمة ضاعت دينًا ودنيا؛ قال صلى الله عليه وسلم :{**ثلاثة لا يدخلون الجنة؛ العاق لوالديه، والديوث، والمرأة المسترجلة**}؛ فذكر صلى الله عليه وسلم الديوث، والدياثة موت في القلب ومرض، وعندها لا يبالي الإنسان والعياذ بالله بزوجته وأمه أو أخته أو بنته؛ تخاطب الرجال وتجالس الرجال، ولربما يقع المحذور فيموت قلبه بالكلية فلا ينكر. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

وهي من كبائر الذنوب وفيها اللعن والعياذ بالله؛ فنسأل أن يعذنا من

سخطه وغضبه وأن يجيرنا من ذلك، فإن من لعنه الله فلن تجد له وليًا ولن تجد له نصير، وإذا لعن العبد ختم على قلبه إلا أن يتداركه الله تعالى برحمته، والغيرة ينبغي على المرأة أن تتقبلها بصدر الرحم، بل عليها أن تحافظ على غيرة وليها؛ ففي الصحيح أن أسماء بنت أبي بكر تقول عن نفسها: إنها كانت تقوم على فرس الزبير رضي الله عنه فكانت تذهب وتحضر النوى من مزرعة الزبير وهي على بعد ثلثي فرسخ؛ فكانت تتحمل المشقة طاعة لزوجها - فانظر كيف كانت النساء في خدمة الزوج وتتشرف وترضي بذلك وتعتز حتى أخرجت للأمة من مشاعل النور من العلماء والصلحاء الأتقياء وما زالت الأمة بخير متى وجدت المرأة الصالحة والزوجة التقية العفيفة التي تحفظ حق بعلها - كانت تمشي هذه المسافة ذاهبة وآيبة من أجل الفرس لكي تطعمه النوى وترعى حق بعلها في هذا؛ ففي يوم من الأيام مر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من الأنصار؛ قالت: فلما رآني أناخ بعيره؛ وفي رواية البخاري قال للبعير: أخُ أخُ حتى ينيخ من أجل أن تركب معه؛ فما كان منها إلا أن قالت: فاستحييت من الرجال، وذكرت غيرة الزبير، وكان أغير الناس. الله أكبر على رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة؟!!!

وفي هذا رد على الذين يتبجحون اليوم ويريدون أن يهدموا أخلاق الناس لماذا هذا التضيق والرجل يخاطب المرأة؛ فهذه الصحابية الجليلة استحيت، ومع من؟ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع من؟ مع الصحابة رضي الله عنهم الذين هم الصفوة الذين تنزل عليهم القرآن، وشهدوا مشاهد التنزيل لو كانت أمة في هذه الأمة أصلح لكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كذلك لأن

النبي صلى الله عليه وسلم زكاهم، وزكاهم الله تعالى من فوق سبع سموات ومع ذلك حافظت على الفطر وبقيت على الأصل؛ فقالت: فاستحييت؛ فيا له من حياء كرم به النساء، ولم تكرم المرأة بدونه، ثم مع ذلك امتنعت أن تكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لغيرة زوجها.

فلماذا تضيق المرأة إذا دخلت إلى محل وجاء زوجها لكي يخاطب الرجل بدلاً عنها، فتقول: هذا يضيق علي، وهذه امرأة قمة في الصلاح والعفة ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتذكر غيرة زوجها وتشيد بذلك، ولا زال الحديث معلمًا من المعالم التي تدل على رجولة الزبير رضي الله عنه وفحولته، وكان يعدل بألف رجل من شجاعته، وكتب عمر بن العاص إلى عمر بعد فتحه لمصر أن ابعث لي ثلاثة آلاف؛ فبعث له ثلاثة رجال؛ كل رجل يعدل بألف؛ الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وخارجة بن حذيفة رضي الله عنهم.

فالمرأة الآن تريد أن تخاطب الرجال؛ فإذا جاء أبوها أو وليها وقال لها: اتقي الله أتولى الأمر عنك؟ قالت له: هذا تضيق، وأنت تسيء الظن بي؛ ولو حافظت المرأة على غيرة قريبها ما تسلط رجل أحد على زوجته؛ فالغيرة لا يلام فيها أحد وإذا كان هذا من الزبير رضي الله عنه لدرجة أن امرأته لا تركب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رعاية لغيرته فما بلك بغيره. وأما الغيرة المذمومة شرعًا؛ فهي التي تحمل على الظلم وسوء الظن والتهم التي لا دليل عليها لأن لا حق للإنسان أن يسيء الظن وأن يحمل البريء على المحامل التي لا دليل عليها فهذا من الظلم الذي حرمه الله تعالى على نفسه وعلى عبادة.

خامسًا: يؤخذ من حادثة الإفك أنه ينبغي للمسلم إذا رأى أحد عند أهله أن يستفسر قبل أن يبادر بالإنكار والاتهام على المحمل السيء؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم سأل عائشة قبل أن يبادر بالحكم عليها؛ فقال لها: يا عائشة إن كنتي فعلت ذلك فاستغفري الله، وهذه هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يبادر بالحكم حتى يعرف العذر؛ ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه صلى بالناس الفجر فرأى رجل لم يصل في القوم؛ فقال:{**يا فلان ما منعك أن تصلي في القوم**}، ولم يقل له: أنت تارك للصلاة، أنت فاعل للمنكر. ومن هنا كل من خالف هذه السنة فإنه يقع في المحذور. نسأل الله تعالى السلامة والعافية. ومن أحسن الظن بالناس وحملهم على المحامل فإن هذا دليل على نقاء سريرته وصلاح قلبه واستقام سيرته فإن التقي النقي السوي لا يسيء الظن بالمسلمين، وتجده دائمًا يعرف من الناس ما يعرف من نفسه.

سادسًا: يؤخذ من حادثة الإفك مشروعية الحجاب؛ ويظهر ذلك في قولها رضي الله تعالى عنها في شأن صفوان بن المعطل السلمي: وكان يعرفني قبل فرض الحجاب، وهذه مسالة اختلف فيها أهل العلم، ولأهمية هذه المسألة واحتياج الناس إلى معرفتها نترك العلامة محمد بن صالح العثيمين يفيض علينا من علمه الغزير ويحدثنا عن هذه المسالة:

قال رحمه الله تعالى: لقد دل دليل الكتاب والسنة على فرضية الحجاب:

أما من القرآن ما يلي:

أولا: قوله تعالى:{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١]؛ وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة ما يلي:

الأول: أن الله تعالى أمر المؤمنات بحفظ فروجهن؛ والأمر بحفظ الفرج أمر به وأمر بما يكون وسيلة إليه؛ ولا يرتاب عاقل أن من وسائلة تغطية الوجه؛ لأن كشفه سبب للنظر إليها وتأمل محاسنها والتلذذ بذلك، وبالتالي إلى الوصول ولاتصال؛ وفي الحديث العينان تزنيان وزناهما النظر إلى أن قال: والفرج يصدق هذا أو يكذبه؛ فإذا كان تغطية الوجه من وسائل حفظ الفرج كان مأمور به لأن الوسائل تأخذ حكم مقاصدها.

الثاني: قوله تعالى:{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى

ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١]؛ فإن الخمار ما تخمر به المرأة رأسها وتغطيه به كالغدفة؛ فإذا كانت مأمورة بأن تضرب الخمار على جيبها كانت مأمورة بستر وجهها؛ إما أنه من لازم ذلك، أو بالقياس؛ فإنه إذا وجب ستر النحر والصدر كان وجوب ستر الوجه من باب أولى؛ لأنه موضع الجمال والفتنة.

فإن الناس الذين يتطلبون جمال الصورة لا يسألون إلا عن جمال الوجه؛ فتبين أن الوجه هو موضع الجمال طلبا وخبرا، فإذا كان كذلك فكيف يفهم أن هذه الشريعة الحكيمة تأمر بستر الصدر والنحر ثم ترخ بكشف الوجه!.

الثالث: إن الله تعالى نهى عن إبداء الزينة مطلقا إلا ما ظهر منها؛ وهي التي لا بد أن تظهر كظاهر الثياب؛ ولذلك قال تعالى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١]؛ لم يقل إلا ما أظهر منها، ثم نهى مرة أخرى عن إبداء الزينة إلا لمن استثناهم؛ فدل هذا على أن الزينة الثانية غير الزينة الأولى؛ فالزينة الأولى هي الزينة الظاهرة التي تظهر لكل أحد، ولا يمكن إخفاؤها، والزينة الثانية هي الزينة الباطنة التي يتزين بها، ولو كانت هذه الزينة جائزة لكل أحد لم يكن للتعميم في الأولى والاستثناء في الثانية فائدة معلومة.

الرابع: أن الله تعالى يرخص بإبداء الزينة الباطنة للتابعين غير أولي

الإربة من الرجال وهم الخدم الذين لا شهوة لهم، وللطفل الصغير الذين لم يبلغ الشهوة ولم يطلع على عورات النساء فدل هذا على أمرين:

أحدهما: أن إبداء الزينة الباطنة لا يحل لأحد من الأجانب إلا لهذين الصنفين.

الثاني: أن علة الحكم ومداره على خوف الفتنة بالمرأة والتعلق بها، ولا ريب أن الوجه مجمع الحسن وموضع الفتنة فيكون ستره واجباً لئلا يفتتن به أولو الإربة من الرجال.

الخامس: قوله تعالى:{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١]؛ يعني لا تضرب المرأة برجلها فيعلم ما تخفيه من الخلاخيل ونحوها مما تتحلى به للرجل، فإذا كانت المرأة منهية عن الضرب بالأرجل خوفاً من افتتان الرجل بما يسمع من صوت خلخالها ونحوه فكيف بكشف الوجه.

فأيما أعظم فتنة أن يسمع الرجل خلخالاً بقدم امرأة لا يدري ما هي وما جمالها؟! لا يدري أشابة هي أم عجوز؟! ولا يدري أشوهاء هي أم حسناء؟! أيما أعظم فتنة هذا أو أن ينظر إلى وجه سافر جميل ممتلئ شباباً ونضارة وحسناً وجمالاً وتجميلاً بما يجلب الفتنة ويدعو إلى النظر إليها؟! إن كل إنسان له إربة في النساء ليعلم أي الفتنتين أعظم وأحق بالستر والإخفاء.

الدليل الثاني: قوله تعالى:{ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن

يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)} [النور: ٦٠].

وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى نفى الجناح وهو الإثم عن القواعد وهن العواجز اللاتي لا يرجون نكاحاً لعدم رغبة الرجال بهن لكبر سنهن. نفى الله الجناح عن هذه العجائز في وضع ثيابهن بشرط أن لا يكون الغرض من ذلك التبرج بالزينة، ومن المعلوم بالبداهة أنه ليس المراد بوضع لثياب أن يبقين عاريات، وإنما المراد وضع الثياب التي تكون فوق الدرع ونحوه مما لا يستر ما يظهر غالباً كالوجه والكفين فالثياب المذكورة المرخص لهذه العجائز في وضعها هي الثياب السابقة التي تستر جميع البدن وتخصيص الحكم بهؤلاء العجائز دليل على أن الشواب اللاتي يرجون النكاح يخالفنهن في الحكم، ولو كان الحكم شاملاً للجميع في جواز وضع الثياب ولبس درع ونحوه لم يكن لتخصيص القواعد فائدة.

وفي قوله تعالى:{غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٦٠]؛ دليل آخر على وجوب الحجاب على الشابة التي ترجو النكاح؛ لأن الغالب عليها إذا كشفت وجهها أن تريد التبرج بالزينة وإظهار جمالها وتطلع الرجال لها ومدحهم إياها ونحو ذلك، ومن سوى هذه نادرة والنادر لا حكم له.

الدليل الثالث: قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)} [الأحزاب: ٥٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: " أمر الله نساء المؤمنين إذا

خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة "؛ وتفسير الصحابي حجة، بل قال بعض العلماء أنه في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله رضي الله عنه :{ويبدين عيناً واحدة}؛ إنما رخص في ذلك لأجل الضرورة والحاجة إلى نظر الطريق فأما إذا لم يكن حاجة فلا موجب لكشف العين.

والجلباب هو الرداء فوق الخمار بمنزلة العباءة. قالت أم سلمة رضي الله عنها لما نزلت هذه الآية: " خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها ".

وقد ذكر عبيدة السلماني وغيره أن نساء المؤمنين كن يدنين عليهن الجلابيب من فوق رؤوسهن حتى لا يظهر إلا عيونهن من أجل رؤية الطريق.

الدليل الرابع: قوله تعالى:{لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾} [الأحزاب: ٥٥].

قال ابن كثير رحمه الله: لما أمر الله النساء بالحجاب عن الأجانب بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب عنهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى:{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١] الآية.

فهذه أربعة أدلة من القرآن الكريم تفيد وجوب احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب، والآية الأولى تضمنت الدلالة عن ذلك من خمسة أوجه.

وأما أدلة السنة فمنها:

الدليل الأول: قوله صلى الله عليه وسلم :**{إذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر منها إذا كان إنما ينظر إليها لخطبة وإن كانت لا تعلم}**. رواه أحمد.

قال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح. وجه الدلالة منه أن النبي صلى الله عليه وسلم، نفى الجناح وهو الإثم عن الخاطب خاصة إذا نظر من مخطوبته بشرط أن يكون نظره للخطبة، فدل هذا على أن غير الخاطب آثم بالنظر إلى الأجنبية بكل حال، وكذلك الخاطب إذا نظر لغير الخطبة مثل أن يكون غرضه بالنظر التلذذ والتمتع به نحو ذلك.

فإن قيل: ليس في الحديث بيان ما ينظر إليه؛ فقد يكون المراد بذلك نظر الصدر والنحر؛ فالجواب أن كل أحد يعلم أن مقصود الخاطب المريد للجمال إنما هو جمال الوجه وما سواه تبع لا يقصد غالباً؛ فالخاطب إنما ينظر إلى الوجه لأنه المقصود بالذات لمريد الجمال بلا ريب.

الدليل الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بإخراج النساء إلى مصلى العيد قلن: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب فقال النبي صلى الله عليه وسلم :**{لتلبسها أختها من جلبابها}**. رواه البخاري

ومسلم وغيرهما؛ فهذا الحديث يدل على أن المعتاد عند نساء الصحابة أن لا تخرج المرأة إلا بجلباب، وأنها عند عدمه لا يمكن أن تخرج. ولذلك ذكرن رضي الله عنهن هذا المانع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما أمرهن بالخروج إلى مصلى العيد فبين النبي صلى الله عليه وسلم، لهن حل هذا الإشكال بأن تلبسها أختها من جلبابها ولم يأذن لهن بالخروج بغير جلباب، مع أن الخروج إلى مصلى العيد مشروع مأمور به للرجال والنساء، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يأذن لهن بالخروج بغير جلباب فيما هو مأمور به فكيف يرخص لهن في ترك الجلباب لخروج غير مأمور به ولا محتاج إليه؟! بل هو التجول في الأسواق والاختلاط بالرجال والتفرج الذي لا فائدة منه. وفي الأمر بلبس الجلباب دليل على أنه لابد من التستر. والله أعلم.

الدليل الثالث: ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يصلي الفجر فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات بمروطهن ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد من الغلس. وقالت: لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من النساء ما رأينا لمنعهن من المساجد كما منعت بنو إسرائيل نساءها؛ وقد روى نحو هذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ والدلالة في هذا الحديث من وجهين:

أحدهما: أن الحجاب والتستر كان من عادة نساء الصحابة الذين هم خير القرون، وأكرمها على الله عز وجل، وأعلاها أخلاقاً وآداباً، وأكملها إيماناً، وأصلحها عملاً فهم القدوة الذين رضي الله عنهم وعمن اتبعوهم بإحسان، كما قال تعالى:{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ

ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾} [التوبة: ١٠٠]؛ فإذا كانت تلك طريقة نساء الصحابة فكيف يليق بنا أن نحيد عن تلك الطريقة التي في اتباعها بإحسان رضي الله تعالى عمن سلكها واتبعها، وقد قال الله تعالى:{وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا } [النساء: ١١٥].

الثاني: أن عائشة أم المؤمنين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وناهيك بهما علماً وفقهاً وبصيرة في دين الله ونصحاً لعباد الله أخبرا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو رأى من النساء ما رأياه لمنعهن من المساجد، وهذا في زمان القرون المفضلة تغيرت الحال عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، إلى حد يقتضي منعهن من المساجد.

فكيف بزماننا هذا بعد نحو ثلاثة عشر قرناً وقد اتسع الأمر وقل الحياء وضعف الدين في قلوب كثير من الناس؟!

وعائشة وابن مسعود رضي الله عنهما فهما ما شهدت به نصوص الشريعة الكاملة من أن كل أمر يترتب عليه محذور فهو محظور.

الدليل الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**}؛ فقالت أم سلمة فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال:{**يرخينه شبراً**}؛ قالت: إذن تنكشف أقدامهن؛ قال:{**يرخينه ذراعاً ولا يزدن عليه**}.

ففي هذا الحديث دليل على وجوب ستر قدم المرأة وأنه أمر معلوم

عند نساء الصحابة رضي الله عنهم، والقدم أقل فتنة من الوجه والكفين بلا ريب؛ فالتنبيه بالأدنى تنبيه على ما فوقه وما هو أولى منه بالحكم، وحكمة الشرع تأبى أن يجب ستر ما هو أقل فتنة ويرخص في كشف ما هو أعظم منه فتنة، فإن هذا من التناقض المستحيل على حكمة الله وشرعه.

الدليل الخامس: قوله صلى الله عليه وسلم :{**إذا كان لإحداكن مكاتب وكان عنده ما يؤدي فلتحتجب منه**}. رواه الخمسة إلا النسائي وصححه الترمذي؛ وجه الدلالة من هذا الحديث أنه يقتضي أن كشف السيدة وجهها لعبدها جائز مادام في ملكها فإذا خرج منه وجب عليها الاحتجاب لأنه صار أجنبياً؛ فدل على وجوب احتجاب المرأة عن الرجل الأجنبي.

الدليل السادس: عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها من رأسها. فإذا جاوزونا كشفناه "، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. ففي قولها: " فإذا جاوزونا " تعني الركبان " سدلت إحدانا جلبابها على وجهها "؛ دليل على وجوب ستر الوجه لأن المشروع في الإحرام كشفه، فلولا وجود مانع قوي من كشفه حينئذ لوجب بقاؤه مكشوفاً.

وبيان ذلك أن كشف الوجه في الإحرام واجب على النساء عند الأكثر من أهل العلم والواجب لا يعارضه إلا ما هو واجب، فلولا وجوب الاحتجاب وتغطية الوجه عن الأجانب ما ساغ ترك الواجب من كشفه حال الإحرام، وقد ثبت في الصحيحين وغيرها أن المرأة المحرمة تنهى عن النقاب والقفازين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن وذلك يقتضي ستر وجوههن وأيديهن.

فهذه ستة أدلة من السنة على وجوب احتجاب المرأة وتغطية وجهها عن الرجال الأجانب أضف إليها أدلة القرآن الأربعة تكن عشرة أدلة من الكتاب والسنة ثم يليها الدليل الآتي:

الدليل الحادي عشر: الاعتبار الصحيح والقياس المطرد الذي جاءت به هذه الشريعة الكاملة وهو إقرار المصالح ووسائلها والحث عليها، وإنكار المفاسد ووسائلها والزجر عنها. فكل ما كانت مصلحته خالصة أو راجحة على مفسدته فهو مأمور به أمر إيجاب أو أمر استحباب. وكل ما كانت مفسدته خالصة أو راجحة على مصلحة فهو نهي تحريم أو نهي تنزيه. وإذا تأملنا السفور وكشف المرأة وجهها للرجال الأجانب وجدناه يشتمل على مفاسد كثيرة وإن قدر فيه مصلحة فهي يسيرة منغمرة في جانب المفاسد. فمن مفاسده:

أولا: الفتنة، فإن المرأة تفتن نفسها بفعل ما يجمل وجهها ويبهيه ويظهره بالمظهر الفاتن. وهذا من أكبر دواعي الشر والفساد.

ثانيا: زوال الحياء عن المرأة الذي هو من الإيمان ومن مقتضيات فطرتها. فقد كانت المرأة مضرب المثل في الحياء. " أحي من العذراء في خدرها "، وزوال الحياء عن المرأة نقص في إيمانها، وخروج عن الفطرة التي خلقت عليها.

ثالثا: افتتان الرجال بها لاسيما إذا كانت جميلة، وحصل منها تملق وضحك ومداعبة في كثير من السافرات وقد قيل: " نظرة فسلام،

فكلام، فموعد فلقاء ".

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. فكم من كلام وضحك وفرح أوجب تعلق قلب الرجل بالمرأة، وقلب المرأة بالرجل فحصل بذلك من الشر ما لا يمكن دفعه نسأل الله السلامة.

رابعا: اختلاط النساء بالرجال، فإن المرأة إذا رأت نفسها مساوية للرجل في كشف الوجه والتجول سافرة لم يحصل منها حياء ولا خجل من مزاحمة، وفي ذلك فتنة كبيرة وفساد عريض. وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم، ذات يوم من المسجد وقد اختلط النساء مع الرجال في الطريق فقال النبي صلى الله عليه وسلم :{استأخرن فإنه ليس لكن أن تحتضن الطريق. عليكن بحافات الطريق}.

فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق به من لصوقها. ذكره ابن كثير عند تفسير قوله تعالى:{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١].

وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على وجوب احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب، فقال في الفتاوى المطبوعة أخيراً ص 110 ج 2 من الفقه و22 من المجموع: (وحقيقة الأمر أن الله جعل

الزينة زينتين: زينة ظاهرة، وزينة غير ظاهرة، ويجوز لها إبداء زينتها الظاهرة لغير الزوج وذوات المحارم، وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب يرى الرجل وجهها ويديها وكان إذ ذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين، وكان حينئذ يجوز النظر إليها لأنه يجوز لها إظهاره. ثم لما أنزل الله آية الحجاب بقوله:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا } [الأحزاب: ٥٩] (حجب النساء عن الرجال).

ثم قال: (والجلباب هو الملاءة وهو الذي يسميه ابن مسعود وغيره الرداء وتسميه العامة الإزار وهو الإزار الكبير الذي يغطي رأسها وسائر بدنها، ثم يقال: فإذا كن مأمورات بالجلباب لئلا يعرفن وهو ستر الوجه أو ستر الوجه بالنقاب كان الوجه واليدان من الزينة التي أمرت أن لا تظهرها للأجانب، فما بقي يحل للأجانب النظر إلى الثياب الظاهرة فابن مسعود ذكر آخر الأمرين، وابن عباس ذكر أول الأمرين) إلى أن قال: (وعكس ذلك الوجه واليدان والقدمان ليس لها أن تبدي ذلك للأجانب على أصح القولين بخلاف ما كان قبل النسخ بل لا تبدي إلا الثياب). وفي ص 117، 118 من الجزء المذكور (وأما وجهها ويداها وقدماها فهي إنما نهيت عن إبداء ذلك للأجانب لم تنه عن إبدائه للنساء ولا لذوي المحارم) وفي ص 152 من هذا الجزء قال: (وأصل هذا أن تعلم أن الشارع له مقصودان: أحدهما الفرق بين الرجال والنساء. الثاني: احتجاب النساء). هذا كلام شيخ الإسلام، وأما كلام غيره من فقهاء أصحاب الإمام أحمد فأذكر المذهب عند المتأخرين.

قال في المنتهى (ويحرم نظر خصي ومجبوب إلى أجنبية) وفي موضع آخر من الإقناع (ولا يجوز النظر إلى الحرة الأجنبية قصداً ويحرم نظر شعرها) وقال في متن الدليل: (والنظر ثمانية أقسام...).

الأول: نظر الرجل البالغ ولو مجبوباً للحرة البالغة الأجنبية لغير حاجة فلا يجوز له نظر شيء منها حتى شعرها المتصل أ.هـ

وأما كلام الشافعية فقالوا: إن كان النظر لشهوة أو خيفت الفتنة به فحرام قطعاً بلا خلاف، وإن كان النظر بلا شهوة ولا خوف فتنة ففيه قولان حكاهما في شرح الإقناع لهم وقال: (الصحيح يحرم كما في المنهاج كأصله ووجه الإمام باتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات الوجوه وبأن النظر مظنة للفتنة ومحرك للشهوة).

وقد قال الله تعالى:{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾} [النور: ٣٠]. واللائق بمحاسن الشريعة سد الباب والإعراض عن تفاصيل الأحوال ا.هـ. كلامه.

وفي نيل الأوطار وشرح المنتقى (ذكر اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه لاسيما عند كثرة الفساق).

ولا أعلم لمن أجاز نظر الوجه والكفين من الأجنبية دليلاً من الكتاب والسنة سوى ما يأتي:

الأول: قوله تعالى:{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١]؛ حيث قال ابن عباس رضي الله عنهما: " هي وجهها وكفاها والخاتم ".

قال الأعمش عن سعيد بن جبير عنه. وتفسير الصحابي حجة كما تقدم.

الثاني: ما رواه أبو داود في « سننه » عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال:{**يا أسماء إن المرأة إذا بلغت سن المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا**}. وأشار إلى وجهه وكفيه.

الثالث: ما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أخاه الفضل كان رديفاً للنبي صلى الله عليه وسلم، في حجة الوداع فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي صلى الله عليه وسلم، يصرف وجه الفضل إلى الشق الأخر، ففي هذا دليل على أن هذه المرأة كاشفة وجهها. **ولكن هذه الأدلة لا تعارض ما سبق من أدلة وجوب ستره وذلك لوجهين:**

أحدهما: أن أدلة وجوب ستره ناقلة عن الأصل، وأدلة جواز كشفه مبقية على الأصل، **والناقل عن الأصل مقدم كما هو معروف عند الأصوليين**؛ وذلك لأن الأصل بقاء الشيء على ما كان عليه. فإذا وجد الدليل الناقل عن الأصل دل ذلك على طروء الحكم على الأصل وتغييره له.

ولذلك نقول إن مع الناقل زيادة علم. وهو إثبات تغيير الحكم الأصلي والمثبت مقدم على النافي. وهذا الوجه إجمالي ثابت حتى على تقدير

تكافؤ الأدلة ثبوتاً ودلالة.

الثاني: إننا إذا تأملنا أدلة جواز كشفه وجدناها لا تكافىء أدلة المنع ويتضح ذلك بالجواب عن كل واحد منها بما يلي:

أولا: عن تفسير ابن عباس ثلاثة أوجه:

أحدهما: محتمل أن مراده أول الأمرين قبل نزول آية الحجاب كما ذكره شيخ الإسلام ونقلنا كلامه آنفاً.

الثاني: يحتمل أن مراده الزينة التي نهى عن إبدائها كما ذكره ابن كثير في تفسيره ويؤيد هذين الاحتمالين تفسيره رضي الله عنه لقوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾} [الأحزاب: ٥٩]. كما سبق في الدليل الثالث من أدلة القرآن.

الثالث: إذا لم نسلم أن مراده أحد هذين الاحتمالين فإن تفسيره لا يكون حجة يجب قبولها إلا إذا لم يعارضه صحابي آخر. فإن عارضه صحابي آخر أخذ بما ترجحه الأدلة الأخرى، وابن عباس رضي الله عنهما قد عارض تفسيره ابن مسعود رضي الله عنه حيث فسر قوله: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١]. بالرداء والثياب وما لابد من ظهوره فوجب

طلب الترجيح والعمل بما كان راجحاً في تفسيريهما.

ثانيا: وعن حديث عائشة بأنه ضعيف من وجهين:

أحدهما: الانقطاع بين عائشة وخالد بن دريك الذي رواه عنها كما أعله بذلك أبو داود نفسه حيث قال: خالد بن دريك لم يسمع من عائشة وكذلك أعله أبو حاتم الرازي.

الثاني: أن في إسناده سعيد بن بشير النصري نزيل دمشق تركه ابن مهدي، وضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي وعلى هذا فالحديث ضعيف لا يقاوم ما تقدم من الأحاديث الصحيحة الدالة على وجوب الحجاب. وأيضاً فإن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها كان لها حين هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، سبع وعشرون سنة. فهي كبيرة السن فيبعد أن تدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق تصف منها ما سوى الوجه والكفين والله أعلم، ثم على تقدير الصحة يحمل على ما قبل الحجاب لأن نصوص الحجاب ناقلة عن الأصل فتقدم عليه.

ثالثا: وعن حديث ابن عباس بأنه لا دليل فيه على جواز النظر إلى الأجنبية لأن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يقر الفضل على ذلك بل حرف وجهه إلى الشق الأخر ولذلك ذكر النووي في شرح صحيح مسلم بأن من فوائد هذا الحديث تحريم نظر الأجنبية.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في فوائد هذا الحديث: وفيه منع النظر إلى الأجنبيات وغض البصر، قال عياض وزعم بعضهم أنه غير واجب إلا عند خشية الفتنة قال: وعندي أن فعله صلى الله عليه وسلم، إذا غطى وجه الفضل كما في الرواية. فإن قيل: فلماذا لم

يأمر النبي صلى الله عليه وسلم، المرأة بتغطية وجهها

فالجواب: أن الظاهر أنها كانت محرمة والمشروع في حقها أن لا تغطي وجهها إذا لم يكن أحد ينظر إليها من الأجانب، أو يقال لعل النبي صلى الله عليه وسلم، أمرها بعد ذلك. فإن عدم نقل أمره بذلك لا يدل على عدم الأمر.

إذ عدم النقل ليس نقلاً للعدم. وروى مسلم وأبو داود عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن نظرة الفجاءة فقال:{اصرف بصرك} أو قال: فأمرني أن أصرف بصري.

رابعا: وعن حديث جابر بأن لم يذكر متى كان ذلك فإما أن تكون هذه المرأة من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً فكشف وجهها مباح، ولا يمنع وجوب الحجاب على غيرها، أو يكون قبل نزول آية الحجاب فإنها كانت في سورة الأحزاب سنة خمس أو ست من الهجرة، وصلاة العيد شرعت في السنة الثانية من الهجرة.

قال الشيخ: واعلم أننا إنما بسطنا الكلام في ذلك لحاجة الناس إلى معرفة الحكم في هذه المسألة الاجتماعية الكبيرة التي تناولها كثير ممن يريدون السفور. فلم يعطوها حقها من البحث والنظر، مع أن الواجب على كل باحث يتحرى العدل والإنصاف وأن لا يتكلم قبل أن يتعلم. وأن يقف بين أدلة الخلاف موقف الحاكم من الخصمين فينظر بعين العدل، ويحكم بطريق العلم، فلا يرجح أحد الطرفين بلا مرجح، بل ينظر في الأدلة من جميع النواحي، ولا يحمله اعتقاد أحد القولين على المبالغة والغلو في إثبات حججه والتقصير والإهمال

لأدلة خصمه.

ولذلك قال العلماء: ينبغي أن يستدل قبل أن يعتقد ليكون اعتقاده تابعاً للدليل لا متبوعاً له؛ لأن من اعتقد قبل أن يستدل قد يحمله اعتقاده على رد النصوص المخالفة لاعتقاده أو تحريفها إذا لم يمكنه ردها. ولقد رأينا ورأى غيرنا ضرر استتباع الاستدلال للاعتقاد حيث حمل صاحبه على تصحيح أحاديث ضعيفة. أو تحميل نصوص صحيحة ما لا تتحمله من الدلالة تثبيتاً لقوله واحتجاجاً له. فلقد قرأت مقالاً لكاتب حول عدم وجود الحجاب احتج بحديث عائشة الذي رواه أبو داود في قصة دخول أسماء بنت أبي بكر على النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله لها: إن المرأة إذا بلغت سن المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه، وذكر هذا الكاتب أنه حديث صحيح متفق عليه، وأن العلماء متفقون على صحته، والأمر ليس كذلك أيضاً وكيف يتفقون على صحته وأبو داود راويه أعله بالإرسال، وأحد رواته ضعفه الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث، ولكن التعصب والجهل يحمل صاحبه على البلاء والهلاك.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وتعر من ثوبين من يلبسهما يلقى الردى بمذلة وهو أنثوب من الجهل المركب فوقه ثوب التعصب بئست الثوبان وتحل بالإنصاف أفخر حلة زينت بها الأعطاف والكتفان وليحذر الكاتب والمؤلف من التقصير في طلب الأدلة وتمحيصها والتسرع إلى القول بلا علم فيكون ممن قال الله عز وجل فيهم: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [الأنعام: ١٤٤].

أو يجمع بين التقصير في طلب الدليل والتكذيب بما قام عليه الدليل

فيكون منه شر على شر ويدخل في قوله تعالى:{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ } [الزمر: ٣٢].

نسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقاً ويوفقنا لإتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويوفقنا لاجتنابه ويهدينا صراطه المستقيم إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وعلى آله وأصحابه، وأتباعه أجمعين (1).

سابعًا: تربت عائشة رضي الله تعالى عنها في بيت الإيمان والعلم والطهر والعفاف، وهكذا ينبغي أن تكون بيوت المسلمين.

ثامنًا: أن أم المؤمنين عائشة أعطيت تسعًا من حميد الخصال وكريم الفضائل، لم تعطها امرأة في مشرق شمس الدعوة المحمدية إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

تاسعًا: تلك السيدة الفاضلة احتلت مكان الصدارة في البيت النبوي الشريف الذي كرمه الله تعالى فاذهب عنه الرجس وطهره تطهيرًا.

عاشرًا: الابتلاء سنة الله عز وجل في الذين خلوا من قبلنا؛ قال الله عز وجل:{لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾} [آل عمران: ١٨٦].

ولقد ابتليت رضي الله تعالى عنها في أعز شيء تملكه بعد الدين ألا وهو الشرف والعفة - وهي والذي نفسي بيده لمن أنقى الناس شرفًا وعفة - لكن ماذا فعلت؟

(1) رسالة لفضيلة العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى عن فرضية الحجاب.

والجواب: صبرت صبرًا جميلاً، وأوكلت أمرها إلى الله الذي يعلم ببراءتها وهو القادر وحده على أن يظهر ذلك ويخرجها من هذا الغم والحزن والكرب الذي أحاط بها من كل حدب وصوب حتى إنها لم يرقا لها دمع يوم وليلتين ولم تكتحل بنوم لشدة ما أصابها.

ويأتي الفرج من عند الله عز وجل، وينزل الوحي على رسول الله، ويحمل معه البشرى ببراءتها، ونزل في ذلك قرآنا يتلى إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وبقدرة الحي القيوم تنقلب المحنة منحة والرزية عطية، والكرب فرج والضيق سعة.

فكان من ثمرات الصبر في تلك الحادثة أن الله تعالى اخبر بان ما قيل في عائشة من الإفك كان خيرًا لها رضي الله تعالى عنها، ولم يكن ذلك الذي قيل شرًا لها، ولا خافضًا من شانها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، واعظك شانها وكرامتها، وصار لها ذكرًا جميلا وثناءً حسناء بين أهل الأرض والسماء وذلك ببراءتها، فيالها من منقبة ما اجلها وما أعظمها.

فعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها خطاياه} (1).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وان الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط} (2).

---

(1) أخرجه البخاري (10 / 91)، ومسلم (2573).

(2) حسن: أخرجه الترمذي (2398).

فكانت الصديقة بنت الصديق من الذين ابتلاهم الله عز وجل بعظيم البلاء؛ فكان لها عظيم الأجر وكانت من الراضين بما قدره الله تعالى عليها، فارضاها الله عز وجل بنزول براءتها من السماء رضي الله تعالى عنها وأرضاها وجعل أعالي الفردوس مسكنها ومثواها.

حادي عشر: ويستفاد من هذه القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر يعتريه عليه الصلاة والسلام ما يعتري البشر من الابتلاءات ومن المنغصات وغيرها من الأشياء التي لا يسلم منها البشر.

ثاني عشر: أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب؛ فهو لا ينطق عن الهوى ولا يتكلم من تلقاء نفسه أن هو إلا وحي يوحى إليه من ربه.

قال شيخنا حفظه الله تعالى ورعاه: ومن ادعى علم الغيب في مسالة واحدة كفر بالإجماع.

ثالث عشر: خطورة الدخول على النساء؛ فإن صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه لما أتى بالسيدة عائشة في الهودج تُكلم فيه رضي الله عنه مع أنه من أفضل الصحابة؛ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أرسله لكي يتفقد الأحوال من بعد الغزوة، وهو ما دخل على السيدة عائشة حاشاه، وإنما وجدها نائمة فعرفها، ومع هذا كله تكلم فيه، ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الأمر الخطير، وقال:{إياكم والدخول على النساء}، قالوا: يا رسول الله أرأيت الحمو؟ قال صلى الله عليه وسلم :{الحمو الموت}؛ أي: كما تفر من الموت فر من الحمو.

إن الشريعة الإسلامية حرصت على بذل الأسباب التي تحفظ الرجال

من النساء والنساء من الرجال، ولو لم يكن في فتنة النساء إلا قول النبي صلى الله عليه وسلم ما تركت فتنة بعدي أضر على الرجال من النساء؛ فهذا نص صحيح صريح؛ يدل على أنه ينبغي على كل مؤمن بالله واليوم الآخر، وعلى كل مؤمنة تؤمن بالله تعالى واليوم الآخر أن تحفظ دينها، وأن تحفظ عرضها.

وعلى كل داعية أن يحرص على آداب الشريعة الإسلامية في حفظ هذا الثياب المتين، والكف عن الاختلاط؛ فإن ذلك أتقى وأطهر لله تعالى؛ قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٣]؛ سبحان الله، إذا كان هذا مع أمهات المؤمنين الطاهرات العفيفات التي أثني الله تعالى عليهن من فوق سبع سماوات؛ فقال الله تعالى: {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [النور: ٢٦]، وهذا مع من؟ مع الصحابة الذين اصطفاهم الله تعالى لنبيه وهم أشد تعظيمًا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرضه وأهله، ومع ذلك قال الله تعالى: {ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٣].

وهذا يدل على أن الشرع يريد قفل باب الفتنة، ومن فتح على المسلمين باب الفتنة فلا بارك الله تعالى في قوله، ونسأل الله تعالى أن يرد فتنته عليه؛ فهذا أصل من أصول الإسلام الذي حرص عليه سلف هذه الأمة وهو النصيحة العامة للمسلمين.

ومن العجيب أن بعض المتهتكين الخارجين عن آداب الإسلام يقولون: إن الرجل إذا نظر إلى المرأة والفته امتنعت الفتنة من بينهما! سبحان الله العظيم.

أيعالج الداء بالداء؟!

هل هؤلاء أعلم من الله تعالى أو أعلم بمصالح الخلق من الخالق إذا اعتقدوا ذلك كفروا كفرًا مخرجًا من الملة الإسلامية. نسال الله العظيم أن يجنبنا الله تعالى الفتن ما ظهر منها وما بطن إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فهذا النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر فاطمة بنت قيس أن تعتد في بيت أم شريك رجع النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا، وقال: تلك امرأة يغشاها أصحابي، وهذا يدل على حرص الشريعة على قفل الأبواب المفضية لخلط الرجال بالنساء، وقفل الأبواب المفضية للفتنة.

ولهذا نقلها عليه الصلاة والسلام من بيت أم شريك إلى بيت ابن أم مكتوم حفاظًا لها على دينها وحرصًا على قفل أبواب الفتنة؛ فهذا هو السلم الذي ينبغي على كل مسلم أن يدعو إليه، ولا يبالي بما يقوله القائلون: أن هذا تشدد وتنطع ورجعي؛ فإن هؤلاء هم الذين يفتحون أبواب الفتنة على المسلمين. نسأل الله تعالى أن يجعل كيدهم في نحرهم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وفتنة النساء من أعظم الفتن؛ فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه ما ترك فتنة أضر على الرجال من بعده من النساء، إنها فتنة النساء التي قرحت القلوب، وانطمست بها البصائر وذلت بها الأقدام، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الدخول على النساء؛ فقال: إياكم والدخول على النساء؛ أي: احذروا؛ خاطب رسول الأمة صلى

الله عليه وسلم بهذا الخطاب؛ الصالحين والفاسدين، خاطب بهذا من يحفظ نفسه ومن لا يحفظها.

إن السلامة من سلمى وجارتها ::: ألا تمر بواد حول واديها

فالدخول على النساء فتنة وشر وبلاء؛ فلا يحل لمسلم أن يدخل على النساء - إلا لحاجة شرعية وفي وجود محرم - سواء كن صالحات أو طالحات، فلا يجوز للرجل أن يدخل على المرأة إذا كانت وحيدة.

أو يدخل عليها ومعها من يثير الفتنة والفسق؛ كأن يكون معها المموسات والعاهرات والفاسقات، ومن لا تبالي بعرضها ولا تبالي بفتنة غيرها، وأعظم ما يكون إثما وأشد ما يكون معصية في الدخول على المرأة إذا كانت حرمتها عظيمة، وهي امرأة الجار؛ فالزنا من امرأة الجار أعظم ذنبا عند الله تعالى من الزنا بغيرها؛ قال صلى الله عليه وسلم لما سأله عبد الله بن مسعود أي الذنب أعظم؟ قال:{أن تجعل لله ندا وهو خلقك}، قال ثم أي؟ قال:{أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك}، قال ثم أي؟ قال:{أن تزاني حليلة جارك}؛ فأنزل الله تعالى مصداقا لهذا:{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾} [الفرقان: ٦٨]؛ والزنا مراتب؛ فالنظر إليها بقصد الشهوة خلاف النظر إلى عيرها. وأعظم ما تكون الخلوة أيضا؛ الخلوة بامرأة الشهيد؛ فهذا أعظم ذنبا وجرما، كذلك ذكر أهل العلم أن الخلوة بغير المحارم يفسد المرأة على غيرها.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :{إياكم والدخول على النساء..}. لم يفرق صلى الله عليه وسلم بين كونهن مجتمعات أو مفترقات، وهذا العموم مخصص؛ لأن المراد به غير ذوات المحرم، وإن كان النبي

صلى الله عليه وسلم حذر من مجرد الدخول على النساء؛ فالجلوس معهن أشد إثما وأعظم فتنة، ولم يفرق النبي صلى الله عليه وسلم بين الكبيرة والصغيرة، والجميلة ولا القبيحة؛ فالإنسان لا يأمن على نفسه الفتنة.

وجلوس الرجل مع الأجنبيات يحدث له إلفة بالجنس الغريب، وإذا ألفت المرأة الرجال ذهبت مروءتها، وإذا ألف الرجل النساء فإنه يزول منه خير كثير؛ فإما أن يتضرر في فحولته ورجولته، وإما أن يتخنث في قوله وعمله، وإما لا يصبح أن يبالي بما يدخل على أهله، وحينئذ يتضرر في دينه ويتضرر في خلقه، وهذه فطرة الله تعالى.

لا يستطيع أحد أن يقول: لا تضيقوا على الناس؛ فإن الضيق كل الضيق هو فتح باب الفتنة، ولو كان في هذا تضيق فإن فتح باب الفتنة أضيق وأشد وأعظم بلاءً وضررًا، فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم السبيل، وقفل الباب المفضي إلى ما حرمه الله تعالى؛ لأن الدخول على النساء مظنة الخطاب والمباسطة والمؤانسة، وإذا ابتعد الإنسان عن الرقيب لم يأمن أن يذل لسانه، والمرأة فيها الفتنة شاءت أو أبت، وإن كانت صالحة فإن الرجل قد لا يكون صالحا، وإذا كان الرجل صالحا لم يأمن أن تكون المرأة مفتونة؛ وحينئذ أخذ الشرع بالغالب؛ وهو أن جلوس الرجال مع النساء فتنة، وأن مخالطة الرجال للنساء فتنة.

ومن هنا نجد الشريعة تقفل هذه الأبواب المفضية إلى الفساد، حتى إن المرأة وهي في موقفها بين يدي ربها قد هيئات كل الأسباب للبعد عن الفتنة، وهي تذكر الله تعالى، وبين الناس يخطئ إيمامها في صلاته فلا تفتح عليه بالقول؛ قال صلى الله عليه وسلم :{إنما التسبيح

للرجل والتصفيق للنساء}؛ فالرجل إذا أخطأ إيمامه يقول له: سبحان الله، وهي منعت من هذا، منعت من أي شيء، منعت من ذكر الله تعالى، مع أن الذكر أعظم أجرا لها، ومعها ذلك منعت منه من أجل أنه قد يفضي إلى الحرام ألا وهو الوقوع في الفتنة.

والسبب في ذلك أن الرجل مجبول على الفتنة إذا سمع صوت المرأة؛ وهذا مما أكده العلماء؛ أنه لا يجوز للمرأة أن تُسمع الرجل صوتها إلا من ضرورة وحاجة، ومن ألف سماع أصوات النساء ضعف قلبه، وضعفت رجولته وضعفت فحولته، ومن أراد أن يجرب فليجرب ذلك، فقد ذكره الحكماء والعقلاء، ومازالوا يحذرون من مجالسة النساء ومؤانستهم.

ليس هذا احتقارا للنساء ولا احتقارا للرجال، ولكنه قطع لدابر الفتن، ووضع للأمور في نصابها، وهذا الذي يقول: إن الرجل إذا جالس المرأة أو خاطب الرجل المرأة أو خاطبت المرأة الرجل فليس هناك من حرج، ولماذا تضيقون على الناس، ولماذا تسيئون الظن بالناس؟؟

ومنهم من يقول والعياذ بالله تعالى وهذا من حجج إبليس الذي يقذفها في القلوب التي لا توفق لمعرفة الحق: إن الشاب إذا عود أن يخاطب النساء والمرأة إذا عودت أن تخاطب الرجال عندها يصبح شيئا معروفا مألوفا فتكون الفتنة أخف، سبحان الله العظيم، أهؤلاء يستدركون على الله تعالى؟! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:{ما تركت بعدي فتنة أشر على الرجال من النساء}؛ فهي فتنة في الخلوة، وفتنة في الدخول وفتنة في الحديث، وفتنة في المؤانسة، وفتنة في المباسطة.

وكم من كلمة جرت إلى كلمات، وكم من كلمات مرت إلى أضحكات وانتهت إلى ويلات وفضائح وعار على المؤمنين والمؤمنات؛ فحيي بالمؤمن أن يحمد الله تعالى على العافية، وكل مسلم وفقه الله تعالى أن يحافظ وأن يحرص كل الحرص على ألا يخالط النساء، وألا يستهين بفتنتهن، فإنك تراه مطمئن القلب سليم الدين سليم العرض.

ومن تهتك في ذلك وتساهل في ذلك وتسلط على عورات المسلمين وألف الجلوس مع النساء لم يأمن أن يبتليه الله عز وجل في عرضه ببلية، ولذلك ينبغي لكل مسلم أن يأخذ بهذا الهدي النبوي في التحذير والترهيب من الخلوة بالنساء والجلوس مع النساء، وأن الرجل الأجنبي لا يجوز له أن يختلي بالنساء إلا من ضرورة...

ولا يجوز للمسلم أن يحابي أقرباءه على توجيه النبي صلى الله عليه وسلم فإن القريب كابن العم والأخ وأخت الزوجة، ونحوهم مما هم على الحرمة الغير مؤبدة لا يجوز لهم الدخول على النساء. نسأل الله العظيم أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

رابع عشر: أن أصحاب الدعوة من الرسل وأتباعهم محاربون من قبل أعداءهم، وهؤلاء الأعداء لا يدعون سبيلاً للنيل من أصحاب الدعوة إلا وسلكوه؛ فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يعلم ذلك جيدًا حتى لا يؤثر ذلك على مسيرته، وليعلم بأن الله ناصره وخاذل أعداءه.

فمن شروط الدعوة إلى الله تعالى الصبر على الأذى.

قال علماؤنا: يشترط للدعوة إلى الله تعالى ما يلي:

أولا: العلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: العمل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: الدعوة بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

رابعًا: الصبر بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فلا بد للداعي أن يصبر على أذى الناس حتى ولو كانت الأذية من أقرب أقربائه؛ قال الله تعالى:{وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ} [العصر: ٣]؛ فالله تعالى أوصى أولا بالحق الذي هو الدعوة إلى الله تعالى بما شرع على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ثم أوصى بالصبر؛ لان الذي يقول الحق فلا بد ولا محالة إلا أن يؤذى؛ فلا بد أن يصبر على هذا الأذى حتى تسير الدعوة كما ينبغي؛ ولذلك صبر النبي صلى الله عليه وسلم على كثير من الأذى حتى في عرضه.

خامس عشر: قد يقع من بعض الأخيار هفوات وزلات بل كبائر كما حدث من حسان بن ثابت، ومسطح، وحمنة رضي الله عنهم ولكن الله تعالى يتوب على من تاب.

سادس عشر: أن عائشة رضي الله تعالى عنها فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وهي زوجة النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، وأنها أحب الناس إليه، ولم يتزوج بكرًا غيرها.

سابع عشر: جواز أن يحب الرجل إحدى نسائه عن الأخرى ولا يعد ذلك من عدم العدل المنهي عنه شرعًا؛ حيث أن المحبة وما شابهها من أعمال القلوب التي لا دخل للإنسان فيها.

ثامن عشر: كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تحتل مكان الصدارة في البيت النبوي الشريف، وكان بيتها رضي الله تعالى عنها مهبط الوحي، ومنبع للفوائد وموئل العلماء وشداة المعرفة.

تاسع عشر: كانت رضي الله تعالى عنها من أعلم النساء على الإطلاق؛ فقد ملئت الدنيا بعلمها، وكانت من أفقه نساء الأمة قاطبة، وكانت علم في عالم الرواية والحفظ؛ فقد روت رضي الله تعالى عنها (2210) أحاديث اتفق البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، انفرد البخاري بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين؛ لذا كانت مرجعًا لكثير من الصحابة رضي الله عنهم في كثير من المسائل التي يحدث فيها نزاع؛ فكان قولها هو الفصل. ولقد سمع منها خلق كثير ملئوا الدنيا علمًا ودعوة فرضي الله تعالى عنها وأرضاها.

وهذا إن دل فإنما يدل على فضل التفقه في الدين؛ فقد جاء في حديث معاوية رضي الله عنه (وعمر وابنه وأبو هريرة وأنس وعبد الله بن مسعود، وابن عباس) ورواه أحمد في المسند، ومالك في الموطأ، والشيخان في الصحيحين، وابن حبان في صحيحه والدارمي في سننه وأبو داود الطاليسي في المسند، والخطيب في الفقيه والمتفقه، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله والبيهقي في المدخل للسنن والطحاوي في مشكل الآثار؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{من يرد الله به خير يفقه في الدين} وفي بعض:{وإنما أنا قاسم ويعطي الله}،{ولم تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله}؛ فمن علامة الخيرة في العبد أن يوفق للتفقه في دين الله تعالى، والفرق بين الحيوان والإنسان العلم النافع الذي نتعلمه، وإذا فقهت في الدين حصل فيك معنى الإنسانية، وقمت بالغاية التي من أجلها خلقت.

مفهوم الحديث: أن الله تعالى إذا خزل العبد وغضب عليه يصرفه عن

التفقه في دين الله فيعيش جاهلاً يعبد الله على حسب هواه أو لا يعبد مولاه، وهو في الحالتين على ضلال؛ فهذا نص صحيح صريح في بيان فضل التفقه في الدين. وهذا المفهوم جاء له منطوق بسند صحيح في مسند أبو يعلى (ج 1 / 165) ولفظه: ومن لم يفقهه في الدين لم يبالي به.

عشرون: كان من بركتها رضي الله تعالى عنها نزول آية التيمم؛ فكانت بركة وخير للمسلمين جميعًا إلى أن يرث الله تعالى ومن عليها.

الحادي والعشرون: يؤخذ من قصة عائشة رضي الله تعالى عنها حرمة النميمة والخوض في أعراض الناس؛ والنميمة من نم الحديث إذا نقله بين الناس ليفسد العلاقة بينهما؛ وهي شعلة نار تحرق بيوت المؤمنين والمؤمنات، وتفرق شمل المسلمين والمسلمات، وتبكي عيون الآباء والأمهات، الله تعالى أعلم كم هدمت من بيوت للأزواج والزوجات، وقد شتت وضيعت الأبناء والبنات.

ولذلك كانت من كبائر الذنوب، وألبس الله تعالى صاحبها المهانة في الدنيا والآخرة، فالغيبة والنميمة من أكبر الكبائر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة عن الغيبة:**{أتدرون ما الغيبة ؟}** قالوا: الله ورسوله أعلم قال:**{أن تذكر أخاك بما فيه}** قال: أرأيت إن كان في أخي ما ذكرت؟ قال:**{إن كان فيه ما ذكرت فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما ذكرت فقد بهته}** [1]؛ وقال صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله

(1) صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه (5758) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

بن مسعود: " ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة القالة [1] بين الناس، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم قال: إن الرجل يصدق حتى يكتب صديقا ويكذب حتى يكتب كذابا " [2]، وقال صلى الله عليه وسلم :{لا يدخل الجنة نمام} [3].

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء: اعلم أن النميمة إنما تطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كما تقول: فلان يتكلم فيك بكذا. قال وليست النميمة مخصوصة بهذا بل حد النميمة كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث وسواء كان الكشف بالكناية أو بالرمز أو بالإيماء فحقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، فلو رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة، قال:

وكل من حملت إليه نميمة وقيل له: فلان يقول فيك أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور؛ الأول: أن لا يصدقه لأن النمام فاسق.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح له فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

---

(1) (العضة) هذه اللفظة روها على وجهين أحدهما العضة بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العدة والزنة والثاني العضة بفتح العين وإسكان الضاد على وزن الوجه وهذا الثاني هو أشهر في روايات بلادنا والأشهر في كتب الحديث وكتب غريبة والأول أشهر في كتب اللغة ونقل القاضي أنه رواية أكثر شيوخهم وتقدير الحديث والله أعلم ألا أنبئكم ما العضة الفاحش الغليظ التحريم؟

(2) أخرجه مسلم (2606).

(3) أخرجه مسلم (105).

الخامس: أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: أن لا يرضي لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته عنه فيقول: فلان حكى كذا فيصير به نماما ويكون آتيا ما نهى عنه.

قال علماؤنا:..... فالدين الإسلامي دين الصراحة والوضوح ودين حفظ عرض المؤمن في غيبته قال صلى الله عليه وسلم يوم النحر من حديث ابن عباس رضي الله عنه :{يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأي بلد هذا؟. قالوا: بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا} فأعادها مرارا ثم رفع رأسه فقال:{اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت}.

قال ابن عباس رضي الله عنه : والذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته " فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " [1]؛ وقال تعالى:{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾} [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾} [الحجرات: ١٢]. ولذلك لما قالت السيدة عائشة - رضي الله تعالى عنها - للنبي صلى الله عليه وسلم : " حسبك من صفية [2] كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال صلى الله عليه وسلم :{لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته}؛ قالت: وحكيت له

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (1652).

(2) صفية؛ هي أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - تزوجها النبي ﷺ بعد غزوة خيبر في محرم 7 هـ.

إنسانا [1] قال:{ما أحب أني حكيت إنسانا [2] وأن لي كذا وكذا [3]} [4]، وفي عشرين من رمضان سنة 8 هـ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة يطفون حول الكعبة ويعظمونها فقال صلى الله عليه وسلم :{أتعجبون من حرمة الكعبة عند الله تعالى؟! والذي نفسي بيده لحرمة المسلم عند الله تعالى أعظم من حرمة الكعبة}.

فإن قال قائل: لو أن إنسانًا وقع في هذه الكبيرة " الغيبة والنميمة " فماذا يفعل؟

قلنا: إذا وقع الإنسان في هذه الكبيرة فعليه الآتي؛ الأول: الدعاء لمن اغتابه بالمغفرة وذكره بالخير.

الثاني: النهي فورا لمن يسمعه يغتاب أحداً؛ فإن لم يستطع فعليه القيام فوراً، ولذلك يقول علماء الأصول: إن لم تزل المنكر فزل عنه.

الثالث: رد الغيبة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ثبت عنه من حديث أبي الدرداء قال: " من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة " [5]؛ ولذلك لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه في غزوة تبوك [6]، وقال: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمه: حبسه برداه ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : " بئس ما قلت والله يا

(1) أي: فعلت مثل فعله تحقيرا له.

(2) أي: ما يسرني أن أتحدث بعيبه أو ما يسرني أن أحاكيه بأن أفعل مثل فعله أو أقول مثل قوله على وجه التنقيص

(3) أي: ولو أعطيت كذا وكذا من الدنيا أي شيئا كثيرا على ذلك.

(4) صحيح: أخرجه أبو داود (4875)، وقال الألباني: صحيح.

(5) صحيح: أخرجه الترمذي (1931)، وقال السيخ الألباني: صحيح.

(6) كانت في رجب 9 هـ، وكان المسلمون 30 ألف، وعشرة آلاف فرس، والروم 40 ألف.

رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا " فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسكوت الرسول صلى الله عليه وسلم إقرار لمعاذ رضي الله عنه على أنه رد على عرض أخيه كعب بن مالك رضي الله عنهم، وعن أنس رضي الله عنه قال: حدثني عتبان بن مالك أنه عمي فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعالى فخط لي مسجدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء قومه فقال رجل من القوم: أين مالك بن الدخشم، فقال رجل: ذاك من المنافقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لا تقل ذلك ألا تراه يقول لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله ومن قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله تعالى حرم الله وجهه على النار}**؛ فدافع النبي صلى الله عليه وسلم عن مالك بن الدخشم، ورد غيبة أخيه رضي الله عنه.

والأشياء التي لا تدخل في الغيبة ستة؛ الأول: التعريف بقصد المصلحة؛ فمثلاً: لو أن شخصًا به عاهة معينة ولا يستطيع أحد أن يعرفه إلا بهذه العاهة فله ذلك، مع العلم بأن الأعمال بالنيات.

الثاني: التظلم؛ أي يجوز للمسلم رفع أمر الظالم لمن يأتيه بحقه؛ وذلك لما ثبت عن عائشة أن هند بنت عتبة قالت: " يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف " [1].

الثالث: الإجابة عن حالة شخص بما فيه في حالة السؤال عنه؛ فقد روي أن فاطمة بنت قيس لما خطبها معاوية وأبو الجهم وأسامة بن زيد قال لها للنبي صلى الله عليه وسلم :**{أما معاوية فرجل صعلوق لا**

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (5049).

مال له وأما أبو جهم فرجل ضراب النساء لكن أسامة بن زيد} فقالت: بيدها هكذا أسامة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{طاعة الله وطاعة رسوله خير لك}** فتزوجته فاغتبطت.

الرابع: الإعلام بالشر المراد بالمسلمين، ولذلك لما قال عبد الله بن أبي بن سلول عليه لعنة الله تعالى في رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل، أخبر زيد بن أرقم رسول الله بما قاله هذا اللعين.

الخامس: ذم الرجل المجاهر بالمعصية، وذلك لما ثبت عن عائشة أن رجلا - هو عيينة بن حصن الفزاري - استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال:**{بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة}** (1) قال العلماء: هذا الرجل كان مجاهراً بالمعصية.

السادس: الاستعانة على تغيير المنكر؛ قال صلى الله عليه وسلم لعائشة:**{يا عائشة ما أظن فلانا وفلانا يعرفان ديننا الذي نحن عليه}** (2)، وهذه الستة أشياء جمعها محمد بن عوجن أحد تلاميذ الحافظ بن حجر رحمهما الله تعالى - فقال:

القدح ليس بغيبة في ستة ::: متظلمٍ ومعرفٍ ومحذرِ
ومجاهر فسق ومستفتٍ ::: ومن طلب الإعانة في إزالة منكر

هذه هي الأمور الستة التي لا تدخل في مسمى الغيبة والنميمة فاحذر أيها المسلم من الغيبة والنميمة فهي تجعل العبد مفلسا وتجعله يتعذب في القبر إلى يوم البعث.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (5685).
(2) أخرجه البخاري في صحيحه (5720).

قال الحسن البصري: من نقل إليك حديثا فاعلم أنه ينقل إلى غيرك حديثك، وجاء إليه رجل فقال له: إن فلان يقول فيك كذا فقال له: تباً لك أما وجد الشيطان رسولاً غيرك؟ فحقره وأهانه وجعله من شياطين الإنس.

وقال عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى -: ولد الزنا لا يكتم الحديث، أشار به إلى أن كل من لا يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد الزنا استنباطا من قول الله تعالى:{عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ} [القلم: ١٣]؛ والزنيم هو الدَّعيّ.

وكان بعض السلف إذا قال له إن فلانًا يقول عليك كذا وكذا، يقول له: ما أراه قال ذلك وأظنك كاذبا، فكان السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - يحقرون النمامين حتى ولو كانوا يعلمون أنهم صادقين والنمام يتعاطى النميمة بالحسد وغير ذلك.

وقد أجمع العلماء على أن النميمة من كبائر الذنوب ومن أقبح العادات وأشنع الأفعال، قال بعض السلف: النمام يفعل في ساعة واحدة ما يفعله الساحر في سنة كاملة، وهذا صحيح فكلمة واحدة تجعل الأخ يقتل أخاه وتجعل الرجل يطلق زوجته وربما دمرت هذه الكلمة بيوتًا وسفكت دماء وانتهك بها أعراض الناس، ولذلك قال بعض العلماء: إن الرجل يوصف بكونه نمام لو تكلم بكلمة واحدة بهدف الإفساد، **وأشد ما تكون النميمة إذا كانت بين العلماء وطلاب العلم ونحو ذلك**، عافانا الله وإياكم من الغيبة والنميمة.

***

شكر وتقدير

أشكر الله العلي العظيم الذي أعانني على هذا العمل وأرجو منه المنة والفضل.

كما أشكر زوجتي العزيزة الكريمة التي أعانتني على فعل هذا العمل الذي قل أن يتكلم فيه الناس ألا وهو قصص النساء في القرآن.

وأرجو من الله تعالى أن يجعل لي ولها من الخير نصيبا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كما أوجه الشكر لفضيلة الشيخ/ السعيد بن عبد الحميد الخولي القائم على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجزاه الله تعالى خيرًا على إخلاصه وجهده في شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلبة العلم، فرضي الله تعالى عنه وأرضاه وجعل أعالي الفردوس مسكنه ومثواه.

كما أوجه الشكر لفضيلة الشيخ/ محمود بن المهدي، القائم على شرح العقيدة التي هي روح الدين، وجزاء الله تعالى خيرًا على إخلاصه وجهده في شرح كتب العقائد لطلبة العلم.

رضا بن محمد عثمان الحفناوي

* * *

الفهرس

❊ ❊ ❊